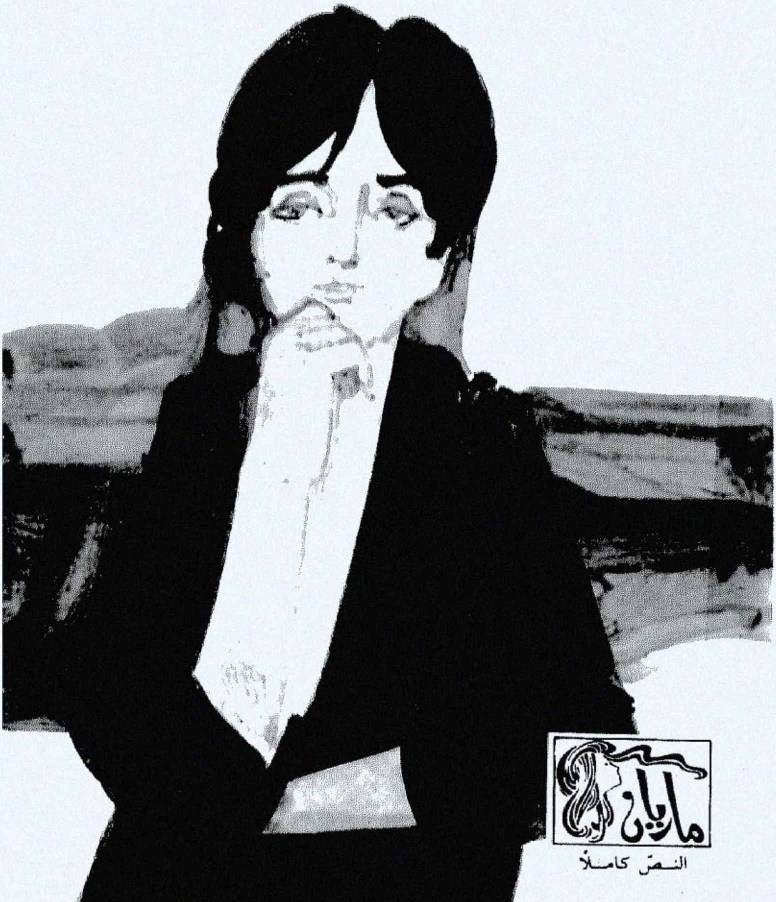
مُونترلانْ

الصَّبَايَا



ماريان

النصّ كاملاً

النصّ كاملاً

للمؤلف
في سلسلة ماريان

- الصبايا
- رأفة بالنساء
- شيطان الخير
- المجذومات
- الملكة الميتة

قيد الاعداد

- سيد سانتياغو
- بور رويال

مارمان

رَوَائعُ الأدَبِ وَالفِكرِ مَنقُولَة إلى العَرَبيَّة

Editions Gallimard

5, rue Sébastien-Bottin
75341 Paris Cedex 07
Téléphone 544-39-19
Télex GALLIM 204121 F
Adresse télégraphique :
ENEREFENE Paris 044
Société anonyme au capital
de 8 737 300 F
572206753 B R.C. Paris

الطبعة الاولى ١٩٨٧

مُونترلانْ

الصَّبَايَا

ترجمة وتعليق
جُورج مَصْروعَة

عويدات

هذا الكتاب هو الحلقة الاولى : من سلسلة عنوانها «الصبايا» . ويجب ان تُقرأ هذه السلسلة حسب التدريج التالي :

١ـ الصبايا

٢ـ رأفة بالنساء

٣ـ شيطان الخير

٤ـ المجذومات

الصّبايا

تقديم
جُورج مَصْروعَة

مونترلان، الكاتب الفرنسيّ المبدع، عايشنا سبعة وسبعين عاماً، من ١٨٩٥ إلى ١٩٧٢، وهو يعتقد اعتقاداً راسخاً، بل يؤمن إيماناً وطيداً بأن فيه هو، هنري ميلون دي مونترلان، تتمثل الرجولة، الرجولة القادرة المسيطرة، الرجولة الكاملة بكل ما يتجلّى فيها من ذكورة، وشهامة، ومروءة، واباء، وعنفوان.

من خلال هذا الإيمان نظر إلى الحياة والكون والفن، وبوحي هذا الإيمان تصرّف، وفكّر، وكتب، فإذا برواياته ومسرحياته درس وتشريح وتحليل وتدقيق في خفايا النفس والشعور، اكثر مما هي عرض وسرد وحكايات.

والمرأة في حياته ليست اكثر من جارية مذعنة وخاضعة، بقدر ما هو «سيّد» مستبدّ. إلا أن وجود أنوثتها ضروري لاكتمال رجولته، وتجلّيها، وامتداد ظلال سلطانها.

وهو عريق النسب، من تلك الطبقة الفرنسيّة التي حافظت على طابعها الارستقراطي في ترف العيش، وأناقة المظهر والتفكير

والتعبير، والتصرف المشوب بالاستهتار، وطلب المتعة المعنويّة والمادية في جو خاصّ، تسوده حريّة لا تقرّها المبادىء الخلقية دائماً، ولم تألفه العامّة.

.وضع رواية عنوانها «مصارعو الضواري»، وألّف تمثيليات عديدة، أهمها: «سيد سنتياغو» و«الملكة الميتة» و«بور رويال»، فاحتلّ مرتبة مرموقة في طليعة الكتاب الناجحين. وبعد سكوت طويل، أصدر هذه المجموعة المؤلفة من أربع حلقات متلاحقة ومتماسكة، وهي: «الصبايا» و«رأفةً بالنساء» و«شيطان الخير» و«المجذومات»، ففتحت له أبواب الأكاديمية الفرنسية، إلا أنه دخلها بدون احتفال، في ما يُشبه تكتّم الحياء، أو لأنه أبى أن يراعي التقليد القاضي بأن يُلقي خطبة «افتتاح» يثني فيها على سلفه في المؤسسة...

ليست هذه السلسلة قصة طويلة، ولا رواية متتابعة، إنما هي دراسة واقعية، موضوعية، لا يفوتها شيء من الصراحة. لكنها ليست عارية، ولا خالعة العذار. تعمّد فيها المؤلف دقّة الوصف، فما تردد في سرد التفاصيل الحميمة، إلا أنه استطاع البقاء على مستوى أدبي فوق التعهّر، وفوق البذاءة فإذا به يعرّي بدون فسوق، ويحلّل الخطيئة بدون تبذّل، ويتبسط في عرض المشاهد الغرامية بدون أن يُفسد الأخلاق، أو يزرع بذور الرذيلة في النفوس. ففي وصفه وتحليله وسرده نفحة أدبية تصرف الأذهان عن التفكير بماهية الموصوف، ونزعة تكاد تكون علمية في أمانتها على إبراز الطبيعة البشرية خالية من اللّبس والغموض.

وأراد المؤلـف التخصّـص في درس جـانـب معين مـن المجتمع الفرنسيّ، فحصر نفسه، في هذه السلسلة، بين نماذج من الفتيات والنساء، وإذا به يتعمّق في الخصوصيّات، ويشبعها درساً بلغ به قرارة الطبيعة البشرية، ونفذ منها إلى العموميات، إلى ما هو «حقيقة انسانية» في كل زمان ومكان. وقد يكون هذا الشمول جوهر أدبه، والقيمة العليا التي تجعل من هذه السلسلة مؤلفاً وافر الحظ في تسنم ذروة الخلود.

ويجد القارىء في هذه الكتب الأربعة ملاحظات تستوقفه وتدعوه إلى التفكير والتأمل، إذْ يكتشف حيالها، في نفسه «أشياء» كان يُحسّها محفوفة بضباب من الغموض، فإذا بها تتّضح وتبدو سافرةً جليّة، وهذا ما عنيناه بنفاذ المؤلف إلى العموميّات من خلال إمعانه في تحليل الخصوصيّات.

ولما كان مونترلان قد تعمّد احياناً التورية والتمويه، عملاً بأسلوب أدبي يعتبره ضرباً من الإبداع، أو طريقة يريد بها التوجّه إلى فئة معيّنة من القرّاء في بيئة معيّنة من المجتمع الفرنسيّ، فقد عمدنا إلى التعليق والشرح لتمكين القارىء العربي من الوقوف على كل ما في هذا السفر من القيمة الفكرية والأدبية.

لقد أجمع النقاد الأوروبيون على أن المؤلف سجل، بهذه السلسلة، فتحاً في دنيا الكتاب لم يسبقه إليه أحد، فكتب رومان زولان، عام ١٩٣٦: «هذه السلسلة اكثر من رواية. إنها، في نظري، أقسى

وأصدق ما قيل حتى الآن في الصبايا. لم أقرأ افضل من هذه الكتب. منذ ثلاثين عاماً».

وكتبت جريدة **«صندي مركري»** اللندنية، في ٣١ تشرين الأول ١٩٣٧: «نجد في هذه السلسلة تحليلاً دقيقاً، يكاد يكون مستمراً، لجميع افكار المرأة في مختلف المناسبات الممكنة. ويبدو للقارىء، بعد مطالعة هذه الكتب المدهشة، أنه لم يبقَ إلاّ القليل مما يمكن قوله في هذا اللغز الكبير الذي هو المرأة، وأنه لم يبقَ منه أيضاً إلا القليل مما هو جدير بأن يُعرف».

وقالت جريدة **«لندن ويكلي»**، في ١٢ تشرين الثاني ١٩٣٧: «يستعمل الناس احياناً كلمة «خارق»، لا لشيء إلاّ لرغبتهم في إحداث بعض التأثير في النفوس. ولكن هنري دي مونترلان كتب رواية خارقة حقاً بكل معنى الكلمة. إنه، بهذه السلسلة، أعطى شيئاً جديداً، فحطّم مبنى الرواية التقليدي، وقلب معناها القديم. وهذه الكتب الأربعة هي من صميم عصرنا، وهي مؤلّف قاسٍ ومثير فيه نفحة العبقرية».

وكتبت نيكول ديبري في اطروحة للدروس الفلسفيّة العليا صدرت في مدينة الجزائر عام ١٩٥٣: «جعل مونترلان من حب المرأة دعوةً حقيقية كالتي يتلقاها من يختارهم الله للحياة الكهنوتية. والمرأة، في نظره، تدمّر نفسها بقدر ما تمتنع عن بذل جسدها. وهي المكان الأفضل الذي يصبح فيه الحبّ قوّةً خلاّقة. ومن شأن هذه

الميزة أن تجعل مونترلان في مرتبة العلماء الخلقيين الذين لا يهاودون في ما يتعلق بسلوك المرأة. ولا يجوز لنا، بعد اليوم، ان نقيم وزناً لما قيل من أنه عدو النساء».

إن أول ما يتبادر إلى الذهن، حيال هذا الإقدام الجريء على اعتبار مونترلان «عالماً خلقياً» هو أن نيكول ديبري تبرّعت بهذه «المرافعة» مدفوعة بعوامل عاطفيّة مصدرها الإعجاب فنياً بأدب الكاتب الكبير، ولكن هذا الظن يتلاشى متى علم القارىء أن للإرشاد الخلقي طريقين هما: الإغراء بالقدوة، والإرهاب بالعبرة.

وقد أثبت علم النفس أن الإرهاب بالعبرة أشد وقعاً، وأقوى فعالية، في مكافحة الرذيلة، من الإغراء بالقدوة، مما جعل كبار المؤلفين المسرحيين، منذ أقدم العصور، يفضّلون المأساة على المسلاة في محاولاتهم الرامية إلى تقويم الأخلاق. وعلى هذا، فلا غرابة في اعتبار مونترلان «عالماً خلقياً»، لأنه صدّر المثالب تصويراً، وحلّلها تحليلاً يبعثان الرعب في النفوس، ويحتويان من قوة الزجر ما يُكره أهلُ الفساد على التريّث، ثم الارعواء، قبل الامعان في فسادهم.

ولا ريب في أن هذه الأقوال بعيدة كل البعد عن التملق وعن المبالغة في المجاملة، وَأن مونترلان أصبح من الخالدين قبل دخوله الأكاديمية الفرنسية، خصوصاً بعد أن تُرجمت سلسلته هذه إلى اثنتي عشرة لغة، وبعد أن اعتُبرت قساوته إرشاداً للمرأة، وتوضيحاً للمزالق التي تهددها، والشراك التي ينصبها لها الرجل. ولولا هذه

القيمة لما احرزت هذه السلسلة ما احرزت من النجاح الفريد، ولما نفدت منها ملايين النسخ، ولما كانت، حتى اليوم، من أفضل ما يطالعه قارىء، خصوصاً بعد أن أثبت الكاتب الكبير أنه، في ما كتب، كان منسجماً كل الانسجام مع «حقيقته» في نفسه ومعتقده وإيمانه، في عقله وقلبه ووجدانه. فهو قد آمن بأنه «الرجل الرجل»، وحرص على أن يبقى كذلك حتى اللحظة الأخيرة من حياته...

لما ثقل عليه وقر السنين، بدأ جسده المتعَب يعجز عن حمل روحه الكبيرة. وذات يوم، تعثر في الشارع. وضحكت فتاة مراهقة من تعثره، فرسخ في ذهنه أنه بات عليه أن يغادر هذه الدنيا.

لم ينقم على تلك الفتاة الضاحكة، لم يثُر على ضحكتها التي لا تخلو من السخر، بل قال في نفسه: «لماذا لا أنتهي كلياً ما دامت رجولتي قد انتهت؟ أليست حياتي ملك يدي؟ بلى!».

فكّر قليلاً، وصمّم، ثم اشترى نعشاً فخماً وضعه في ردهة الاستقبال من منزله الأنيق... واستلقى فيه على سبيل التجربة... وذات يوم، أمسك بمسدس، وصوّب فوهته إلى صدغه، ثم قال بصوت القائد الواثق بنفسه: «افتحي، ايتها الأبدية، ابوابك!».

وأطلق النار.

هكذا قضى هنري ميلون دي مونترلان منتحراً، بعد أن عاش رجلاً بكل ما في الرجولة من معنى.

جورج مصروعة

من

الآنسة تيريز بانتفان

في وادي موريان ، من طريق لرانش (مانش)

الى

السيد بيار كوستال

شارع هنري مارتان ، باريس

٢٦ ايلول ١٩٢٦

بنعمة سيدنا يسوع المسيح

اشكرك ، يا سيدي وحبيبي الغالي ، على انك لم تجب قط عن رسائلي اليك . لم تكن هذه الرسائل لائقة بي . وجهتُ اليك ثلاثاً منها خلال ثلاث سنوات ، ولم احظَ منك بجواب ! اما الآن فقد ازفت الساعة لابوح لك بسري .

احببتك منذ التقائي الاول بمؤلفاتك . ولما رأيت صورتك في احدى الصحف ، استيقظ الهيام في نفسي ، فرحت اكتب اليك كل يوم رسالة ، طوال ثلاثة اشهر ، من ١١ تشرين الثاني ١٩٢٣ الى ٢ شباط ١٩٢٤ . إلا اني لم ابعث بهذه الرسائل اليك ، لان الخجل غلبني على امري . لم ارسل منها إلا واحدة فلم تجب عنها . ومع ذلك فقد ادركت كم انا حسنة الحظ فيما كنت أتأمل صورتك ، ونظرتك ، وجميع قسمات وجهك ، فعرفت انك لم تحبني ، ولكنك منحتني مقاماً في افكارك .

برسالتي المؤرخة ١٥ آب ١٩٢٤ — عيد السيدة العذراء — ذكّرتك

بنفسي . وبعد ايام قليلة لمحت في وجهك ، على الصورة ، لمعاتٍ أشعرتني بان رسالتي وصلت اليك .

وكتبت اليك للمرة الثالثة في ١١ نيسان الماضي ، وكنت شديدة الخوف من ان تكدرك جرأتي ، فلم تستطع الالفاظ التي استعملتها اطلاعك على حقيقة شعوري . ما كنت اتجاسر على التحدث عن حبي ، مع ان هذا الحب يقتلني .

كتبت اليك رسالة اعتراف طويلة استغرقت ست صفحات ، بدأتها يوم السبت الاخير من شهر سيدة الوردية ، وأنهيتها قبيل عيد الحبل بلا دنس ، ولكني لم ارسلها .

اني افكر بك ، أتألم ، ولا بد من البوح بكل شيء : اني احبك ، ولا اريد بك اقل شر .

كم تعذبت ! وستدرك كل شيء يوم تعرفني . لست امرأة تكتفي بنفسها . لولاك لما كنت شيئاً ، ولما استطعت شيئاً . تلهفت ، وصلّيت ، وتأملت طويلاً ، فكانت هذه الحياة الباطنية كل حياتي .

كيف كنت استطيع استخراج شيء من نفسي ، لو لم يكن هذا الشيء وقفاً على الرجل الذي خلقت له ؟ خلق الله الرجل لمجده ، سبحانه ، وخلق المرأة لمجد الرجل .

اواه ! كم انت قادر على إسعادي ! اجعلني احيا ، يا صديقي ، انا التي لولاك ما كانت ، الآن ، في قيد الحياة . لا احتاج إلا الى ان اكون محبوبة ، واشعر بقدرتي على ان احب كثيراً .

احبك ! واعلم اني حين اعترف لك بهذا الحب أنفّذ مشيئة الله . ألم تحلم قط ، يا صديقي ، بما يكون عليه حبنا في الحياة الابدية ؟

قريباً يطل علينا تشرين الاول ... والحقول تودع ازاهيرها الاخيرة . أردت ألا تموت هذه الازهار دون فائدة ، فقطفتها وانا أرسم اشارة الصليب ، ووضعت منها اربعاً باسمك وباسمي على قبر هرّين صغيرين

توأمين ماتا منذ سنتين . وهـا انا ارسل اليك زهرة ، واحتفظ بثـلاث لاضعها على قدمي تمثال صغير املكه للقلب المقدس .

اطلب اليك ، هـذه المرة ، ان تردّ عليّ لاستطيـع اطلاق العنـان لعواطفي ، ولأعتاد سعادتي اذا تجاوب قلبك مع قلبي .

ان مهمتنا ، يا صديقي ، هي تجديد بناء مملكة الله . فاذا كنت تريد هذه المملكة ومملكة قلبي ، فافهمني رغبتك .

اقبل ريشتك ، واوقع :

مريم الفردوس

لأن « تيريز بانتفان » زالت من الوجود .

لا تكتب اسمك على غلاف رسالتك .

(بقيت هذه الرسالة بلا جواب)

من

الآنسة الدرية هاكبو
سان ليونار (لواريه)

الى

بيار كوستال
باريس

٣ تشرين الاول ١٩٢٦

عزيزي كوستال الكبير !

أمضيت الصيف متجوّلة ، ففقد البيت في نظري اهميته . ولما بدأت ايام البرد ، عدتُ اليه ، وأعددته كالفلك لاجتاز به طوفان فصل الشتاء. وها انا ادرك الآن ، اكثر مما ادركت في الربيع عندما توفيت امي ، معنى الحيــاة في سان ليونار (لواريــه) ، مع عمّ هرم ، أصم ، أبله ، وانا فتاة فقيرة ، يتيمــة ، لا اخ لي ، ولا اخت ، أسير بخطى واسعــة الى الثلاثين من عمري .

ومع ذلك احس ان كآبتي تتـلاشى في ذكرى العودة الى البيت في غرة تشرين الاول . انهـا لذكرى عميقــة الاثر في نفسي : فمنــذ اربع سنوات ، وفي مثل هــذا اليوم بالذات ، قرأتُ للمرة الاولى كتــاباً من مؤلفــاتك . يا لقدرتك الطاغية على المخلوقــات ! مساء امس بكيت ، ذرفت دموعاً حقيقية صادقة ، لما قرأت كتــابك : « الوهن » . (هــل اخبرتك اني جلـّدته تجليداً جميلاً اخضر ؟ هذا هو الشيء الوحيد الجميل في خضم القبـاحة والتفاهة الذي يغمرني . كلفني التجليــد مائــة وخمسين

فرنكاً ، اي نصف نفقاتي الخاصة مدة شهر كامل ...) في بعض الايام ، لا استطيع ان أتصفح جريدة دون ان اقع فيها على اسمك ، ولا يسعني ان اتحدث دون ان اتلفظ باسمك (اني اتلفظ باسمك اكثر مما تتلفظ المرأة العاشقة باسم عشيقها) ؛ افكر بك دون ان اشعر بان فكرك يمتزج بفكري ، فاذا انت عنصر تغوص فيه حياتي غوصها في الهواء او في الماء ، اكثر منك رجلاً تهيم به نفسي . لا يحسك احد في صميم وجوده كما احسك أنا ... لا ، لا اريد ان يحسك احد هكذا ! لا أغار من الذين تحبهم ، حتى ولو كانوا « سيدات جميلات » ، ولكني اغار من الذين يحبونك . ليكن لي ، على الاقل ، هذا المركز الوحيد لديك ، وهو اني احببت مؤلفاتك اكثر من ايٍّ كان . اني احفظها ، تقريباً ، عن ظهر قلب ، حتى اني كثيراً ما ألاحظ جملاً منك يتحرك بها لساني وتتمتم بها شفتاي ، او تسيل من سن قلمي ؛ فتعبر عن فكري تعبيراً افضل مما كان يتسنى لي لولاك : انت تتكلم ، ولكني اسمع صوت نفسي . ان مردّ ذلك ، ولا ريب ، الى مواهبك التي طغت عليّ منذ اليوم الاول ، والى هذا النوع من النسب الذي يلمسه المرء بين نفسه وبعض المخلوقات التي لا تفصله عنها سوى مظاهر وهمية من الحواجز . هذا الاخاء الخفي شدّد عزيمتي وألهب نفسي حماسةً في حياتي النادرة المسرات ، الحافلة بالقلق والاضطراب . كم كبرتُ وانا أقرأك ! قلبت نفوساً كما يقلب الحارث الارض ، فكشفت لها عما فيها من الجوهر . منذ اربع سنوات ما برحت مؤلفاتك لسان حالي ، انا الخالية من المواهب الادبية ، كما ان سعادتك كانت تعويضاً لي عما أُعاني من الشقاء . اني مثلك توّاقة الى تحقيق رغباتي ، لكني ما عرفت سوى الزهد ، وقهر النفس ، والحنين ، في حياة بغيض ، كلها تناقض . ذلك اني تلقيت ثقافة بقيَتْ مجدبة دون استعمال ، وانا مصفّدة بافتقاري الى المال وبوحشة العزلة ، فوجّهت اليك كل ما في وجودي من حرارة الرغبة ومن التعطش الى متع الحياة . لم احسدك كما يفعل كثيرون ،

ولكن خامرني شعور الآباء والامهات الذين اخفقوا في حياتهم ثم رأوا ابناءهم ينجحون (وها انت الآن ابني على الرغم من بلوغك الثالثة والثلاثين!) كنت احب، وانا مكبلة في سجني، ان ينتصر سواي على الحواجز والعقبات، واحس ان في هذا الانتصار ثأراً لي. فلو جنفتَ في فينةٍ ما عن ان تكون انت نفسك، ولم تعد سعيداً كما انت، لخنتني، ولكنت مندوباً سيّىء الائتمان على ما انتُدب له، ولتجاوزتني خيانتك الى كثيرين، فثمة اناس عديدون يشعرون شعوري بالنسبة اليك.

اني لفخورة بان تكتب ما تكتب، وفخورة بانك موجود كما انت، وان يحرز رجل مثلك ما احرزت من النجاح والشهرة (وهذا مدهش عجيب)، فهذا النجاح يحسّن ظني في العالم، ويجعلني اعتقد ان الانسانية لم تخسر كل شيء بعد. لا أطيق ان يوجد من لا يحبك. ومنذ ثلاث سنوات قلت لصديقتي المفضلة: «لو لم تحبي كوستال (بوصفه كاتباً) لما كانت صداقتي لك عزيزةً عليّ». واني لأرتعد خوفاً من ان تكتب شيئاً لا يليق بقلمك... اذا رأيت منك مقالاً في احدى الصحف، أكببتُ على قراءته فساورتني الرعشة التي كانت تساور امي يوم كنتُ طفلة، وكانت احدى الجارات تنذرها قائلة: «طفلتك تلعب على حافة البئر». ولكن ما تكتب هو دائماً ما انتظره منك، ويوم عرفتك رأيتك كما كنت أتخيلك. فلتدم هذه المعجزة الى الابد! انك لا تجهل انه لشعور جميل هذا الايمان المثقل بالأمل الذي نضمه في رجل حر!

اني اتذكر كيف عرفتك! فكيف أنسى لطفك، وعطفك، ووفاءك! رحت اقول في نفسي: ان كوستال رجل فوق متناول الناس! انه اخ كبير، عظيم الشهرة، جليل القدر، إلا انه اخ على كل حال. فهو الرفيق المثالي الذي نقف الى جانبه على قدم المساواة، وإن اضطررنا الى رفع رأسنا لنبلغ مستواه. كنت اخشى ان يكون استقبالك لي استقبال كاتب له ما لكَ من الشهرة الطاغية، يجود بمقابلة فتاة معجبة به تزوره،

فيحس بما هناك من الرغبة الجسدية منك اليّ ، ومني اليك . كان من شأن هـذا الشعور ان يذلني حقـاً . وها انا اليوم على اتم الاستعـداد لاعطيك حياتي ، ولكن لا يخطر في بالي قطعـاً اني امنحك قبلة . وعلى الرغم من انه لم يبق للدين اقل تأثير في نفسي ، فقد بقي لي شيء من حداثتي التقية حتى الوسواس (وانا لا اقرأ كتاباً بالسر ، ولا تخامرني رغبة في هـذه القراءة) . كان تحفظك اكتشافاً كبيراً بالنسبة اليّ . والتحفظ يضاهي القوة القاهرة عند الرجل وعند المرأة على السواء . وقـد افهمني تحفظك اني لم اكن في نظرك كسواي من الفتيـات . وكل ما عملت لاجلي – نصائحك المتعلقة بما اقرأ ، ومساعيك لتعيدني الى العمـل الذي خسرته في باريس – دلّني على انك رجل طيّب ، وهذا مـا لا يحزره من يطالع كتبك (انك طيب في بعض الاحيان ، ولا بد لنا من التفاهم على هذا الامر . فيك اشيـاء تؤلمني ، وانت لا تجهلهـا ، وإن تكن لك حقوق خاصة) .

بعـد شهر سأذهب الى باريس لتمضيـة بضعة ايام ، وتصفية قضيـة متعلقة بتركة امي . قل لي انك ستكون هناك لدى وصولي .

اصافحك برصانة ووقار :

ا . هـ

اعذرني لاني اطلت عليك هذه الرسالة . ان رغبتي في الكتابة اليك اقوى من ارادتي ! ولكن اعدك بان لا اكتب من جديد إلا بعد مرور خمسة عشر يوماً .

٢،٥٠١ – فتاة شقراء ، حسناء ، ٢٨ سنة ، ٢٠ الف فرنك موفـّرة ، كاثوليكية ، ترغب في الاقتران برجل له عمل مستقر .

٢،٥٢٩ – فتاة ، ٢٥ سنة ، حنطية ، هيفاء ، بارعة الجمال ، حسنة الساقين ، لا تملك مالاً ، تضرب على الآلة الكاتبة ، مقيمة في احدى مدن الريف ، ترغب في الاقتران برجل له عمل مستقر . تبحث عن العطف والحنان قبل كل شيء .

٢،٥٣٠ – آنسة ، ٤٠ سنة ، ارستقراطية ، ابنة وحيدة في اسرتها ، ميّالة الى الشؤون الثقافية والفكرية ، تقيم في قصر ، بائنتها ٢٠٠ الف فرنك ، ترغب في الاقتران برجل كاثوليكي ، بارز الشخصية وإن يكن لا يملك مالاً ، تفضله ارستقراطياً .

٢،٥٥٠ -- فتاة ٢١ سنة ، ابنة ضابط في البحرية ، يتيمة ، بالغة اللطف ، لونها حنطي مائل الى البياض ، كستنائية العينين ، معتدلة القامة ، رقيقة ، حسنة الهندام ، تقيم في منطقة فينستير ، لا امل لها بالثراء .

٢،٥٥٤ -- ارملة ، ٤٩ سنة ، مرحة ، فياضة الحنان ، مرهفة الشعور ، عاطفية ، حياتها الداخلية على جانب كبير من الترف ، مرموقة الشخصية ، صحتها ممتازة ، ربة بيت مثالية ، متفوقة في كل شيء ، دخلها ٢٥ الف فرنك ، تملك عقاراً ، تود المراسلة في سبيل الزواج من رجل سليم النية ، صافي الضمير ، حالته المالية شبيهة بحالتها لضمان الطمأنينة والراحة والامان في جو من المحبة المتبادلة . عرض جدي ، المطلوب : اعطاء

عنوان صحيح .

٢,٥٦٣ — فتاة ، فنانة ، صفاتها الشخصية : عاطفة وجرأة ، مستقلة ، حرة ووحيدة ، تود الزواج بشاب جذاب ومحبوب .

١,٥٦٥ — مركيزة ، فارعــة القامة ، عينـاها زرقاوان متماوجتان ، شعرها اشقر طبيعي ، حسنة القد ، جميلة ، بالغة الاناقة ، سيدة مجتمع ، مرموقة الشخصية ، تملك حلياً ، تود الاقتران برجل من الطراز الاميركي على ان يكون جميلاً .

٢,٥٧٤ — فتاة شريفة ، جيدة الصحة ، تقيم في الريف عند امهـا ، تنشد الزواج .

٢,٥٧٦ — موظفــة ، حنطيــة ، ٢٩ سنة ، عذبة ، مطواع ، شديدة العناية باعمالها ، راتبها ٦٠٠ فرنك في الشهر ، مصابة بسلّ خفيف قابل الشفاء ، تود الزواج برجل في الخامسة والاربعين ، يحب صادقاً ان يجعلها سعيدة ، لا يهمها المال ، مستعدة ان تغادر منطقتها .

هذه الاعلانات مقتطفة من مجلة الزواج الشهرية :
« اجمل يوم » ، عدد تشرين الاول ١٩٢٦ .

١٨٩٩ – أعزب في الثلاثين من العمر ، جميل ، طوله متر و٧٠ سنتيمتراً ، مثقف ، كثير المواهب والامكانات ، يود الاقتران بفتاة تملك بائنة مهمة .

١٩٠٧ – موظف في مكتب ، ٢٣ سنة ، معتدل القامة ، رياضي ، يطلب الزواج بامرأة تضمن له عملاً مستقلاً .

١٩١٠ – طبيب بيطري ، ٢٤ سنة ، ميسور ، حسن الوجه ، طويل القامة ، جميل العينين ، من طراز رامون نوفارو ، يبحث ، في سبيل الزواج ، عن رفيقة عاطفية لا تقل بائنتها عن ٦٠٠ الف فرنك .

١٩٢٩ – ارمل ، ٦٣ سنة ، انيق ، خالٍ من الامراض ، بلجيكي ، يمارس مهنة حرة ، حائز على وسام ليوبولد ، دخله ٤ آلاف فرنك ، يطلب الزواج من امرأة او فتاة جميلة ، على شيء من السمنة ، محبة ، غير مبذرة ، لا يقل دخلها عن ٢٠ الف فرنك . تألم في حياته .

١٩٣٠ – مدرّس في مايان ، ٢٨ سنة ، تنتظره ترقية قريبة ، يود الاقتران بزميلة متحررة من الافكار الدينية تملك بائنة تستحق الذكر .

١٩٣١ – شاب ، طوله متر و٨٠ سنتيمتراً ، بالغ الاناقة ، راقص بارع ، رياضي ، سجّل ارقاماً قياسية ، يطلب الاتصال بفتاة شقراء ، مستقلة ، في سبيل الزواج . نزهات في السيارة .

١٩٤٠ – رجل يحمل شهادة عالية ، في الخمسين ، طيّب ، مرهف الشعور ، مترفع ، يحلم بالعطف والحنان ، يبحث ، في سبيل الزواج ، عن فتاة دون الثالثة والعشرين من العمر ، مرموقة الشخصية ، انيقة ، مثقفة ،

حسنة التربية ، رقيقة الشعور ، مخلصة ، نقية السلوك ، لا غبار على سمعتها ، بارعة الجمال ، ربة بيت ، تبدو بسيطة المظهر ، ولكنها فاتنة بالفعل ، لا تقل بائنتها عن ٥٠٠ الف فرنك ، ولها امل بارث .

١٩٤٥ — نائب ضابط في قوى المستعمرات ، لا عيب فيه اطلاقاً ، مشيق القامة ، عصبي ، اجعد الشعر ، اشقر ، ازرق العينين ، أقنى الانف ، مستطيل الوجه ، مرهف الشعور ، عاطفي ، يعزف على الكمان ، يقيم في احد الارياف التونسية ، يود الزواج بفتاة بين السابعة عشرة والعشرين من العمر ، تملك بائنة ، تحب الشمس المشرقة والسماء اللازوردية الدائمة الصفاء في بلاد السراب والرمال اللامتناهية .

١٩٤٧ — ميكانيكي ، اعزب ، ٢٨ سنة ، يودّ ، في سبيل الزواج ، مراسلة فتاة قد تساعده على تأسيس محل تجاري .

١٩٥٠ — نقيب في الجيش ، ٣٣ سنة ، خرّيج مدرسة عالية ، يرتقي قريباً الى رتبة مقدم ، وسام جوقة الشرف من رتبة ضابط ، جميل الوجه والجسم ، حنطي ، بارز الشخصية ، انيق ، قنوع ، مرح الطبع على الرغم من انه تعذّب ، بالغ الصراحة ، يود ان يسعد امرأة شابة ولو كانت اماً ولها اولاد ، على ان تكون طويلة القامة ، تملأ العين ، عاطفية ومثالية ، تربيتها ممتازة ، كاثوليكية ، لانشاء اسرة سعيدة مستقرة تستطيع الاستمرار ، قائمة على اساس وطيد من المحبة العميقة والصفات الخلقية الرفيعة . المقام الاجتماعي والثروة لا اهمية لها .

١٩٥٨ — شاب ، ٢١ سنة ، جميل ، عمل متواضع ، يبحث عن نفس شقيقة ميسورة .

١٩٦٢ — فيكونت ، وحيد اسرته ، ٢٧ سنة ، ارستقراطي بموجب وثائق ترقى الى القرن الخامس عشر ، لا يملك حالياً اقل ثروة خاصة ، ولكن له آمالاً كبيرة بقرب وراثة ثروة ، مكمّل الصفات في كل شيء ، يود الزواج بامرأة تملك ثروة ضخمة . العمر والدين لا يهمان ، على ان

تجد اسرتها عملا لصهرها .

١٩٦٧ – حارس طرق ، ٢٩ سنة ، لا ثروة له ، يقيم في احدى ضواحي باريس ، يبحث عن امرأة شابة في سبيل الزواج .

من مجلة : « اجمل يوم » ، عدد تشرين الاول ١٩٢٦ .



من يطالع صفحة اعلانات زواج في احدى الجرائد يكتشف في نفسه ، على التوالي ، رجالاً عديدين : رجلاً يضحك ، ورجلاً يشتهي ، ورجلاً يفكر ، وفي هذا الرجل الذي يفكر يكمن رجل آخر يبكي .

الرجل الضاحك يستطيع ان يضحك ، ما طاب له الضحك ، من اولئك المساكين المعروضين سلعاً في الاعلانات ، من حسن ظنهم بنفوسهم ، ومن الاهمية الكبرى التي يعلقونها على الشعر الاشقر او الكتلكة . يتحدثون عن قوام هذا الرجل ، وعن آمال تلك الفتاة ، ولكن ايُّ نوع هي هذه الآمال ؟ انهم يتحركون في جو من التهريج التافه يغمرهم جميعاً .

في الصفحة الثانية من الجريدة التي نشرت هذه الاعلانات وردت هذه العبارة : « تضع الادارة نفسها تحت تصرف القراء لاعطاء الحلول اللازمة لنجاح مشاريع الزبن ، وللكتابة مباشرةً الى المشتركين حسب التوجيهات التي تأتيها ، في مقابل فرنكين ونصف الفرنك عن كل رسالة » .

وفي الصفحة الاخيرة اعلان بارز عن سيدة تقوم بالاعمال البوليسية ، مطاردة ، مراقبة ، الخ ... عال . فمن يفكر بدخول الحياة الزوجية مضطر الى ان يحسب حساب كل شيء . (ولكن ألا تكون هذه السيدة البوليس هي مديرة الجريدة اياها ، فتصبح كبنيلوب المتأهبة لحل ما نسجت ؟)[1]. ولا بأس بالاعلانات المتعلقة بال « قروض السريعة » فهي تنبىء

---

١ ـ جاء في الاساطير اليونانية ان بنيلوب ، زوجة عولس ، احد ابطال حرب طروادة ، وام تلياك ، ظلت طيلة عشرين سنة ترفض الزواج من المتهافتين عليها في غياب زوجها . وقد وعدت بان تتزوج عندما تتم حياكة قطعة نسيج ، فكانت تحل ليلاً ما حاكته نهاراً كي لا تتم القطعة ابداً .

القارىء بثمن المرأة .

وبعد ان يكون الرجل الضاحك قد ضحك حتى شبع ضحكاً ، وهزىء ، واحتقر ، الخ ... يقول في نفسه اذا كان متشائماً قاسياً : « لتنشب الحرب حالاً ، ولتطهر الساح من هذه الاعشاب القذرة » . ويستطرد بعد فترة وجيزة من التفكير فيقول : « ان في الحرب ناحية من افظع النواحي قلما تسترعي الانتباه ، وهي ان اهوالها تحل بالرجال في الميادين وتوفر النساء ... » وبعد الضحك والتفكير يُدير الزر ، فيتوارى الرجل الضاحك ، ويطل الرجل الذي يشتهي .

هذا الرجل من الطراز الذي لا يستطيع ان يقرأ : « فتاة في الثانية والعشرين » ، من غير ان يرتعش .

فوراء كلٍّ من هذه الاعلانات وجه ، وجسد ، واشياء اخرى يكتنفها الغموض ، وربما كان هناك قلب ... ووراء هذه الصفحات الخمس المطبوعة مائة وخمسون امرأة تضج فيهن الحياة في هذه اللحظة ، وكلّ منهن تطلب رجلاً – فلماذا لا اكون انا هذا الرجل ؟ – ها هنّ على أتم الاستعداد للمغامرة الشرعية او غير الشرعية ، مع العلم ان الشرعية هي الاسوأ والأشد ضرراً ... فالى اي درك من الحرمان تكون المرأة قد انحدرت لتعرض نفسها هكذا على من يريد ان يمد اليها يده ؟

اما الرجال فيطلبون « ثروات ضخمة » ، وقد قرأنا الاعلان التالي : « رجل يريد التعرف الى امرأة حسناء تملك ثروة ضخمة وغايته الزواج » . وهذا كل شيء ... فانت ، يا سيدتي ، حسناء ، شابة ، تملكين ثروة ضخمة . وانا ... انا رجل ، ألا يكفيكِ هذا ؟

اكثر النساء يعربن عن رغبتهن في الحصول على « رجل صاحب عمل يضمن له الاستقرار » ، على الرغم من حاجتهن الصارخة ، اي انهنّ يطمعن بالفراش واللقمة ، وبالفراش قبل اللقمة . وهل هناك ما هو طبيعي ومحترم اكثر من هذا الطلب ؟ اننا نتذكر في هذه المناسبة كلمة رائعة

قالتهـا لنا بغيّ في مرسيليـا ، وهي : « تحت اللحـاف لا تشعر المرأة بالشقاء !... »

بلى ، انها تعاني في بعض الاحيان شقاءً من نوع آخر ، ولكن ليس هذا موضوعنا الآن .

ان الرجل الطامع ، الذي ينظر الى صفحات الاعلانات ، يراها تموج كالبحر ، وتعج كالملعب الرومـاني عندما تطلق فيـه الضاريات . فالنساء كثيرات الى حد يثبط الهمم ، ومن يحاول اختيار احداهن يقع في الحيرة والارتباك ، كمن تعرض عليه الوف التحف ، فلا يعرف أيهـا ينتقي ... قطيـع من النساء في الملعب المغلق ، مؤذيات ، شريرات كالضيـاغم ، وكالضياغم بريئات ومجردات من السلاح : انهن جميعاً ضحايا ، حتى الوالغات منهن في حثالة الشرّ . ومـا على الرجل إلا ان يطلق سهمه على هـذه الكتلة البشرية دون تسديد . اما الرماة المتربصون للقنص فهم الفاسدون ، والمتوحشون ، والعلوج ، والمحتالون ، والمتاجرون بالتهويـل . ويا له من خطر على شعب النساء ! ان منتهى السذاجـة ، ومنتهى القبـاحة ، وكل خيبة أمل ، وجميـع المآسي الاجتماعيـة ، وحتى السعادة ، لتعتلج في مجلة الزواج هذه اعتلاج العقاقير في قدور السحرة ، فيسير التهريج الى جانب الاحاسيس العاطفية المؤثرة ، كما هي الحال في شؤون الحياة ، وهذه هي الحياة كلها ، بل هذه خلاصتها .

اما الرجل الذي يفكر فانه يجد في صفحات الاعلانات ، السخيفـة احياناً حتى التفاهة والغباء ، جهازاً اجتماعياً على جانب كبير من الاهمية .

قرأنا يوماً اعلاناً حافلاً بتقريظ فندق في احدى مدن الاستشفـاء ، جاء فيه من اساليب الاغراء ان نزلاء هذا الفندق يجدون فيه سبيلاً الى « الارتباط بعلاقات طيبة مع اناس من علية القوم » . وكثيراً ما نسمع احـدهم يقول لآخر : « اذهب الى بيت فلان فقد تجد هنـاك علاقات حسنة » . ان الرجل الابي يشمئز من هذه الطرق ، ويتذكر تلك العجوز

الارستقراطية التي ازعجها تقاطر العوّاد المبرمين وهي على فراش الموت ، فأوصت احفادها قائلة ، قبل ان تلفظ النفس الاخير : « اياكم وكثرة العلاقات بالناس ! »

ولكن بعد مرور فترة النفور العفوي ، لا يلبث المرء ان يدرك انواع الشقاء التي يسببها غالباً فقدان العلاقات . ان الاشارة العجلى الى هذا الامر تبدو سطحية ، مبتذلة ، ولكن التفكير فيه يوضح اهميته ، فتأخذنا الدهشة حين نرى كم من الفرص السعيدة مرّ الناس على مقربة منها ، وغفلوا عن اغتنامها لأن افتقارهم الى العلاقات يجعلهم حائرين لا يدرون اي باب يدقون . ومن ادهى مآسي الحياة ان تكون هذه الابواب موجودة ، تود ان تنفتح على جنات النعيم ، إلا انها تظل مغلقة ، لان طلاب السعادة مروا بالقرب منها ولم يقرعوها .

هناك اناس ينتظرون ، طيلة حياتهم ، الشخص الذي خُلق لهم وخلقوا له – وهو موجود دائماً – ثم يموتون دون ان يلتقوه ؛ ورجال لا يجدون سبيلاً الى استعمال امكاناتهم ومواهبهم ، فيفنون العمر في الاعمال العديمة الاهمية ؛ وفتيات لا يتزوجنّ وهنّ قادرات على اسعاد رجل ما ، وعلى التنعّم بالسعادة الى جانبه ؛ واشخاص يعانون الفاقة ويغوصون فيها ، بينما هناك مؤسسات خيرية أنشئت خصيصاً لهم ... وقد شقي هؤلاء جميعاً ، وتاهوا عن الضالة المنشودة ، لانهم لم يعرفوا الطريقة التي بها يهتدون . انها لمسألة تدعو الى التأمل والتفكير .

ان طرق الهداية عديدة متوافرة : منها الكتاب الذي كنت تجهل وجوده ، فاذا بـه يشدّد عزيمتك ويبعث فيك القوة ، والمكان الملائم لحبك ، والدواء الناجع الذي كان يضمن لك الشفاء ، والتدبير الذي يوفر لك كسب الوقت . جميع هذه الاحتمالات كانت تنتظرك ، ولكن لم يدلك عليها احد ، لانك كنت مفتقراً الى العلاقات . ارض الميعاد تحيط بك ، وانت لا تدري . انك لشبيه بزنبور يطن في غرفة ، ويرتطم بالزجاج

فيعود مدندناً هائماً ، بينا النافذة مشقوقة على قيد انملة منه . ان الحيـاة تطرحك في الماء احيـاناً وانت موثق اليدين ، دون ان تعلمك طريقـة التحرر من الوثاق ، وهذه الطريقة موجودة تنتظر من يتعلمها .

هـذه العروض والنداءات في اعلانات الزواج تشبه طيوراً تتقـاطع خطوط طيرانها في الجو الرحيب ، وبعضهـا يتلاقى ويواصل الطيران ازواجـاً . اخبرنا مونتاني[1] ان اباه كان يشتهي ان يرى في كل مدينـة « اماكن معينة يلتقي فيها اصحاب الحاجات ، من يريد رفيقاً الى باريس مثلاً ، او خادماً او مخدوماً ، الخ ... » وذكر الاديب الفيلسوف ، في هذه المناسبة ، حكاية شخصين ماتا في الشقاء والحرمان ، ولو عرف احدٌ بحالهما لتوافرت الاغاثة التي كانا يحتاجان اليهـا للخروج من الضيق الذي وقعـا فيـه . ولا ريب في ان اول المفكرين باصدار نشرة تساعـد الناس على التعارف ، وعلى العثور بما يبحثون عنه ، يستحق ان يقام له تمثال . ومن يسهل اللقاء بين اصحاب الحاجات المتبادلة جـدير بالتشجيع ، حتى ولو كانت غاية اللقـاء عاطفية ، وعلى الرغم مما قـد يعتورها من السخافـة وحقارة الشأن .

ان العجوز ، التي أوصت احفادها بكبرياء ان يجنفوا عن العلاقات ، أعدت للذين عملوا بنصيحتها حرفياً جميع المآسي الناجمة عن التوق الذي لا يجد منهلاً ، توق الروح وتوق الجسد ... وأعـدت لهم ايضاً الأسف المرير على ما كان ممكناً ، على ما كان مزمعاً ان يجيء لدى اول اشارة ، ولكنه لم يأتِ لانه لم يتلق دعوة من احد .

ان الانطواء على النفس لا يصلح إلا لاصحاب الطباع الخاصة ، الاقوياء

---

١ ـ مفكر وكاتب فرنسي عاش في القرن السادس عشر . وضع كتاباً ضخماً سماه « محاولات » ، صور فيه نفسه وتأملاتـه وآراءه . اشتهر بالشك ، وكانت عبـارته المفضلة « مـا ادري ؟ » اعتبر الحياة فناً قائماً بذاته ، ودعا الى التساهل الديني .

بارادتهم وطول اناتهم . وحتى لمثل هؤلاء ، لا يجوز ان يكون الانطواء إلا نسبياً ومتقطعاً . امـا الضعفاء فيدفعون ثمن انطوائهم غاليـاً . ولا يستطيع احـد الاعتزال في غرفته من غير ان يعاني وحشة الانفراد ، فالانسان لا يعيش على نفسه إلا اذا رضي باحتمال العذاب ، ولا يسعـه الاستغناء عن امثاله بغير عناء ونكد . ومن الافضل ان تكون الحيـاة هكذا ، لان سبب الانطواء – ان لم تكن هناك اسباب تفرضها حاجات فكرية وروحية عليا – هو الكسل ، والانانية ، وبكلمة مختصرة : « الخوف من الحياة » ، هذا الخوف الذي لم يدرك الناس بعد مرتبته الكبرى بين الرزايا التي ترزح الانسانية تحت اعبائها .

من

تيريز بانتفان

في وادي موريان

الى

بيار كوستال

باريس

٦ تشرين الاول ١٩٢٦

بنعمة سيدنا يسوع المسيح

يا حبيبي! هذه المرة ايضاً لم تردّ على رسالتي. لم يسمح الله بذلك، ليتبارك اسمه.

اريد ان احترم سكوتك لاقتناعي بان اشياء عظيمة تتحقق فيه. انك تشتغل، ولا ريب اجل، سألزم الصمت حتى عيد جميع القديسين. وفي هذا العيد سأرسل اليك "أنـّة" جديدة" من انيني.

ألثم يدك اليمنى، اليد التي تكتب.

مريم الفردوس

لا تكتب اسمك على غلاف رسالتك.

(بقيت هذه الرسالة بدون جواب)

من

تيريز بانتفان
في وادي موريان

الى

بيار كوستال
باريس

عيد جميع القديسين

بنعمة سيدنا يسوع المسيح

ابادر مسرعة الى الاعتصام بشيء منك ، بكتاب من مؤلفاتك ، فيه عبير انفاسك ! ليتك تدري في اي محيط مقيت أعيش ! لا شيء في الحياة اشد وادهى من ان يكون المرء منوطاً كلياً بقوة لا تريد له الخير . انت وحدك تستطيع ان تصنع حياتي ! اعطني الحياة لاكون واثقة باني سأحتفظ بها الى الابد .

هذه صيحة استغاثة اخيرة . انت نَفَسي : لا تدعني انطفىء .

مريم

أُخذت لي صورة شمسية ارسلها اليك ، وسترى فيها اني في مقتبل العمر ، ولكني لست حسناء ، مع اني ابدو في الصورة اجمل مما انا بالحقيقة .

لا تكتب اسمك على غلاف رسالتك .

من

بيار كوستال

باريس

الى

تيريز بانتفان

في وادي موريان

٥ ايلول ١٩٢٦

ايتها الآنسة !

لم يخطر في بالي قط اني ساستطيع ، يوماً ما ، الرد على رسائلك الحافلة بالهذيان . ولكني ، مع الاسف ، تأثرت بالرسائل الاخيرة ، وها ان الشر قد وقع الآن . تقولين ان حياتك بين يدي . اننا نعرف هذا النوع من القول . ولا بـد لي من احتمال النظرية التي تؤمنين بها . فهـل يجوز لي اهمال هذه الصيحات الموجهة اليّ ؟ لست قاسياً الى هذا الحـد . فلننظر في ما استطيع عمله من اجلك .

ليس هناك اقل أمـل في ان يكون لشعورك صدى او تجـاوب في نفسي . لا تصرّي على التوجّه اليّ . انك ترتطمين بباب مقفل ، وتبذلين جهودك وقوتك بدون جدوى . ومهما يطل انتظـارك ، فلن تنـالي مني اربا ، لاني لا املك شيئاً بوسعي اعطـاؤه . ليكن هذا معلومـاً لديك منذ الآن كي لا اضطر الى تكراره . ولا تحلمي بانه من المحتمل ان ألين يوماً ما .

اما اذا كانت هذه الطريق مسدودة في وجهك ، فهي ليست وحيدة

في الحياة . قد تكون فيك قوة ما ، لمن الغبن ان تبذليها في اول فورة عاطفية انتابتك . اذا استثنينا سذاجة تقواك – وهي من طبيعة جنسك وسنك – نرى ان البقية الباقية منك قد تكون غير عديمة الاهمية برمتها ، ومن العجب ان يجد الله فيها ما يسره . لا ادري ماهية الله بالضبط ، اذ ليس في نفسي ظل من الايمان ، ولكني اعلم انك تجدين فيه ، او في الفكرة التي كوّنتها عنه ، راحة لا تتيسر لك في صميم العيلة . ان بيوت العيال بُؤر فساد كلها . واذا كنت استطيع ان اعمل لك شيئاً فهو ان اشجعك على المضي في هذه الطريق ، وان انظر اليك من بعيد بكل عطف ، مع اني لا اعتقد بالوهية يسوع المسيح ، حتى ولا بوجود إله . اني أَلِفتُ التأملات اللاامؤمنة ، وسأجعلها صلاتي لك ، اذا شئت ، فهي لا تختلف عن الصلوات الاخرى .

لا تكتبي اليّ رسائل من ثماني صفحات كل ثلاثة ايام ، ولا تتوهمي ان رسالتي هذه تسمح لك بالامعان في مراسلتي ، فالانتباه الذي اعيرك اياه يجعلني قادراً على قراءة رسالة واحدة منك كل ثلاثة اسابيع ، وليس من الممكن ان اقرأك كل ثلاثة ايام . اصارحك باني لن اقرأ رسائلك اذا كثرت . لا تسايري رغبتك في الكتابة اليّ إلا بعد مقاومة عنيدة تشرّفك . ولا تنتظري مني اجوبة ، فلن ارد على رسائلك إلا مكرهاً . وهذا يعني ان رسائلي اليك ستكون نادرة جداً .

وعلى هذا ، ارجو ، ايتها الآنسة ، ان تثقي بشعوري المخلص .

كوستال

من

بيار كوستال

باريس

الى

الآنسة راحيل فيفي

كاركيران (فار)

٦ تشرين الثاني ١٩٢٦

عزيزتي غيفيت !

أطلب اليك ان تضعي في صندوق بريـد كاركيران هذه الرسالة – واعذريني لانها مغلقة – الموجهة الى فتاة من لواريه تريد لي الخير منذ اربـع سنوات . ولما كانت لا تجـد عملاً تقوم به إلا التفكير بي ، فقـد استرسلت في هذا التفكير وأمعنت فيه . انها دميمة ، لا تثير في النفس اقل رغبـة جلسية ، لكنهـا ذكية ، مثقفة وفاضلة . وهي يتيمة ، كان ابوها موظفاً مغموراً في احـدى المناطق البعيـدة ، تعلمت اللاتينية على نفسها ، الخ ... وبالاختصار ، انها جديرة بالاحترام .

ولهذه الفتاة في نفسي بعض العطف ، لأني ادرك ما تعاني من كونها فتـاة في جوار الثلاثين من العمر ، ومن النوع المتفوق ، تعيش في سان ليونار (لواريه) ولا تملك اقل ثروة . من المؤسف حقاً ان نرى امرأة ، لها هذا القدر من المواهب ، قـد حُكم عليهـا بان تذبل وهي عذراء ، او ان تتزوج من حـانوتي في لواريه ، او ان تتخذ عشيقـاً – وقد يتعذر عليها ذلك لان الطبيعة لم تجد عليها بشيء من المحـاسن ، او ان

تنحدر الى التبذل والخنى . اني اغذي فيها الوهم باني صديقها لاني اعلم ان هذه الصداقة تقوّيها وتشدّد عزيمتها . وبعد ايام قليلة ستأتي الى باريس ، ولا اريد ان اراهـا . ان امرأة تحبني ولا احبهـا ، ولا اجد في قلبي اقل ميل اليها ، تظل محتملة نوعاً ما في المراسلة . اما ان ألقاها وجهاً الى وجه ، فيا ويلي ! سابادر فوراً الى اعطاء الاوامر اللازمة في بيتي ليقـال لها اني غائب ... في الجنوب .

وهناك فتاة اخرى من منطقة المانش ، اجبتُ منـذ ايام عن احدى رسائلها بعد ان كتبتْ اليّ ثلاث مرات او اربعـاً منـذ حوالى ثلاث سنوات . وقد ارسلت اليّ منذ قليل صورتها الشمسية ، فاذا هي قروية مكتملة الاوصاف بثوبهـا الاسود الدالّ على انهـا يتيمة . ومن الصعب جداً على المرء ان يتخيل شيئاً اقبح من هذه الصورة . ان هذه الفتاة مصابة بجنون مطبق من النوع الصوفي المفرط في التقوى . ولولا هـذا الجنون الذي تستمد منه كل قيمتها لكانت لا شيء . وبكلمة من احدى رسائلها استطاعت الدخول الى نفسي . لم تفتح بهذه الكلمـة قلبي بالمعنى الصحيح ، لكنهـا فتحت باب المكان العميق من الشعور حيث يرقـد ، او يتظاهر بالرقاد ، الرفق الى جانب الشفقة . قـالت لي : «ليتك تدري فظاعة احساس المرء بانه متعلق كليـاً بقدرة لا تريد له الخير !» واظن انهـا تعني عائلتها . وبمـا انه يصعب التمييز بين حدود السمو وحدود الجنون ، احببت الاعتقاد ان هذه الفتاة سامية القلب والفكر ، وغدوت اود لو تختبر نفسها لتعلم انهـا بالدير أجدر منها بشيء آخر . كل شيء اوفق لها من حياتها في المزرعة بين بقـّارة وبقـّار يحتقران فيها نزعتها الملهمة .

اما انت ، يا غيفيت ، انت المزوّدة بنبوغ اسرائيل البشري ، فاظن انك توافقين على مبـادرتي الى الرد على هذه الفتـاة . اعلم ان عملي هذا خالٍ من الحكمة ، فكل احسان الى امرأة عملٌ بعيد عن الحكمـة ،

ولكني لا احب ان اضن على المخلوقات بالقليل من السعادة الذي يلتمسونه عندما يمرون الى جانبي على هذه الارض .

ليس لدي اشياء خاصة اقولها لك ، الا اني اشكرك على المتعة التي تجودين بها عليّ منذ شهور عديدة . وبما انك في كاركيران – وارجو ان تكوني قد قمت برحلة مريحة – فانك سترين شباك الصيادين مشدودة الى سطح الماء بقطع من الفلين . فالليالي التي امضيتها معك هي هذه القطع الفلينية التي تشدني الى سطح الحياة . ولولا هذه الليالي والليالي الاخرى التي امضيتها مع رفيقاتي الاخريات ، لكنتُ غرقت ، ولاريب ، بين بلاهة عيلتي ، وحقارة زملائي ، والوقت الذي اضيعه بسبب اصدقائي .

اود ان يكون صاحبك الاخير رجلاً جميلاً ومكتمل الصفات . عودي الي بحالة حسنة في آخر الشهر . لا اظن اني ساتضايق اذا خسرتك ، لاني اجد بعض التسلية في ملء ما يحدث من الفراغ في حياتي ، ولكني اكون مسروراً ، بالرغم من كل شيء ، اذا احتفظتُ بك .

اعلمي ، يا عزيزتي غيغيت ، اني احب المتعة التي اغنمها معك ، واحب ما امنحك من المتعة . وبعد ، فانك في الثامنة عشرة من العمر وتعجبينني .

الوداع ، يا عزيزتي . ولي الشرف بان اكون :

ك

من

بيار كوستال

باريس

الى

اندريه هاكبو

سان ليونار

(رسالة مؤرخة كأنها كتبت في كاركيران ومرسلة مع الرسالة السابقة) .

٧ تشرين الثاني ١٩٢٦

آنستي العزيزة !

كم اعاني من الضجر ! اني في هذا البلد الموحش الذي قررت ألّا اغادره طوال مدة اقامتك في باريس . لو كنتُ اقرب قليلاً الى باريس ، لذهبت اليك بطيبة خاطر لاجنبك الخيبة التي مُنيتِ بها . ولكني هنا بعيد !...

اذا كنتِ في باريس بحاجة الى مساعدة ما ، الى كلمة تعريف ، او الى شيء آخر ، فاكتبي الي حالاً الى كاركيران « على همة الآنسة راحيل غيفي ، ١٤ شارع الشاطىء » ، فالآنسة راحيل عجوز يهودية سبعيلية استأجرتُ عندها غرفة لبضعة ايام . وبما اني قليل الادب وعديم التربية فمن المؤكد اني سأقع في النهاية بين ذراعيها ، هذا اذا افترضنا جدلاً انه من المحتمل ان يهيم المرء بمخلوقة تدعى غيفي . ولكن هذا ما لا اعتقده ، اقولها لك بكل صراحة .

بينما انا اكتب اليــك ، ارى ، من نافذتي المطــلة على البحر الازرق الساحم الرجراج ، انعكاس اشعاع النجوم يتـكاثر على صفحات لامعة من الماء ، فافكر بالشهور الاحد عشر التي تمضينهـا كل سنة في سان ليونار (لواريه) ، وأتأمل فيهـا لعـلي ادرك كيف تكون ... فاذا بجمال هذا البحر ، الذي كنت اراه صافياً بريئاً ، قد فقد شيئاً من براءته وصفائه .

لك بكل اخلاص .

ك

عفواً ، كذبتُ عليك . اني لا ارى البحر مطلقـاً في هذه اللحظة ، لاني اكتب اليك من مقهى لا يُرى منـه البحر . لا اطيق ان اكذب عليك حتى هذه الكذبة البسيطة . بالحقيقة ، اني نادراً ما اقوم باعمـال تزعجني الى اقصى حد ، ولكني افعل ذلك في بعض الاحيان .

من

اندريه هاكبو

فندق الفنون الجميلة باريس

الى

بيار كوستال

لي كاركيران

١١ تشرين الثاني ١٩٢٦

كوستال ، يا عزيزي كوستال ! هـل كانت رسالتك الاخيرة خيبة رجاء لي ؟ نعم ولا . نعم ، لانه من الغبن حقـاً ان اجيء الى باريس ولا اجدك ؛ ولا ، لان رسالة صغيرة كرسالتك تساوي بضع لحظات من وجودك الى جانبي . مـا ألطفـك ! ان هذا اللطف لم يتغير منذ بضع سنوات ! وهكذا ، لو لم تكن بعيداً لجئتَ الي ، الى باريس ، لا لشيء ، الا لتراني . مـا ارق ملاحظتـك المعبودة ! اني شعرت بمـا ساورك من تبكيت الضمير ، لانك كذبت علي كذبة صغيرة لا اهمية لها ! كيف لا يحبك النـاس على الرغم من فورات النزق التي تنتـابك احياناً ، وعلى الرغم من سكوتك طوال اسابيع ، ومن ضرباتك الفجائية القاسية ، وكل ما فيك من مزايا المقـامر الذي يثير القلق ، ومن اللهو الشديد القسوة الذي تزيل اثره فوراً طيبتك ورقتك الالهيتان حقاً ؟ لم يأتني منك قط الا السرور .

اني وحيدة في هذه الغرفة من فندق صغير . النار تحتدم في الموقد . وباريس تتخبط في الخارج تحت المطر . ورسالتك امامي على الطاولة .

انها ستساعدني على الحياة بدونك خلال هذه الايام القليلة في باريس، وستساعدني على ان اقول لك كل ما اريد قوله، لان هذه الرسالة مهمة جداً.

اني اجد صوراً من الحياة شبه مقبولة اثناء الصيف في سان ليونار. ولكن هذه الصور تصبح رهيبة فترتعد منها فرائصي في الشتاء. في سان ليونار فتيان لطفاء اكتفي بهم للتنزه بالزورق، وللسباحة معاً، وللقيام بجولات للترويح عن النفس. على ان هذه التسلية تنتهي عندما تدهمنا اول موجة من البرد، ويأتي دور القنديل والكتب. ان البرد يجعلني بحاجة الى الذكاء، وعندئذ تجذبني باريس بقوة. وبعد تمضية بضع ساعات في باريس — استمعت امس الى موسيقى بيتهوفن في قاعة غافو، ورأيت هذا الصباح لوحات فراغونار في معرض كاربلتاه — اقول في نفسي: لا! مستحيل! لست متعجرفة، فمن انا لاكون متعجرفة؟ ولكن لا بد من الاذعان للواقع، فكل ما في وجودي يأبى علي الزواج برجل تافه. وفي ذهني هذه الفكرة الراسخة ابداً، وهي ان حب المرأة لا يمكن ان يكون ضرباً من التنازل لانها هي المغلوبة دائماً في الوصال الجنسي.

اني فتاة ريفية صغيرة، لا ثروة لها ولا علاقات، وليس في وسعها ان تتزوج زواجاً «رصيناً» تجد فيه المال الوفير والمقام المرموق، كزواج يعقد في باريس مثلاً، و في وسط ميسور ومثقف. ولكي اجد زوجاً مثقفاً ينبغي لي ان امضي نصف السنة في باريس، وهذا ما لا تسمح به امكاناتي المادية. وبما ان الزواج «الرصين» متعذر، فلا اريد الا زواجاً يسمح لي بان اكون عاشقة في وضح النهار. وما الفائدة من الزواج اذا كنت سأبقى وحيدة كما انا الآن، يكتنفني الحرمان، فضلاً عن كوني مقيدة برجل يُسئمني، واحبه كفاية كي لا اشعره بسأمي؟ أفلا اكون قد احتفظت بما في حياتي من المزعجات، واضفت اليها بعض المتاعب، وخسرت حريتي؟ لا شيء يسهل علي الاقدام على

التضحية بحريتي الا حب عظيم والايمان باني اقوم بمهمة سامية ممطاء .

اني لا اجد هنا اثنين او ثلاثة من الفتيان يقبلون الاقتران بي ، على ما اظن ، بطبيبة خاطر . وليس فيهم من لا يعجبني ، فهم شبان لطفاء ، مهذبون ، شرفاء . وبينهم واحد ، على الاقل ، قد اتمكن من حمل نفسي على حبه اذا بذلت بعض الجهد . ولكن في اي محيط من التخلف ... محيط التجارة في الريف ... محيط خال من الشعر ، ومن كل ما هو عميق ، مرهف ، محيط غارق في الاغراض المادية ! قد يستطيع الرجل المتزوج ان يتفلت من محيطه ؛ اما المرأة المتزوجة ، فلا . انها تستطيع الاعتزال عن زوجها ، عن محيط هذا الزواج ، ولا تستطيع حق المجازفة بالاساءة اليها . ألا تشعر المرأة بالمأساة التي تعانيها عندما تكون متفوقة قليلاً في محيطها ؟ هذه هي مأساتي كلها . اني ادفع ثمن السعادة التي اغتمها باستنكافي عن حب التافهين . على ان لحب التافهين ثمناً ، وان ثمنه هو تفاهة السعادة التي يجود بها على اصحابه . اواه ! كم استطيع ان اكون زوجة موافقة لرجل فنان ! فان زوجة الفنان لا تكون مثالية الا اذ احبت في زوجها الفن اكثر من الرجل ، وجعلت الفن كبيراً والرجل سعيداً . وبعد ، فيا له من ارتياح تتمتع به الروح عندما تكون المرأة مع رجل كأنه هي نفسها ، تفهمه اذا نوه او اشار ، وتبادر الى تلبية رغبته.

اني ارهب حياة العوانس ، واشفق على المخفقات في زواجهن . والحب المفتقر الى التناسق والانسجام يقرفني . واذاً ؟ ... سأبلغ الثلاثين من العمر في نيسان . الثلاثون هي السن القصوى . احس اني في دوار ، في دوّامة ، ويساورني خوف شديد من ان اخفق في كل شيء . ارشدني ، يا كوستال ، الى ما اعمل بحياتي ؟

ثمة شيء واحد يعضدني ويشدد عزيمتي : وجودك . انت وحدك تحافظ على توازن المرأة في حياتي . اغمض عيني لحظة واقول في نفسي انك

موجود، فارتاح . آه ! يجب ان نشكر من كان مثلـك ، لا لشيء الا لأنه موجود . أينقص قدر النـار ان تحتـاج الى شيء ما لتشتعـل به ؟ احبك كما احب مشعالاً يلهبني . لقد جعلتني اجد جميع الرجـال تافهين ، مدى حياتي ، وارى جميع المصائر بالمحة وضيعة . لم اعد قادرة على تصور سعادة طبيعية متزنـة — اقصد بقولي : زواجاً ما — من غير ان يتفلت وجودي كله من هذه السخافة ، لاني لن اجد الشجاعة الكافية لاكرس حياتي لرجـل احبه الا قليلاً . تخيـل امرأة فانيـة تحب جوبيتر ، ثم لا تستطيع ان تحب احداً من الرجال ، بينما تساورها رغبة يائسة في ان تتمكن من حب رجل ما .

كم كنت اود لو اقدم لك خدمة في سبيل عملك العظيم . ولكني لا استطيع شيئاً على الاطـلاق . لو كنت احذق الكتابـة ، لكتبت فيك مقالات او كتاباً . اشتهي ان تكون فقيراً ، متألماً ، لا يفهمك احد ، واود لو اراك شريداً تبحث عن مهمتك في الحياة من حيث انك رجل ، كما ابحث عن مهمتي من حيث اني امرأة ، فاتخذ من ضعفك سنداً لي . ولكنك مكتفٍ ، موطد الاركان في وحدتك . ان ما يكرهك النـاس من اجله يجعلني اتألم واشكو ، وهو هذه الثقة بالنفس التي تركز عليها حيـاتك . ليس لي امل بان احس ، بيني وبينك ، تلك العلاقة الوحيدة : اقتناعك بانك تستطيع الاتكال علي اتكالاً كلياً مطلقاً . ولكن قل لي ، رحماك ! انك لن تحتاج ابداً الى مثل هذا الولاء ، لاني اخشى ان تصبح يوماً مـا بحاجة اليه ، وان اكون عندئذ عاجزة عن تلبيتك ، لانغماسي في واجب كئيب ارتضيته في ساعة يأس لاستعمال حياتي .

ذات يوم ، بينما كنت اكتب اليك ، جاءت على سن قلمي الجملة التالية : «احبك بكل روحي» ، فلم اجرؤ على كتابتها خوفاً من ان تسيء تأويلها . اما اليوم ، وقد غدوتَ تعرفني ، وتعرف اني لا اهيم بك ولن اهيم بك ابداً ، فاني اكتبها بكل ثقة وبلا تحفظ : «احبك بكل روحي !»

لا حاجة بك لان تجيب عن هذه الرسالة . يجب ان تنساها ، وألا تحفظ منها الا بعض الشعور بالعذوبة اذا أمكن . وخصوصاً لا تعاقبني بتغيير موقفك مني .

أ . هـ

ملاحظة : اشتريت ثوباً احمر ، خفيفاً هفهافاً ، لهذا الشتاء ، واشتريت أيضاً معطفاً اشهب اللون ، رقيقاً ، انيقاً – في غاية الاناقة – حتى ليُظن انه من صنع احد كبار الخياطين (وهو على كل حال نسخة عن معطف من صنعه) ، وساشتري قبعة صغيرة من الريش لانها ناعمة على الوجه ... فانت ترى اني متحررة الفكر على الرغم منك .

وبعد ، فلماذا كون انيقة ، حلوة ؟ ولاجل مَنْ ؟ وما الفائدة ؟ لاجل سكان سان ليونار ...

مساء الخير ، يا سيدي .

من

بيار كوستال

باريس

الى

اندريه هاكبو

سان ليونار

٢٦ تشرين الثاني ١٩٢٦

آنستي العزيزة !

ها انا ارد على رسالتكِ المبجلة المؤرخة ١١ الجاري ، متأخراً حسب القاعدة المتبعة خمسة عشر يوماً ، منها ثمانية ايام لم افتح خلالها رسالتك ، وهذه فترة من الحجر الصحي افرضه على جميع رسائل النساء الموجهة الي لعلها تصبح قليلة العدوى ؛ وفي الايام الثمانية التالية كنت كل يوم ارجىء الرد الى الغد ، لأن كتابة جوابي تزعجني الى اقصى حد . ألتمس منك المعذرة على هذه الصراحة ، ولكني اؤكد لك اني لا استطيع الاحتفاظ بالجد والرصانة عندما تفاتحني امرأة بانها تحبني .

بالحقيقة لم أجد رسالتك سائغة ولا ممتعة . لماذا تركتِ صعيد الصداقة الذي كنا فيه على احسن ما يرام لتغوصي في خضم العواطف المبتذلة المتعبة ؟ انك تجلسين الآن على قمم من السمو اشك في قدرتي على بلوغها للوصول اليك . كنت اعتبرك رفيقة ذكية فاتصرف معك تصرفاً بسيطاً ، طبيعياً . اما الآن فلا بد من اتخاذ المواقف الرسمية لمخاطبتك . ومنذ اليوم سيخامرني شعور بان لك علي واجبات : واجب الامانة والولاء

لاستحقاق جودك علي بنفسك ، وواجب معاملتك بعناية متناهية (وتجدين في هذه الرسالة نموذجاً من هذه العناية) ، وواجب مبادلتك بعطاء متناسب، ولو قليلاً ، مع ما تشرفينني بتقدمته الي . ما اكثرها من واجبات ! ومن المؤسف حقاً اني لم افلح قط في تأدية الواجب . واخشى ان تكوني قد تصرفت معي تصرفاً أخرق وبعيداً عن الحكمة . كان يجب عليك ان تحتفظي بعواطفك لك ، لاستطيع الاستمرار في التظاهر باني لا افهم ما في نفسك .

ولننتقل الى موضوع آخر . ادهشتني يوماً بقولك انك تجهلين تاريخ الادب الانكليزي . منذ حين ، ورثت مكتبة خلّفتها لي عانس عجوز كانت تكنُّ لي ، على ما اظن ، عواطف رقيقة تستطيعين ادراكها بسهولة عن طريق مقارنتها بما يعتلج في نفسك . أتريدين ان ارسل اليك صندوقاً من كتب الادب الانكليزي المترجم ؟ اني اقتني هذه الكتب نفسها باللغة الانكليزية . ويؤلمني جداً ان تبقى فتاة مثلك طيلة حياتها دون ان تحتك بنبوغ انكلترا .

لك بكل اخلاص ، يا آنستي العزيزة ، ولكن شدي لجام نفسك ، اتوسل اليك .

ك

من

اندريه هاكبو
سان ليونار

الى

بيار كوستال
باريس

تشرين الثاني ١٩٢٦

كم انتَ معقدٌ صعبُ المراس ! كيف تبادر الى ذهنك اني اريد الاستيلاء عليك ، فارتعدت فرائصك ، وانتفضت مدافعاً عن استقلالك ؟

وبعد ، فماذا جرى ؟ قلت لك ، في ما مضى ، انك في نظري شبه اله . أفليس الاله ، نوعاً ما ، مرآة ينظر المرء اليها ليرى فيها نفسه افضل مما هي بالحقيقة ؟ ألا يخلق الناس الاله على صورتهم ، ولكن على اجمل واكمل ؟ انت هذا الاله . انك نسخة عني متسامية ، وانك اقوى وافخر وافضل ما في نفسي . هيامي بك بارد ، هادىء . والى جانبه استقرت صداقتي . وانت ، بالنسبة الي ، رفيق واله... أليس هذا ممتعاً ؟

ما هو الواجب الذي يفرضه عليك هيامي ؟ اعطني ما تعودت ان تعطيني حتى الآن . لا اطلب مزيداً . ولن يكون لي في حياتك وزن اكثر من وزن الريشة . ليتك تدري كم تستطيع المرأة ان تصغّر نفسها لتبقى الى جانب من تحب ! ما دمتُ قادرة على مراسلتك ، فلن اكون شقية بالمعنى الصحيح . وما يهمني اذا سئمتني ، ما دمت لن اسأمك ، وما دامت لي مؤلفاتك ؟ اذا افترضنا اسوأ الاحتمالات ، واصبحت لا انال

منك الا ما تجود به على الجميع ، فاني اعتبر هذه المنحة عطاء ملكياً . لذلك ترى تعلقي بك مستقراً لا يفوته شيء من الارتياح .

يبدو لي ان السيدة دي بومون ، التي كانت تحب شاتوبريان اكثر مما كان يحبها ، قد وجدت موضوعاً للكتابة اليه كما اكتب اليك .

كم ارى فكرة التبادل الاجبـاري راسخة في اذهان النـاس ! نقول لاحدهم : «اطمئن ، فلاجلك انت ولاجلي انا ، لا احبك ولن احبك . انما اكن لك صداقة عاطفية حارة ، لان هذه الصداقة تعجبني ، ولاني اريدها ، ولاني اجد فيها سعادتي ، ولأنه من الممتع ان يفكر المرء بشخص آخر ، ان يهتم به ، ان يعطيه افراحاً ومسرّات . لا اطلب اليك شيئاً . لستَ مديناً لي بشيء . احبك على حسابي الخاص ، وانا على أتم الاستعداد لتقبل ما قد ينجم عن هذا الحب من خسائر ومتاعب » ، فيظن من نوجه اليه هذا الكلام اننا نحبه حباً جارفاً ... حباً شقياً ، لانه لا يجد تجاوباً له من نوعه . وهذا بعيد كل البعد عن الحقيقة والواقع .

لا احسبك ناقماً عليّ . لا ، ليس في وسعك ان تنقم على هذه التقدمة الجزئية الكئيبـة والأرقّ نوعاً من تقدمـات النساء الاخريات . لا تنزع مني احترامك اياي ، واتوسل اليك ان تكتب اليّ في بعض الاحيـان . عندمـا تلازم الصمت زمنـاً طويلاً ينتـابني الهزال ، واتردّى في الخمول الفكري والمعنوي . لا يهمني الفهم مطلقاً اذا كنت عـاجزة عن اقتسام ثمار هذا الفهم معك .

اليك يدي .

ا . هـ

اقبل بكل سرور تقـدمتك من الكتب الانكليزية ، مع اني افضّل ألّا اكون مدينة لك بشيء في الوقت الحاضر .

من

بيار كوستال
باريس

الى

اندريه هاكبو
سان ليونار

٣٠ تشرين الثاني ١٩٢٦

اعترف ، يا آنستي العزيزة ، بان من يحبني لا يجد في هذه المحبة شيئاً من العذوبة .

لا أكاد اتبيّن ان احدهم متعلق بي حتى يأخذني الذهول ، ويلتابني السأم . فلا ألبث ، بعد مرور فترة الدهشة ، حتى اتخذ فوراً موقف الدفاع عن النفس . تعلقت تعلقاً وثيقاً بثلاثة اشخاص او اربعة طيلة حياتي كلها . وكان اولئك الاشخاص من الذين اشك بانهم يكنون لي ذرة من المحبة او العطف . واعتقد انهم لو أحبوني لآنست في نفسي ميلاً الى الابتعاد عنهم .

ان صليب الحياة ان يكون المرء محبوباً اكثر مما يحب ، لان المحبوب يضطر ، في مثل هذه الحالة ، الى المراوغة للاعراب عن عاطفة لا يحسها ، او الى تعذيب من يحبه بفتور شعوره نحوه او بتصرفاته المستهجنة . ومهما تكن الحالة ، فالامر لا يخلو من القسر . ومن كان مثلي لا يستطيع الشعور بانه مكره دون ان ينتفض وان يصبح شريراً في اغلب الاحيان . وهذا مما يسبب دائماً المتاعب والآلام .

كتب « بوسويه » بقوة : « يسيء المرء اساءة كبرى يتعذر اصلاحها الى شخص ما اذا احبه اكثر من اللازم » . وهذا شبيه بما كتبتُ ، انا نفسي ، حيث قلت : « من يريد ان يحب اكثر من ان يكون محبوباً يضر اكثر مما ينفع » . والنتيجة نجدها في « لا روشفوكو » ، وهي : « اننا اقرب الى ان نحب الذين يكرهوننا ، منا الى ان نحب الذين يحبوننا اكثر مما نريد » . وها انا خادمك الامين استنتج مما تقدم انه لا يجوز لنا مطلقاً ان نقول لاحد اننا نحبه دون ان نبادر حالاً الى الاعتذار منه .

ان مَنْ أُحب ينتزع قسماً من حريتي ، فاذا ما احببتُ اكون اخترت لنفسي هذا المصير بملء ارادتي . ومن يحب يغنم من حبه لذّة تسهّل عليه التضحية بشيء ما بطيبة خاطر . اما من يحبني فانه يأخذ حريتي كلها . ومن يعجب بي بوصفي كاتباً يوشك ايضاً ان ينتزع مني هذه الحرية . اني اخشى حتى الذين يفهمونني . لذلك امضي الشطر الاكبر من وقتي في محو ما اترك ورائي من آثار — سواء أكان في حياتي الخاصة ، او في حياة الشخصية التي اكتب عنها في مؤلفاتي — كي لا يهتدي اليّ احد . والشيء الذي كان من المحتمل ان يسرني غاية السرور ، لو كنت احب الله ، هو التفكير بان الله لا يقابل محبتي بشيء .

واخشى ايضاً ، بالقوة نفسها ، كل رغبة جسدية تتوخاني ولا استطيع الرد عليها بالمثل . افضّل ان تكون بين ذراعي امرأة عديمة الاحساس ، كأنها لوح من الخشب ، على امرأة تجني من وصالي لذة اكبر من لذتي بهذا الوصال . واني لأتذكر ليالي جهنمية امضيتها ... ولا ريب ان في الجحيم شيطانات يشتهيننا دون ان نشتهيهن . من المستحيل ان لا يكون الاله الذي يهوى التعذيب قد فكر بذلك .

اني لأدرك ما يعانيه المرء عندما يكون محبوباً اكثر مما يحب ، حتى غدوت اراقب نفسي مراقبة دقيقة كلما احسست اني احب اكثر مما انا محبوب . وهذا ما حصل لي احياناً . وكثيراً ما شعرت بان رغبتي لا

تقابل بشيء من اللطف إلا على سبيل المجاملة . فقد كانت النساء اللواتي احببتهن يتظاهرن بالحرص على الحشمة والصون ، او يظهرن فاترات لامباليات بدون تحفظ . فكنت أبذل قصارى الجهد ليكون وجودي خفيف الظل ، واتقدم بخطى وئيدة ، مترقباً اول بادرة من بوادر العياء والسأم لاتراجع ، ثم لاوسّع المدى الزمني بين لقاء وآخر ، حتى يتسنى لي الانفصال النهائي بلا ضجة . واعترف باني كنت أتألم من هذه المواقف . إلا اني كنت اعلم ان هذه الطريقة في التصرف حيوية لاعمالي ، لاني قد اخسر كل شيء اذا حاولت فرض نفسي ، مع العلم اني انا المخطىء لاني احببت اكثر من اللزوم .

اعرف الحب حق المعرفة ، فهو شعور لا أكنّ له اقل احترام . ولا بد من الجهر هنا بان لا وجود للحب في الطبيعة . انه من اختراعات النساء . ولو كنتُ شقياً محكوماً عليه بالموت لأحسست اني بأمان وانا هائم على وجهي في الادغال كالوحش المطارَد ، اكثر من شعوري بالطمأنينة لو كنت لاجئاً الى امرأة تهيم بي هياماً كبيراً . ولكن هناك المودّة ، ثم المودة الممزوجة بالرغبة . وفي كل كتاب من مؤلفاتي تجدين التوكيد التالي : « ان ما يهمني اكثر من كل شيء هو ان احب » . ولكن لا مجال للحب في هذه الرغبة ، فالمسألة مقتصرة على مزيج من المودّة والرغبة ليس هو الحب بالذات . قد تسألين : « وما هو هذا المزيج من المودّة والرغبة ان لم يكن حباً ؟ » فأجيب : « لا ! ليس هو الحب ! » تقولين : « اشرح لي ! » ولكني لا احب الشرح ، فالنساء لا يفهمن شيئاً من هذا كله .

واخيراً ، لا احب ان يكون الناس بحاجة اليّ ، لا فكرياً ، ولا عاطفياً ، ولا جنسياً . فالمتعة الغامضة التي يغنمها البعض من وجودي الى قربه تقلل من قدره في نظري . وما يهمني ان يكون لي شأن في دنيا الآخرين ؟

تجدين مع هذه الرسالة مقالاً نشرته منذ سنوات . لو كتبته اليوم لما

كان كما هو بالضبط ، لانه شديد اللهجة ولا هوادة فيه ، ولكن تفكيري لم يتغير بالنسبة الى المعتقد الاساسي الذي يعبر عنه هذا المقال .

وكلمة بعد : حدثتني عن بولين دي بومون . اظن ان شاتوبريان ما كان ليعاملها برفق كما عاملها لو لم تكن على فراش الموت . فقد كان يعلم ان معاملته هذه قصيرة المدى .

لك الوف التحيات ، يا آنستي العزيزة .

ك



مقال بقلم كوستال
(مقتطفات)

المثال الاعلى في الحب هو ان يحب المرء
بدون ان يلقى تجاوباً مقابلاً لحبه .

... ارى لنفور بعض الرجال من ان يكونوا محبوبين اسباباً عديدة متناقضة . ولا غرابة ، فالتنافر والتضارب في النزعات والميول من ابرز ميزات الرجل . ومن هذه الاسباب :

الكبرياء . — هي الرغبة في الاحتفاظ بالمبادرة . ففي الحب الذي تكنه لنا المرأة اشياء لا ندركها تمام الادراك ، توشك ان تفاجئنا ، وقد تغمرنا وتتجاوز حدودنا المألوفة ، وتعتدي علينا ، وتهدف الى قيادتنا على هواها . حتى في الحب ، حتى اذا كان الحبيبان اثنين ، يريد الرجل ان يكون وحده سيد الموقف . انه لا يطيق الثنائية .

التواضع . — اذا كانت هذه الكلمة قاسية ، فلنقل : عدم الغرور — هو تواضع الرجل الواعي ، النيّر الفكر ، الذي يعلم ان ليس له قدر كبير من الجمال ولا من القيم ، وانه من السخف المضحك ان يكون لادنى حركاته ، او كلماته ، او سكوته تأثيرٌ بالغ يخلق السعادة او يسبب الشقاء . ومن الجور الفادح افتراض مثل هذه القدرة في الرجل ! اني لا أقيم وزناً لانسانٍ يفكر ثم يعبر عن فكره قائلاً : « انها تحبني » ، دون ان يحاول تخفيف هذا التصريح بقوله : « ليس هذا الحب منها الا حماسة عابرة » . انه بهذا القول يخفض ، ولا ريب ، قيمة المرأة ، ولكنه يفعل ذلك لانه

خفض اولاً قيمة نفسه .

اني اقارن بين هذا الشعور ، مثلاً ، وشعور الكاتب الذي يعتقد انه من السخف ان يكون له اتباع يعتقدون به ، لانه يعلم ما هي مقوّمات شخصيته ، وما وراء مظاهر « رسالته » . ان انساناً جديراً بان يتكنى بالانسانية يحتقر ان يكون له نفوذ في الآخرين وتأثير عليهم ، مهما يكن اتجاه نفوذه وتأثيره . واذا تحمّل مكرهاً حتمية هذا النفوذ ، فكأنه يدفع جعالة ليتاح له التعبير عن فكره . لا نريد ، نحن الرجال ، ان نكون تابعين لاحد ، او منوطين به ، فكيف نحترم النفوس التي تنضوي الى تبعيتنا ، وترضى بان تكون منوطة" بنا ؟ ان الفكرة السامية التي تتكون في الذهن عن عظمة الانسان هي التي تجعل صاحبها يرفض الزعامة والرئاسة .

الكرامة . — انها تعبير عن الانزعاج والخجل اللذين يساوران الرجل عندما يقوم بدور سلبي ، هو دور المحبوب . لا بد له من ان يقول في نفسه : « ان يكون المرء محبوباً حال" لا تناسب إلا النساء ، والحيوانات ، والاولاد ! » ويا لها من حقارة ان يتدنى الرجل الى ان يستسلم للعناق ، والتقبيل ، والتدليل ، وضغط اليد ، وشرود النظر ... ان الاولاد أنفسهم يأنفون من ان يقبّلهم الناس ، ولا يتساهلون في ذلك إلا على سبيل المجاملة والمسايرة ، لأن الذين يقبّلونهم اقوى منهم جسدياً . ان تضايقهم من الضم والمص واللثم لا يغرب إلا عن الذين يعذبونهم حاسبين انهم يجودون عليهم باسمى العواطف .

الرغبة في المحافظة على الحرية وعلى النفس . — ان الرجل المحبوب سجين . وهذه حقيقة راهنة لا تحتاج الى برهان .

من

تيريز بانتفان

لي وادي موربان

الى

بيار كوستال

باريس

٣ كانون الاول ١٩٢٦

بنعمة سيدنا يسوع المسيح

اجبتَ عن رسالتي ! كتبتَ اليَّ انك تريـد ان تقرأ رسالة مني كل ثلاثة اسابيع ! قرأتُ هذا ولثمت الكلمات . لا تدعني اذوب وجـداً . ليتك ترى اصفرار وجهي ! اكتب اليَّ من جديد ، اكتب بسرعة كلمات يتسنى لي ان ألثمها .

ضممتُ رسالتك الى صدري ، ضغطتُ بهـا على ايقوناتي حتى آلمتني . وبقدر ما كانت تؤلمني كنت انعم بالخير . وكم اجد متعة فائقة في كل ما يؤلمني ! أحلم احياناً بانك تدخل غرفتي . ولكنك لو دخلت فعلاً لكان من المحتمل ان ابكي .

اود لو اغادر « بؤرة الفساد » التي اعيش فيها ، ولكن الى اين اذهب ? قـد اضطر ان اسير كابراهيم الخليل ، وان امشي الى الامـام دون ان ادري الى اين ، في رحاب الحرية المقدسة التي يُختص بها ابناء الله ، لاني لا اجرؤ على الذهاب اليك ، ولا اقوى على مخاطبتك ... انك لا تستطيع

انتزاع كلمة واحدة مني ... ومع ذلك انتظر اشارة منك ، على الرغم من اني اخشى ان تصاب بخيبة مرة لدى رؤيتي .

اني لا اقيم دائماً في البيت ، بل اخرج في اغلب الاحيان الى الحقول ، واذهب ثلاث مرات او اربعاً في السنة الى المدينة . ففي الاسبوع الماضي كنت في ن ... حيث حضرت السوق الموسمية ، وتسليت ، ولهوت . وهكذا ترى اني لا استحق ان اكون راهبة ، اذا كان .هذا ما عنيته في رسالتك .

ولكن لا تظن اني طائشة او ضعيفة الايمان . اني ألوذ كل يوم بالراحة الكبرى في القربان المقدس ، كما ألوذ بك روحاً وجسداً كل ليلة في سكون الظلام ، فأحس ان كل ما في الوجود يلوذ بي ... فأصلي من اجل ابي المسكين الذي لا يؤمن بالله ، وهو يقسو عليّ بلا هوادة . أتدري ما قال امس ، بينما كان يتناول طعام العشاء؟ قال : « ان تربية الخنازير افضل من تربية البنات » . وكان ينظر اليّ وهو يفوه بهذه الكلمات .

الوداع ، يا صديقي ، ان قلبي لمثقل بما اود ان اعطيكه . حبني قليلاً ، جزءاً صغيراً مما احبك ، ولتأخذنا الابدية بين ذراعيها .

مريم الفردوس

من

بيار كوستال
باريس

الى

تيريز بانتغان
في وادي موريان

٩ كانون الاول ١٩٢٦

آنستي!

اذا كنتِ ليسوع المسيح، فلا يجوز ان تكوني له بغموض يكتنفه اللبس. واذا سلمنا جدلاً بان الله موجود، فلا بد من القول انه لم يعطِ الحب للمخلوقات إلا لتردّه اليه وحده. أتريدين ان اذكرك بقول القديس اغسطينوس: «لا تصل النفس الى الله إلا اذا ذهبت اليه بدون وساطة المخلوقات»، ام بقول ذلك المتصوف التقي «اكهارت»: «أتدرون لماذا الله هو الله؟ لانه متحرر من جميع المخلوقات». انكِ تهينين الله، وتلوثين عظمته حين تخلطينه بي؛ وفي اضطراب ايمانك ما يثير الاشمئزاز. عندما ارى يسوع المسيح مخلوطاً باحد المخلوقات (اقول مخلوطاً لا ملتصقاً، لان الالتصاق يحدث احياناً لكثيرين منا) افكر بذلك التلميذ الذي حدثتنا عنه الاميرة البالاتينية، وقد صوّر وجهين من وجوه القديسين على إليتيه لينجو من الجلد.

قلتِ لي انك لا «تستحقين» ان تكوني راهبة. وكان الاجدر بك ان تقولي: «ليس من المقدّر لي» او «لم يقع عليّ الاختيار»، وهذا امر

محتمل جداً . ما لك وللاستحقاق . فكما ان حب شخص لآخر لا يحتاج الى استحقاق ، كذلك النعمة التي يسبغهـا الله على احدهم ليجعله مكرساً له . انه يسبغها على امرىء من اقل الناس استحقاقاً ، ويحجبها عن الفضلاء المستحقين . ولو كنتُ الله لاحببت في النـاس نعمتي التي خصصت بهـا بعضهم وجعلتها له امتيازاً . وعلى هذا الاعتبار ، ارى انك على حق في ما ينتابك من شكوك . ففي بعض الاحيان يكون الاصرار على نيل رضى الله للقيام بعمل ما من ابرز الادلة على ان هذا العمل ليس في سبيل الله ، ولا من وحي مشيئته ، كما ان الثقة المطلقة بان احد المؤلفـات البشرية سيكون ناجحاً هي ، في اغلب الاحيان ، الدليل الساطع على فساد هذا المؤلَّف .

قد تكون فيك قوى صالحة للتكريس . لا ادري ما الذي تخسرينه اذا ترهبتِ ، ولكني اعلم ان خسارتك لن تكون كبيرة . اظن ان القائل : « من يخسر يربح » ، هو احـد آباء الكنيسة . يؤلمني ان اراك غارقة في الغباء (غبـاء العالم) . انك تذهبين الى المدينـة ، الى السوق الموسمية . وعوضاً عن ان يستولي عليك الاشمئزاز مما ترين هناك ، تجدين سبيلاً الى التسلية واللهو . اذا كنتِ مؤمنة فما الذي تنوين عمله في العالم ؟ لا يكاد المرء يؤمن حتى يرى ان العالم فسادٌ وشرٌ كله . فاذا وجدتِ متعةً ما في جرعة ماء ، تكونين قد صفعت يسوع المسيح . وفي نظر المؤمن ، لا مبرر لوجود شيء في العالم . مهما يكن نشاطك زهيداً ، فاني اراه في غاية السخف المضحك . اود ان تنطفىء الافعال فيك واحداً بعد الآخر ، كما تنطفىء الانوار في المدينة عندما ينتصف الليل .

كتب احد زملائي يوماً في « فضيلة الاحتقار » ، فثارت عليـه ثائرة احد رجال الدين ، وراح يصيح بغضب وازدراء : « فضيلة الاحتقار !... ان القائل بهذه البدعة مسيحي عجيب ! » ولكن الانجيل مليء باحتقـار يسوع المسيح للعالم . وقد قرأتُ ، هذا الصباح ، في احد الكتب ، العبارة

التالية : « يا لها من سعادة يغنمها المرء عندما يدرك كم هو حقير هذا العالم ! وكم يكون الانسان ضعيفاً اذا لم يحتقر العالم بقدر ما يستحق الاحتقار » . من كتب هذا ؟ « فنيلون »[1] الملقب بال « حنون » ، والمشبّه بالبجعة لرقته ودماثته . (انظري الجزء الخامس من تأملاته) .

وهناك ما هو اهم بكثير من قول « فنيلون » ، فيسوع المسيح ، امام الموت ، صلّى لاجل جلّاديه ، ورفض الصلاة لاجل العالم . قال : « لست اسأل من اجل العالم ، بل من اجل الذين اعطيتني لانهم لك » . (راجعي انجيل يوحنا ، الاصحاح السابع عشر ، الآية التاسعة) . يا له من كلام صاعق عظيم ! وكم يملأ نفسي ارتياحاً !

والآن ، يا آنستي ، كوني من الذين لا يسأل لاجلهم يسوع المسيح .

ان مقاومة الروح القدس خطيئة فظيعة تحدث في نفسي اعمق الاثر . ففي هذه الساعة بالذات ، قد يكون هناك دير ينتظرك ، ويود لو تذوبين فيه قلباً وجسداً ، كما اذوب انا قلباً وجسداً في مؤلفاتي . ان هذا الدير يتوق اليك توق الارض العطشى الى طل الفجر . اعتقد انك مخلوقة حية . اما ان تكون فيك حياة روحية ، فهذا ما لا اعلمه ، اذ ليس لي من الوسائل ما يمكنني من الاطلاع على ما فيك . ربما لا يكون فيك شيء . انك لفي اشد الحاجة الى معرفة قيمة اعمالك وحركاتك . ولا يستطيع ايضاح هذا الامر إلا احد الكهنة . فالمرشد الصالح هو الاساس الوحيد للصرح الذي يجب عليك بناؤه . اذهبي ، اذاً ، الى الاب م ... في ل ... بدير ... اني اعرف هذا الكاهن ، فمن دواعي فخره واعتزازه انه كان

---

١ ـ اسقف فرنسي عاش في القرن السابع عشر . له مؤلفات قيمة في التربية والفلسفة اللاهوتية . اعتنق مذهب الـ « كيَاتيسم » وهو عقيدة صوفية تقول بان محبة الله الخالصة كافية وحدها للخلاص، وهي عقيدة قالت بها مدام دي غويّون . وقد وقع خلاف بسبب هذه العقيدة بين « فنيلون » وزميله « بوسويه » ، فرفعت القضية الى روما ، فحكمت فيها لمصلحة بوسويه ، فخضع فنيلون لحكمها . وانتهت المشكلة عند هذا الحد .

اكبر خاطيء في العالم؛ ومن البديهي ان يفهم خطاياكِ لانه يدرك ماهيتها. وسيجعلك في حال من التواضع والانسحاق يصبح معها الاعتراف بخطاياك شهياً، لذيذاً، كألسنة اللهيب للشهداء الابرار. لن يعمل لحلول النعمة عليك، لافتراضه انها موجودة فيك، فيقتصر عمله على تتبع هذه النعمة بكل تواضع وكل حزم، بعد ان يكون قد اختبرها بكل عناية وحذر. لم يعد الناس يترهبون اليوم غير مبالين، كما كانوا يفعلون من قبل (وكما يتزوجون حالياً)؛ ولا تغالي الكنيسة، مهما تصعبت، للتثبت من صحة الدعوة في نفوس طالبي الحياة الرهبانية. لا يجوز ان تكوني راهبة بمشيئة الناس، بل بمشيئة الله.

أتصلين لاجل ابيك؟ ليتك تصلين لاجل نفسك! أنسيت كم كان الانجيل صريحاً في هذا الشأن؟ أفضل لكِ ان تقرئي الانجيل، وان تفهميه، من ان تحضري القداس وتتناولي القربان، الخ... فالمبالغات اشد خطراً من الضلال لانها تغرب احياناً عن الانتباه. ويجب ان تكون التقوى بدون حركات كالألم. واتجرأ على القول بان التقوى يجب ان تكون صامتة. ألم يكن صمت موسى امام الله اعظم صيحة من صيحات الصلاة؟

تذكري دائماً، مهما كتبتُ اليك، ان نفسي خالية من الايمان المسيحي. ان الايمان ظلام، وكثيراً ما ترد هذه العبارة في كتابات رجال الدين؛ اما انا فكلي نور ساطع. ضعي نصب عينيك هذه الحقيقة: لستُ مؤمناً، ولست بحاجة الى الايمان، واعتقد اني لن اؤمن ابداً، وليس لدي اقل رغبة في ان اؤمن. «هناك طريق تبدو جيدة احياناً وتقود الى جهنم»، وقد اكون هذه الطريق. بالخيال، وبالفكر، وبالأمل، حكمت على نفسي مائة الف مرة بالهلاك الأبدي. وبالعمل حكمت على نفسي مائة الف مرة ايضاً بالهلاك، لاني اتبعت دائماً وبدون تحفظ شهواتي ونزواتي الجسدية. وهذا جانب من مجدي. لقد ساعدت نساء كثيرات على السير في طريق الهلاك، فلا بأس اذا ساعدت الآن واحدة منهن على

السير في الصراط المستقيم . اني نفس ممتلئة نعمة ، والنفوس الممتلئة نعمة تتواصل وتترابط كالنعمة نفسها التي تتخذ جميع الاشكال .

اخاطبك بلغة مبهمة بالنسبة اليك في قسمها الأكبر ، فانتقي منها ما تستطيعين انتقاءه ، فهذا افضل من ان اتدنى للوصول اليك .

اصفحي ، يا آنستي ، عن جرأتي وصراحتي .

كوستال

من

اندريه هاكبو
سان ليونار

الى

بيار كوستال
باريس

٢٤ كانون الاول ١٩٢٦

لم تكتب اليّ طوال ثلاثة اسابيع . واخيراً تسلمت منك هذه البطاقة البريدية وعليها عشر كلمات ، لا اكثر ، وهي تحمل اليّ تمنياتك ، وتسألني عن احوالي واخباري . وما عساها تكون احوالي ؟ لا استطيع ان اروي لك الى الأبد اني شقية . يجب ان اخرج من هذه الأزمة التي تقتلني . يوم اتيقن بالبراهين الدامغة ان طريقي مقطوعة من ناحية الحب ، وليس هذا اليوم ببعيد ، سأقلع عن العناد في طلب ما احب . ولكن المريع في حالتي الآن اني ما ازال متشبثة بالأمل . اني اتطلع الى ما سيبقى لي في زهدي الاختياري ، وفي حياتي المرتفعة الطاهرة المتنساف . واجدني من الجيل الذي كان ضحية القدر ، من جيل البنات اللواتي قضت الحرب ، قاتلة الفتيان ، على القسم الاكبر من حظهن في الحب . نحن الفتيات ارامل ايضاً . اما الغرام العابر والمغامرة ، فلم ابلغ بعد من النضج ما يسمح لي بالانغماس فيهما .

يبدو لي ان هذا الزهد قد يفتح في وجهي آفاقاً واسعة ، ويجعلني اقول في نفسي : « انتهى كل شيء ، وها انا مغلوبة على امري . فكل ما

يأتيني بعد اليوم كسبٌ غير منتظر ، وقد اكون وجدت ضالتي لاني لا ابحث عن شيء » . وكثيراً ما لمست في نفسي هذا النوع من الانتعاش لدى بلوغي اقسى ذروة من التجارب التي اعانيها . ففي مثل هذه الحال، تنتابني انتفاضة من الأنفة الغضوب ، فيها شيء من الجفاف ، وشيء من التجرد ونكران الذات ، ومن العتو المتمرد على مشيئة القدر ، فأخاطب نفسي قائلة : « وبعد ، فليكن ما هو مقدّر ، فيبقى لي : « انا » .

وطبعاً ، يبقى لي « انت » ايضاً . فاجد في ارتباكي وحيرتي ويأسي نوعاً من الهدوء والسلام ، واقول : « لا يستطيع ولا يريد ان يكون هو سعادتي . ولكنه حقيقتي . لا يريد ان احبه ، وقد اغيظه واخسره اذا احببته . الا اني اجد السلام الاكبر في افلاس حياتي عندما افكر بان كثيرات من النساء لن يجدن ابداً الرجل الذي يرتعش له قلبهن ؛ واذا احببن احداً مكرهات ، فلتلبية حاجةِ الحب الملحّة في اجسادهنّ . ومن حسن حظي اني اكتشفت هذه الحقيقة : «أن في الدنيا رجُلاً يفعم وجودي بالسعادة ، ويغمره بالهناء ، وكنت استطيع ان احبه بكل قواي ، فلا يجوز لي ان ابحث عن مصير النساء الوحيدات المضنك الرهيب ولا ان انتظره » . اجل ، ان هذا الحديث بيني وبين نفسي يريحني ويسبغ عليّ فيضاً من الطمأنينة . فالشعور باني «بلغت الهدف» و « حصلت على ما اريد » ونجوت من ذلك العذاب المبهم ، اللامتناهي ، ومن شهوات الحب الفوضوية ... وباني زهدت بكنز معروف ، واضح المعالم ، ولم اتنازل عن احتمالات عديدة ومجهولة ... هذا الشعور ، في اعتقادي ، يكاد يكون نوعاً من الامتلاك ، او امتلاكاً حقيقياً ، اذا شئت .

هوذا عيد الميلاد ! انه هاوية سحيقة الغور من السأم والتفاهة في جوار الذين اراني مكرهة على تمضيته عندهم . ويا لها من ايام ممطرة كئيبة ، كلها حنين وقلق ! لماذا تكون هذه الاشياء المنكدة ، الممضة ، راكدة لا تؤلم ولا تؤذي ، ثم تهبُّ كلها دفعة واحدة في بعض الايام ، وتضرب

حصارها البغيض ؟ ما اقسى هجومها وما اشرسه ! اني افكر بعيد الميلاد لدى الذين يتبادلون الحب ، الميـلاد المعبود في رواية «فرتر» . كم انا آسفة لاني لم أعد قادرة على وضع حذائي الى جانب الموقد ! فلو قدرت لوضعت اكثر من حذاء ، لان هنـاك اربعة اشيـاء اشتهي الحصول عليهـا حتى الجنون ، وهي : زوج (مع الحب) ، وفونوغراف ، وكتـاب يحدثني عن كوزما فاغنر ، وقبعة صغيرة مزينة بريشة ... قبعة لا اصفهـا لك لئلا تهزأ بي .

أرجو ان يكون العام الجديد ١٩٢٧ سعيداً يحمل اليك الهناء . اني احبك من كل قلبي ، يا كوستال . ولو كانت السعادة تُعطى كحبة ألماس ، لمرّت بسرعة من يدي الى يدك . اجدد لك التعبير عن اخلاصي المطلق الذي لا تنال منه التجارب . ولكن متى ، متى تريد استخدامه ؟

ا . هـ

(بقيت هذه الرسالة بلا جواب)

نحن الآن في سان ليونار . الحرارة ٧ درجـات مئوية تحت الصفر . المياه تتجلـّد ليلاً في منزل هاكبو على الرغم من النار المشتعلة في الموقد.

واول ما يسترعي الانتباه في غرفة اندريه هو انك حين تدخلها تشم رائحة خاصة دعيت على سبيل التأدب : «رائحة الاماكن المغلقة» ، مع ان « الاغلاق » لا يسهم الا جزئياً في بعث هذه الرائحـة . ان الغرف التي تتعرى فيها بنات العيال الميسورة ، والى جانب كل منها حمامها الخاص ، تنبعث منها رائحة الأسد ، خصوصاً اذا كانت صاحباتها من اللواتي يخضعن في المدرسة للفحص الطبي . اما في غرفـة اندريـه فالاثاث ، والأقمشة ، والاشياء الاخرى عمرها عشرون سنة ، وفي تهرّئها ما يدل على قدمها ، فمنذ عشرين سنة لم تشتر اسرة هاكبو شيئاً يستحق الذكر . ليس فيها من جميل الا بعض الصحاف التي توضع فيها الكؤوس ، ولوحات شهيرة تدل على الذوق ، الا انه ذوق غريب عما يعجب النساء ، فيـه نزوع واضح الى المجد والعظمة .

وفي الخارج يسمع أحيانـاً صوت البوق . وكم خفق لهذا البوق قلب اندريه ! فعلى الرغم من شدة البرد كانت تشق النافذة ، فترى على باب البيت المقابل وجداره نورَ مصباح الدرّاجة التي يركبها ساعي البريـد . وتتحرك الدرّاجة ، فتدنو . وكما يفعل القرويون لدى رؤيتهم نيزكاً يهوي ، تطلق اندريه احدى امنياتها هاتفة : «يا الهي ، اجعل الدراجة تقف !» ولكن مصباح الدرّاجة يبتعد . وهناك أيضاً ذلك الرجل – كوستال – الذي تناديه ، فيمرُّ ولا يتوقف .

كانت في عزلة عن الانسانية ، فاذا بالبرد يعزلها اكثر فاكثر . فالجو المثلج يجمّد تموجات الاصوات ، فتصبح الحياة كلها بطيئة ، منطوية على نفسها . تتوقف القطارات عن السير ، ويصل البريد متأخراً يوماً كاملاً . ولكن هذا لا يهم اندريه ، لانها لا تتسلم رسائل من كوستال . ومن حسن حظها انها ستسافر في شباط لتمضية شهر في باريس .

كانت تتألم دائماً لشعورها بانها لا تجد لها رفيقاً ، ولا تدري الى من توجّه اخلاصها ، ولا ايّ قضية تخدم . منذ نعومة اظفارها ، ظهرت عليها اعراض المرض الذي سماه كوستال باسلوبه الساخر «ليتريت اندريه» وهو يعني : « التهاب ميلها الى كتابة الرسائل » كما تقول : « مينتجيت » اي التهاب السحايا . وفي ذلك الحين كانت تكتب رسائل الى نفسها كذلك الشاعر الانكليزي الذي كان في طريقه الى الدردنيل ، خلال الحرب العالمية الاخيرة ، فراح يستأجر ولداً في كل مرفأ ليلوح له بالمنديل مودعاً عندما تقلع السفينة . ويعتقد كوستال ان هذا العمل يثير النفور والاشمئزاز ، وان الرجل القوي لا يستطيع مصافحة امرىء مائع الاحساس الى هذا الحد .

ثم ان اندريه كاتبت ، مدة طويلة ، بعض الذين يعلنون في الصحف عن رغبتهم في مراسلة الفتيات والنساء . فكانت هذه التسلية ، بالنسبة اليها ، بمثابة الاتصال بما يشبه الرجل ، كما ان هناك نساء يعطفن على الكلاب فيجدن في عملهن ما يشبه العطف على الولد الذي ضنّ به القدر . وتوقفت هذه التسلية عندما بدأت اندريه تراسل كوستال .

كانت تسوّد له صفحات وصفحات طوال ساعات متوالية ، ولا تتوقف عن الكتابة الا اذا تشنجت اصابعها من العياء . لم تكن من اولئك الفتيات اللواتي يتعثرن في التعبير ، فيضعن القلم بين اسنانهن مفكرات ، بل كانت تتدفق كأنها الينبوع . وكالقسم الاكبر من النساء ، كانت تكتب يومياتها بشكل رسائل ، فتملأ بها صفحات غير مرقمة ومن غير هامش ، فيها كلمات ممحوّة ، وكلمات مصحّحة ، واسطر اضافية في كل اتجاه ،

وحتى في خطوط متقاطعة مع السطور الاخرى . وعندما كان كوستال يتسلم هذه الرسائل ، كان بروزها متنهداً ، ويقدر عدد اوراقها ، فيصاب بصدمة قاسية ، لأنه كان ، كأكثر الرجال ، يتضايق من قراءة الرسائل الطويلة . وفي اغلب الاحيان كان الغلاف مشدّداً بالاوراق المصمغة التي تنتزع من حول طوابع البريد ، لئلّا يتمزق من كثرة الاوراق المحشورة فيه . وفي هذا الغلاف كان كوستال يجد ، مع الرسالة ، احدى صور اندريه ، فيمزقها بنزق دون ان يلقي عليها نظرة ، ثم يلقيها في سلة المهملات . ولو ان الفتاة رأته يفعل هذا ، لكانت الطعنة نجلاء في صميمها !

كان من المحتمل ان تدرك الحقيقة في لحظة خاطفة ، اللهم إلا اذا كانت غير قابلة الشفاء ، وقد طاب لها ان تفكر قائلة في نفسها : « لا يسترسل المرء لمثل هذا النزق إلا اذا كان مغرماً ... ما هو سبب نقمته عليّ اليوم ؟ »

وفي بعض الاحيان ، كانت تعطر رسائلها برائحة مزعجة من النوع المبتذل ، فيضطر كوستال الى نشرها في الخارج طيلة الليل كما ينشر الغسيل ، ولكن هذا النشر لم يكن كافياً للذهاب برائحتها ، فكان عطرها يفوح طوال ثمانية ايام ويفسد هواء المكتب . واذا تذمر كوستال ، اجابته شاكية : « أتتأثر الصداقة الوطيدة بمثل هذه التوافه ؟ » اجل ، كانت عاجزة عن ان تدرك :

١ً — ان الصداقة لا وجود لها .

٢ً — ان الصداقة لو وجدت لتأثرت حتماً ، لأن البوادر التي تدل على نوع الشخص وعلى ذهنيته ولبابه ليست من التوافه . ولم تكن هذه البوادر مقتصرة على رائحة بعض الرسائل ، بل كانت تظهر ايضاً في حجم الاوراق التي كانت اندريه تستعملها لكتابة رسائلها ، وهي اوراق كبيرة مزعجة للغاية . ولما كان كوستال يحتفظ بها أخذ يتضايق من بروز اطرافها بين الاوراق المرتبة في اضباراته . وعبثاً حاول اقناعها بالكتابة

على اوراق اصغر حجماً . وكثيراً ما كان ينتزع هذه الرسائل ويمزقها ، ثم يرميها عندما يرى اطرافها ممزقة قبيحة .

ومن حين الى آخر ، كان يتصدق بجواب ، بكلمات صغيرة لا تقرأ إلا بصعوبة لشدة ما كان يسرع في الكتابة لينتهي من هذه السخرة سريعاً . وكانت كلماته المتقطعة تعبر عما يجول بخاطره في الساعة الحاضرة ، بدون اقل اهتمام او تفكير ، فيتعمد دائماً وخز الفتاة ، وتنكيدها ، ومضايقتها ، لانه كان بطبيعته متلاعب ، قاسي المزح ... اما هي فكانت تظن ان الرجل لا يضايق عمداً إلا من يحب . وفي فترة صفائها الذهني كانت تجد في تلك الكلمات دليلاً على حسن النية ، وتظن ان هذا الدليل صادق لا مشاحة فيه .

في بادىء الامر كانت ترسل اليه هدايا صغيرة من الازهار والفواكه ، فيقبلها بدافع الكسل او على سبيل الحسنة ، ويقول في نفسه : « قد اجرح شعورها اذا رفضت هذه الهدايا » . ولما ارسلت اليه بزّ سيكارة من النوع الثمين ، أعاده اليها مشفوعاً برسالة اعتذار لطيفة . فانقطعت سنة كاملة عن ارسال الهدايا اليه ، ثم اعادت الكرة ، وراحت ترسل قوارير عطور واكياس خزامى ، فكتب اليها يقول :

« آنستي العزيزة ! لن ارد اليك هداياك الصغيرة ، فكلما تسلمت واحدة منها فساعطيها فوراً الى احدى عشيقاتي » . وهذا ما كان يفعله فارعوت اندريه ، وكفت نهائياً عن ارسال الهدايا .

والدواء الثاني الذي عالجت اندريه به سأمها كان القراءة ، قراءة كل ما يقع بين يديها من الكتب ، المشتراة او المستعارة ، او المرسلة من المكتبات على سبيل التأجير . كانت تقرأ حتى تتعب عيناها ويستولي عليها العياء . إلا انها كانت تختار الكتب القيمة في اغلب الاحيان ، وتخربش ، على هوامشها وعلى الصفحات البيض منها ، ما يجول في خاطرها من التعليقات والآراء .

كان عملها ، اذاً ، مراسلة وقراءة . وماذا بعد ؟ كانت تتلقى نشرات دعاية من وكالات السفر ، وفهارس كتب نادرة ، ومخطوطات ، واسطوانات غنائية ، ولوائح بمحتويات المتاجر الكبيرة ، فتكب عليها ، وتتصفحها دون ملل ، وتضع علامات الى جانب اسماء الاشياء التي تود الحصول عليها ، بدون ان تساورها اقل خيبة لعجزها عن شراء ما تريد . ولم تكن لتتأثر ، او لتثور ، لأن ملايين الاغبياء ، من رجال ونساء ، كانوا يتمتعون بنتاج الفكر والفن ، وبوسائل البذخ والترف دون اقل استحقاق ، بفضل ما يملكون من المال الحرام ، بينما هي محرومة هذه المسرات التي تتوق اليها نفسها .

حاولت ان تكتب ، لكنها ادركت انها تفتقر الى المواهب الادبية . وفي بعض الاحيان كان يضيق صدرها فتخرج الى الحقول ، وتقوم فيها بجولة واسعة ، مع انها لم تكن تحب الطبيعة ، ولاسيا طبيعة سان ليونار .

وكانت تمرّ بها ساعات تشعر خلالها بان الحياة لا تطاق ، لانها لم تكن سعيدة ، لكنها لم تكن تحس بانها شقية . فاذا قرأت كتاباً قيماً غنمت منه متعة روحية عميقة ، وقالت في نفسها : « اني لاشفق على النساء المحرومات هذه اللذة لاضطرارهن الى العمل ثماني ساعات يومياً في احدى الوظائف ! » واذا كان الكتاب تافهاً ، سئمته واستسلمت للكآبة دون تحفظ . ومما كان يثير حفيظتها حتى الجنون ان تجد في حياتها متسعاً رحباً من الوقت ، ولا تدري كيف تملأه عملاً وانتاجاً ، لانها تكره الاشغال اليدوية المادية ، وتضن بالوقت ان يهدر في سبيلها . ولما كانت امها في قيد الحياة ، كانت ترفض دائماً مساعدتها في الاعمال المنزلية ، وفي رتق الثياب المهترئة ، وطبخ الحلويات ، بينما هي تستطيع صرف وقتها لتثقيف نفسها ، وللبحث عن كاتب مبدع لم تعرفه بعد ، حتى ولو اضطرها الامر الى مطالعة معجم « لاروس » . كانت تحتاج الى ألم نفساني عميق لتنحدر من ذروتها وترتمي في الاعمال اليدوية ، فتبادر

الى رتق الجوارب كلما احست بالكآبة تستولي عليها وتكاد تفقدها صوابها . وقد اصبح هذا العمل في حياتها معادلة حسابية ، فالآلام المبرحة تساوي رتق الجوارب المهترئة ، حتى انها كانت ترتعد فرقاً كلما رأت بيضة الرتق الخشبية في اوقات الهدوء والارتياح . وبعد وفاة امها اضطرت الى القيام بالاعمال المنزلية ، إلا انها كانت تعمل بنزق وفراغ صبر ، وتجد في هذه المهمة ما لا تستطيع القبول به .

قال لها كوستال يوماً :

– لو شاء سوء الطالع ان تكون لي ابنة لكنت فريسة القلق والاضطراب حتى أضمن لها حياة مستقرة ، خصوصاً اذا كانت لا تملك شيئاً من المال . فالأهل يفتخرون بانجاب الولد ، ويتغنون به كلما سنحت الفرصة ، وعندما يأتي دور تربيته بشيء من الذكاء ، يتقاعسون تاركين له الحبل على الغارب . واني لأدرك ما يعانيه الاهل المتزنون من المتاعب والمشقات لضمان استقرار ابنتهم ، اذ لا بد لهم من اللجوء الى الدسائس ، والى اقامة الحفلات والاستقبالات ، لبلوغ هذه الغاية ، لان كل ما يتعلق بالزواج من بعيد او من قريب هو ، ولا ريب ، أتفه واسخف ما في الحياة . وليس من المستحسن ان نتورط في مثل هذه الصعاب ، ولكن ما حيلتنا بالناس ما داموا ينجبون اولاداً ، ثم لا يعرفون ما يفعلون بهم ؟ ان الولادة تستأثر بكل ما لديهم من العناية ، والوجدان ، والجد ؛ اما التربية فتجري بخفة ، واستهتار ، وغباء مطبق . والمصيبة الكبرى في الاهل الفقراء الذين لا يزوّجون ابنتهم ، فهم ينتظرون وينتظرون لا ادري ماذا ... ينتظرون حتى تصبح ابنتهم عانساً لا تصلح لشيء ، ولا تسترعي انتباه احد . اعرف اهلاً مجرمين ، كانت ابنتهم صالحة للزواج ، فأبقوها عزباء لتظل الى جانبهم . اني اروي لك جميع هذه الحكايات لافهمك ان عليك مهمة واحدة هي ان تجدي عملاً في باريس لا يستغرق كل وقتك اولاً ، ثم يضمن لك سد حاجاتك المادية . ومتى تمّ

لك ذلك يجب ان توجهي اهتمامك الى مخالطة الناس ، الى التعرف باكبر عدد منهم ... وبعبارة اخرى ، الى البحث عن زوج . فهدفك الاول ، اذاً ، في الوقت الحاضر ، ان تنسجي حولك اوسع شبكة من العلاقات .

ولكن اندريه استاءت من هذه النصائح ، فكانت كاولئك الفنانين المزيفين الذين ينتقدون البورجوازيين وهم اشد الناس تعلقاً بالبورجوازية . « شبكة علاقات » ؟ هل هذه نصيحة تُسدى الى فتاة سامية القدر عظيمة الشأن مثلها ؟ يا للسخف ، ويا للوقاحة !

ما كادت اندريه تسمع هذا الكلام حتى انتفضت وقالت لكوستال :

— أأنت يا من تحتقر العالم ، انت يا من لا تجد المتعة الكبرى إلا في حياة الانفراد ، تسدي اليّ بهذه النصيحة ؟ العلاقات التي تحدثني عنها صالحة لي انا طبعاً !... فشكراً لك !

قال بشيء من القساوة والحزم :

— اني اعيش في العزلة لاني ناضلت ، واكتسبت هذا الحق ، ودفعت ثمنه . فيوم كنت في الخامسة والعشرين من العمر ، اتصلت بالناس انا ايضاً . ولاني قمت آنذاك باعمال ازعجتني ، استطيع اليوم ان لا اعمل إلّا ما يعجبني . ليست المسألة مقتصرة على البحث لمعرفة ما اذا كان اتصالك بالناس يسرك او لا يسرك ، انما هي وثيقة العلاقة بحياتك ، بمستقبلك ، لمعرفة ما اذا كنت تنوين البقاء عانساً في سان ليونار ، وانت خاوية الوفاض . اذا كان هذا المستقبل لا يعجبك فمن الضروري ان تتزوجي . ولكي تتزوجي يجب ان تستعرضي الرجال الموافقين كما تُستعرض الخيول في السوق الموسمية . وهذا لا يتسنى لك إلا في باريس . فاستقري هنا في عمل ما . واذا شئت فاني استطيع مُساعدتك على ايجاد هذا العمل .

ولما بلغ كوستال هذا الحد من كلامه قال في نفسه : « ستبقى هذه الفتاة وقراً على كاهلي » . ولكنه ، على الرغم من تخوفه ، امعن في محاولته

الانسانية الخيرية ، فلم يكتفِ بالوعد « بالمساعدة لايجاد العمل » ، بل تورط في التعهّد ، فقال للفتاة : « سأعرّفك الى الناس » . فقبلت .

لو لم تكن تحبه لاتخذها سكرتيرة له ، لان سكرتيرته كانت قد تركته في تلك الاثناء ... ولكن ، هل يستطيع المرء استخدام امرأة تحبه ؟...

وكان لكوستال صديق يدعى « ارمان بايلس » ، وهو رجل شهم ، مكتمل الصفات ، ورب عائلة ، يشغل وظيفة امين عام في احدى شركات الطيران ، فحصل منه على وظيفة ضاربة على الآلة الكاتبة لاندريه ، فجاءت الى باريس .

ولكن الفتاة تضايقت لما رأت عملها الجديد يعرقل حياتها الداخلية الحافلة بالعواطف والتأملات ، فما كانت تشتغل نصف ساعة دون ان ترسل التنهّدات العميقة معبرة عن سأمها ، حتى ضايقت رئيسها المباشر ، واتعبته . كانت تذهب الى المغسل فتغيب عشرين دقيقة وهي تقرأ « نيتشه »[1] ، وتصل الى المكتب متأخرة ، وتذهب قبل الاوان ، وفي اليوم الرابع من وجودها في العمل اخذت تقرأ كتاباً للشاعر بول فاليري[2]، وقد وضعته في جارورها المفتوح جزئياً لتقرأ دون ان ينتبه اليها احد... وغرقت في الشعر مهملةً عملها ، ومغتنمةً فرصة ابتعاد رئيسها عنها . ولكن هذا الرئيس لاحظ انها كانت تغلق جارورها بجزع كلما دنا منها ، او نظر اليها ، وما لبث ان اكتشف الكتاب وعرف الحقيقة ...

---

١ ـ فيلسوف الماني عاش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، قال بوجوب تقوية الارادة لبلوغ التفوّق المطلق ، وشرح فلسفته في كتابه الشهير : « هكذا تكلم زرادشت » ، وهي فلسفة القوة التي حاول النازيون تطبيقها .

٢ كاتب وشاعر فرنسي توفي عام ١٩٤٥ ، اشتهر بالشعر الرمزي الذي وصف به قلق الفكر الواعي . كان عضواً في الاكاديمية الفرنسية . ومن اشهر مؤلفاته : « المقبرة البحرية » ، و « المفاتن » .

وبرغم اعتقادها انها كانت تجاهد جهاد الابطال لتكبت عواطفها ، كانت توجه الى كوستال رسالة برقية كل ثلاثة ايام ، لتقول له : « ألا تأتي الاحد لحضور الحفلة الموسيقية التي تحييها الجوقة الاسبانية ؟ » او : « ساذهب السبت الى معرض اللوحات في المكتبة الوطنية ... فهل تستطيع صحبتي اليه ؟ »

تضايق كوستال من هذه الملاحقة حتى كاد يثور ، فأجاب على الرسائل الاولى معتذراً ، ثم انقطع عن الرد كلياً ، وراح يطرح وريقات اندريه في سلّة المهملات دون ان يفضها ، او ان يلقي عليها نظرة . ولا بد من الملاحظة انه حنث بوعده ، فلم يعمل شيئاً ليعرّفها الى الناس ، لانه اعتبر انه قام بعمل بطولي بايجاد عمل لها في باريس ... امّا ان يصحبها الى المحافل والاجتماعات ، فهذا ما كان يفضّل عليه الموت . وجملة القول ان كلا منهما كان يحسب نفسه بطلاً ، فاصبح من البديهي ان تتوتر العلاقات بينهما .

وفي نهاية الشهر ، لما اطّلع بايلس على تصرفات اندريه ، صرفها من العمل واعادها الى حريتها العزيزة عليها ، فوافق الجميع على تدبيره هذا بما فيهم اندريه نفسها . وكيف تستطيع الاقامة في باريس وهي سجينة المكتب ؟ كيف ترى ما تحب وما تشتهي في متناول يدها ولا تقوى على التمتع به ؟ ان ريفها البعيد اوفق لها وافضل ، فاذا تألمت هناك كان ألمها بدون لهفة وتحرّق . وعلى هذا الامل ، احست بارتياح عميق عندما ركبت القطار عائدة الى سان ليونار .

مئتان من الفريسيين كانوا محتشدين في قاعة الانتظار بالمركز الطبي في انتظار ان يفحصهم الطبيب ، ويقرر هلّا زالوا مصابين بعاهاتهم وامراضهم فتواصل الدولة مساعدتهم ، ام عادت اليهم الصحة والعافية فتقطع عنهم الاعانة . كانوا من الطبقة المتوسطة ، والمحاربين القدامى ، لا من البورجوازيين، ولا من الشعب الكادح ، بل من تلك الفئة التي يتألف منها السواد الاعظم في فرنسا ، بطابعه الخاص ، ومشكلاتـه العديـدة ، ووجوهه الشديدة الشحوب . انها وجوه قبيحة بالنسبة الى وجوه الباريسيين .

جمهور قلق ، يروح فيه الرجـال ويجيئون ، ويتسللون بين الحشد متدافعين بالمناكب ، كما تعمل الثيران في القطيع عندما تحس بدنو الانسان منها . وكان العُرْجُ الذين بُترت احدى ساقيهم يصرون على الوقوف ويرفضون الجلوس . هذا ينتفض متطـاولاً كلمـا ذُكر اسم ونودي على صاحبه ، وذاك يسأل عن مكان المراحيض ، لأن تفكيره بان الطلب الذي قدمه لزيادة معاشه التقاعدي سيُرفض ، سبّب له وعكة في الامعـاء . وكان هناك ايضاً بعض المساكين الهادئين الذين ينتظرون صـابرين ، وهم يطالعون احدى الصحف . أفليس من الشجاعة ان يتصفح أحدهم في هذا الجمهور جريدة «الاكسيون فرانسيز» ؟ اذا لم يُخفّض معاش هذا الرجل تكون الحكومة غافلة او غير موجودة . ثم هنـاك وجوه يفيض منهـا الألم ، هي وجوه كبار الجرحى الذين اتوا مع «سيداتهم» ، والى جانبهم بورجوازي يزين عروة سترتـه بشريط احمر ، لم يجلس مع العامـة على المقاعد الخشبية ، بل انتحى مكاناً منفرداً ، وجلس على كرسي وحيد

كان هناك ليبرهن عن ان مكانته الاجتماعيـة ووقاره لا يُمسّان في هذه التجربة القاسية التي يجتازها . ولما دخل كوستال خلع قفازيه ووضعهما في جيبه كي لا يكون وحده مكسو اليدين بين تلك الجماعة .

وكان كوستال يتخيل اولئك الناس في معاطفهم العسكرية فيحبهم . اما اذا رآهم في ثيابهم المدنية فكان يميل الى اساءة الظن بهم . يرى ، مثلاً ، هذا الرجل الضخم الجثة ، فيقول في نفسه – وهو العالم النفساني المحترف : كيف يكون هذا الرجل مريضاً وفي مثـل هذه الضخامـة ؟ وهذا الآخر الذي يتجلى النفاق الوقح في نظراته !... من المؤكد انه في عافية تامة ، لا تشكو صحته من شيء على الاطلاق ... ولا يـكاد العالم النفساني يبلغ هذا الحد من تقديره حتى يستدير صاحب النظرات المنافقة ، فاذا بكمه فارغ لان ذراعه مبتورة .

وتجتاح هذا الجمهور موجة من الاحترام ، والامل ، والخوف ، وتتنبه الانظار ، كلما مرّ طبيب . ولكن هذا التنبه كان ينطوي على معنى الذل. فالبعض كانوا يحيّون الطبيب ليذكروه بوجودهم ، مع انه لم يقدّر له ان رأى لهم وجهـاً في حياتـه . اما هو فكان يمر عـالي الرأس ، مشرع السيكارة ، لا حباً بالتدخين – وهو غير مدمن على التبغ – بل لان السيكارة عنوان صولته وسلطانه : فالتدخين ممنوع في هذا المكان . وفي اثناء مروره كان يمد يده ، او بالحري يتركها لاثنين او ثلاثة من المحيين ، دون ان يتوقـف ، ودون ان يلتفت . ولكي يشق طريقـه يقبض على اذرعة الرجال بقوة مسيطرة لا تخلو من اللطف ، كما يمسك الراعي بظهور الخراف عندما يجتـاز القطيـع . امـا هم فكانوا ينتفضون كأنهم يريدون الاحتجاج او المشاجرة ، عندما يحسون بيد تقبض على اذرعتهم من وراء ، ولا يعرفون صاحبها ، ولكن وجوههم كانت تشرق بالابتهـاج عندمـا يلتفتون ويرون الطبيب : فالرجل القادر لمسهم ، هم المساكين ، غير الجديرين بهذه النعمة ! حقاً ان قضيتهم بين يدي رجل طيب عظيم الاحسان .

واذا توقف الطبيب ليخاطب احدهم ، تجمعوا ، ثلاثة ، اربعة ، ثم ستة ، ثم عشرة ، وتحلّقوا حوله دون حيـاء ، ينصتون الى اقواله ، محاولين ان يصطادوا ، على الطائر ، طريقة ينالون بها شيئاً ، حتى ولو اقتصر هذا الشيء على تقريب دورهم في المعاينة ، واذا بهم متواضعون حتى الذل مبالغون حتى الزلفى في اكرام اصحـاب المراتب الرفيعة ، مستعدون لقبول كل شيء في صغارتهم وهوانهم ... ان هذا لمؤلم حقاً .

وكانت ثمة لافتة تنـذر بانه : « محظور كلياً على الاطباء المعاينين ان يتقاضوا اقل اجر في مبنى المركز الطبي » . فلماذا ، ايتها الادارة ، تريدين توجيه الافكار الى ان في هذه الاجور شيئاً مشبوهاً ؟ نعلم جميعاً ان كل ما يتعلق بالمعاشات التقاعدية نقي صافٍ كالبلور .

وما اجمل حركات بعض الوجوه ، عندما يغادر احد الاطبـاء قاعة المعاينة ، من ناحية المخرج . هوذا احدهم يغالب حياءه وتردده فيغلبهما ، فيهرول وراء الطبيب صوب الباب ، ويستوقفه في الخارج ليخاطبه ، وهو خفيض النظرات ، يتظاهر باللامبالاة ، كي لا يتنبّه الآخرون الى مناورته فيلحقوا به ويشتركوا معه في محادثة الطبيب .

وكان بعضهم يذهب ، فيأتي آخرون ، ويقول كلٌّ في نفسه انـه لن يرى نهاية هذه المحنة ، كأنه محتم عليه ان يكون آخر من يدخل قاعة المعاينة . انها لحالة شبيهة بما يجري في ايام الحرب .

وعلى ابواب قـاعات المعاينـة كان يقف من حين الى آخر موظف وينادي على المطلوبين ، فيجيبه : « حاضر ! » اولئك الذين استمروا في عيش المسكنة والشح ، وكانوا ابداً في « الدرجة الثانية » سواءً في الحياة العسكرية او المدنية .

وقام احد الموظفين ينادي بصوت جهوري ، فضحك بعضهم ، ومـا لبث الآخرون ان ادركوا بعد لأيٍ ان هذا الصياح مضحك ، فضحكوا بدورهم ، واجتـاحت الجميع موجة عارمـة من المزاح ، ثم ساد الهدوء

من جديد .

وكان البعض يحنون ظهورهم عندما يدخلون المختبر ، ليوهموا الطبيب بانهم مرضى اكثر مما هم بالحقيقة ، بينما يهتز آخرون متظاهرين بالنشاط والقوة ، لاعتقادهم ان المظهر « يعجب » اكثر . وكان العدد الاكبر يدخل الى غرف « اجهزة التنفس وجريان الدم » لانها تسمح اكثر من غيرها بالتمارض والتباس الحقيقة . وعندما يفتح الباب ، كان المختبر يبدو من الخارج في ضوء اخضر صافٍ كلون اعماق المياه او ليالي الشرق ، فتقع الانظار على بعض ما يجري فيه . هوذا احدهم ، مثلاً ، يحاول ان يقرأ ما يكتبه الطبيب فيه بعد المعاينة ، فيواصل الكلام ، يواصل الكذب في الفراغ ، دون فائدة ، بينما يكون الطبيب قد نهض وادار له ظهره دون اكتراث لما يقول . وهوذا آخر يتنفس بصعوبة كأنه يكاد يختنق من شدة الضيق ، والى جانبه ثالث عاد من المعاينة منهمكاً بلبس كلسونه ، فظهرت ورقة معلقة به . انه كلسون جديد ، اشتراه امس ليأتي به الى المعاينة ، فثيابه التحتانية لم تكن لائقة ... كانت نظرته المراوغة تدل على انه خدع الطبيب ، او انه توهم ذلك ، فاذا به يمشي مسبل الجفون ، كمن يسير الى تناول القربان ، خوفاً من ان يفضحه بريق الانتصار في عينيه .

وكان البعض يخرجون وقد حلّوا عقد رقابهم ، وفكوا ازرار قمصانهم ، فبدا المكان كأنه دائرة من دوائر البوليس العدلي .

ولما جاء كوستال الى المركز ، استأجر سيارة تكسي وحث السائق على الاسراع ، كأنه سيحاكم امام المجلس العرفي اذا وصل متأخراً ...

وكان بعض الخارجين يتناقشون تحت قبعاتهم ، بوجوههم الباريسية الحاملة طابع السلّ والمطالبة . إلا ان هؤلاء الثائرين كانوا مسالمين هادئين على الطريقة الفرنسية . فكأس من النبيذ الابيض تزيل استياءهم ، وتعيد الصفاء الى نفوسهم . واذا رأوا احد الاطباء يجتاز القاعة ، لزموا الصمت ،

وتجسدت في عيونهم من جديد معاني المسكنة والذل . انهم بحاجة اليه . والحاجة تخمد نار الثورة في الصدور . والنــاس لا يثورون إلا على من لا يرجون منه شيئاً .

وبقدر ما كانت الساعات تمر ، كان العياء يظهر على الجميع . فالعرج انفسهم لانوا ، وتنازلوا عن الوقوف ، فجلسوا ، وساد على ذلك القطيع البشري جو من الوجوم والخبال . وعندمــا نسائل نفوسنا كيف قبـل اولئك الناس ان يُدعوا الى المعاينة في الساعة الثامنــة والنصف ، وان ينتظروا دورهم حتى الظهر ، ندرك لمــاذا استمرت الحرب اربـع سنوات ونصف السنة .

وخرج من احدى القاعات اعمى تقوده فتاة في مقتبل العمر ، عيناها دعجاوان ، زرقــاوان تحت شعر حــالك السواد كعيون الاندلسيات ، وكانتــا مثيرتين فاتنتين كعينين سوداوين في وجه شقراء حقيقية . امــا جبهتها فكانت ضيقة تدل على السذاجة . وقد بدا عنقها مرتعشاً . وكانت بشرتها حنطية مصقولة كأنها من الرخام الحي . الا ان انفهــا كان يلمع قليلاً كبقعة الرخام التي لثمتها الشفاه كثيراً . وقد احنت رأسها جانبياً كأنها تعرض من عنقهــا المكان الصالح لطبع القبل . فمــا كاد كوستال يراها حتى خيّــل اليه ان الوقــار الذي اسبغــه على المركز الطــابع العسكري ، قــد تمزق وتبعثر في الفضاء ، فأحب اختــلاج نحرهــا ، واعجب بنقرتها المكسوة بالشعر ، وهو الذي مــا تعود ان يعجب إلا بالنقرة المكشوفة ، فكأنه اراد ان يكذب نفسه . وفتّنته حركتها في تلمس شعرها وترتيبه كالبنات المستخدمات ، فأدرك كم كان يحب الحركات المتشابهة التي تقوم بهــا جميع النساء . واسترعى انتباهه جسمهــا الممتلىء والاهيف معاً .

مرت بكوستــال ، فنشق رائحــة المسحب الذي تركته وراءها ، كما تنتشق الكلاب رائحة الطريدة بانوفها المرتعشة توقاً . ولمــا خرجت مع

الاعمى ، تبعها كوستال دون تردد قائلاً في نفسه انه سيكتب الى رئيس المركز الطبي معتذراً شارحاً سبب ذهابه باكذوبة لبقة .

وفي الخارج استعد ليعرض على الفتاة ورفيقها ان يدعو لهما سيارة تكسي ، ولكن ما كادا يصلان الى الطريق حتى مرت سيارة ، فاستوقفاها ، ثم صعدا اليها ، فانطلقت بهما ، وبقي كوستال وحيداً على الرصيف .

إلا انه لم يشعر بأقل خيبة ، بل داخله السرور البالغ ، فقال في نفسه : « هكذا استطيع الانصراف الى عملي بدون ان يزعجني احد » .



يوم وصلت اندريه الى باريس ، حضرت حفلة موسيقية . وكم كانت لهذه الساعات الموسيقية من الوزن والاهمية في ما مضى من حياتها الخالية من الحب . فقد كانت نشوة الانغام تغنيهما عن كل نشوة اخرى ، اذ يخيّل اليهما ان الوفاً من العشاق يأخذونها بين اذرعتهم ويضمونهما الى صدورهم ، ولكنها في نهاية الحفلة كانت تهبط من سمائها السابعة ، فاذا هي في احد شوارع باريس ، تواجه الوحشة والقلق من جديد !

وفي تلك الاثناء كانت تحس بانها لا تستطيع الاقتران برجل تافه . وها هي الآن تعاني ازمة نفسانية جديدة جعلتها تسأم حتى الموسيقى . فقد استمعت الى الحفلة الاخيرة وهي متخاذلة ، لامبالية . احبت هذه الموسيقى ، في ما مضى ، حباً جنونياً ، لانها لم تكن تجد شيئاً آخر تحبه ؛ اما الآن فقد بدت لها الانغام في منتهى التفاهة بالنسبة الى حضور كوستال المنتظر . جعلها كوستال تشمئز من كل شيء ، هدم حولها كل شيء ، دمّر كل ما كانت تتكىء عليه ، طوّقها بالفراغ التام ، كأنه يريد ان لا تحب سواه . لم تعد تأبه « لبيتهوفن »[1] ، لان كوستال اصبح « موسيقاها المهلكة » . ان « سمفونية الرعاة » التي سمعتها منذ قليل ، وسمعت ما فيها من محاكاة اغاريد الطيور ، بدت لها سقيمة حتى السخف ،

---

١ ـ مؤلف موسيقي الماني توفي عام ١٨٢٧ ، اشتهر بالخلق والابداع ، وألف ٣٢ « سوناته » و٩ سمفونيات هي اليوم ذروة الفن والموسيقى بما فيها من قوة التعبير . اصيب في اواخر ايامه بالصمم .

لان الانغام كانت تصل اليها من خلال حجاب كثيف من الضجر وشرود الفكر . والحقيقة انهـا لم تسمع . لم تكن قـادرة على الاستماع . فأدنى موسيقى كانت كافية لدغدغة احلامها الهائمة .

كان كوستال قد دعادها لتناول العشاء معه في اليوم التـالي ، فلبت الدعوة وجلست الى جانبـه في مطعم صغير ثمن الوقعـة فيه عشرون فرنكاً ، واقتصر الحديث بينهما على الشؤون الادبية . لم تجرؤ على البوح بما في نفسها ، لان ضيق المطعم جعلها في جوار رجلين يتناولان الطعام ، وكلٌّ منهما على مسافة متر منها ، واحد الى اليمين وواحـد الى اليسار ، ناهيك بانها لم تكن راغبة في فتح قلبها تلك الليلة . فقد جاءت لتقيم في باريس شهراً ، وما يزال امامها متسع رحيب من الوقت . ثم انها لم تكن تشعر ، وهي الى جانب كوستال ، إلا بأنها متحدة به اتحاد الاخ باخته ، وكانت تردد كثيراً هذه العبارة : « اخ واخته » . إلا انها بدأت تقول في نفسها : « بيرون واوغوستا »[1] ، فتضيف الى شعورها لوناً جديـداً من المحبة ، فيه امان ، ورفاء ، وطمأنينة ، وارتياح ؛ ولا تحتاج الى الكلام كأنها منفردة ، لان كوستال وهي وحدةٌ لا تتجزأ ، ولانها تؤمن بأنه فيها ، وبأنهـا فيه . فهي تتذوق روعة هذا الانفراد المزدوج ، وتحس انها مع الحبيب اكثر انفراداً من اقامتها وحيدة .

وكانت تتعجب لخلو نفسها من الارتباك ، فتعزو هدوءها الى ما بينها وبين كوستال من التفاهم الروحي العميق الذي يفوق الحب ويتغلب عليه . ورسخ في ذهنها هذا الاعتقاد بعد ان تسلمت رسالة كوستال القـاسية ، فراحت تبذل جهودها لتسبغ على « صداقتهـا » ذلك الطابع المتصلّب الانوف الذي يفضله كوستال ، ولتطرد من نفسهـا القلق والاضطراب .

---

١ ـ احب الشاعر الانكليزي « بيرون » اخته من ابيه « اوغوستا » حباً غير بريء . وكان هذا الحب احد مناهل إلهامه الرومنطيقي الجامح .

ولم تكن تشتهي ، وهي الى جانبه ، حتى تلك الملامسات البريئة التي تحبها الفتيات ، إلا انها كانت تود لو تلثم يده احياناً ، وهي تعلم ان هذه البادرة ليست من مظاهر الحب ، بل من اساليب التعبير عن عرفان الجميل ، كأنها لا تجد الكلمات اللازمة لتشكره ، او لا تجرؤ على قولها ، او لا تعلم كيف تقولها .

اما هو فكان في الجانب الآخر من الطاولة ، وقد حرص على ان لا يقع نظره عليها مباشرة ، فكان ينظر من فوق رأسها كلما خاطبها ، فلم تنتبه الى ذلك . وليس من المستغرب ان يعاملها بهذه القسوة ، لانه ما كان يتطلع الى احد ، ولا يلقي نظرة شديدة إلا على اللواتي يشتهيهن . وكان هذا سبب شرود انظاره بعيداً خلال تحدثه الى اندريه .

ولكن نظره وقع مرةّ على ذراعي الفتاة العاريتين ، فلم يستطع ان يرفعه عنهما ، لاعتقاده انهما وسختان ، ولم يشأ الاقتناع بأن الاسمرار البادي عليهما هو لونهما الطبيعي ، لان نفسه لم تكن ميّالة الى حسن الظن .

وحدق طويلاً الى تينك الذراعين دون ان يفوه بكلمة . فلو كان يشتهي الفتاة لكان من شأن هذا المشهد ان يزيد شهوته احتداماً ؛ اما وانه لا يشتهيها ، فقد استولى عليه برود شبيه بالاشمئزاز .

واعاد كوستال الى حديثه ، في نهاية العشاء ، جو المزاح الضاحك الذي بدأ به ذلك اللقاء ، فعزت اندريه هذا المرح الى ما تناولا من الخمر ، او الى وجودها مع الحبيب ، ولكن السبب الحقيقي لسرور كوستال المفاجىء كان انه قرر اختصار تلك السهرة متذرعاً بحاجته الى الراحة والنوم باكراً ، فكان مرحه شبيهاً بمرح حصان شم رائحة الاسطبل.

ولما صرفها ، تقبلت أمره برحابة صدر ، وعادت الى الفندق سائرة على مهل ، تتذوق عذوبة ذلك الهدوء النفساني الذي كانت تغنمه في كل لقاء . فبعد العذابات المبرحة التي كان يسببها لها سكوته الطويل ،

كانت تود لو تحل بها نكبة مدمرة تنقذها من حبه ، وتحس ان هذا السكوت يدفعها الى مختلف الاعمال الجنونية . ولكنها لا تكاد تلتقيه حتى يعود كل شيء فيها الى هدوئه ، الى سهولته الطبيعية ، فتبدو الى جانبه مرتاحة حتى الفتور .

قال لها عندما افترقا : « سأوجّه اليك دعوة لقاء بعد يومين او ثلاثة ايام » . ولما مرّ اسبوع دون ان تأتيها تلك الدعوة ، كتبت اليه ، فتضايق ، ولكنه رأى ان من القسوة ان يحرمها طويلاً لقاءه خلال هذا الشهر المسكين الذي تمضيه في باريس ، وهو شهر من حياتها طالما حلمت به ، وتاقت اليه ، وبنت عليه الاحلام والآمال ...

وكانت لديه اشغال في الشارع الذي نزلت فيه الفتاة ، شارع « مارسو » ، بعد يومين ، في الساعة الرابعة ثم في الساعة الثامنة ، وبين هاتين الساعتين كان حراً ، فضرب لها موعداً في الساعة الخامسة والنصف ، في شارع « كانتان بوشار » ، على الرصيف ، قبالة الرقم ٥ ؛ ففي هذه الساعة كان من المقرر ان يخرج هناك من زيارة بعض الاصدقاء .

في الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والعشرين ، كانت اندريه واقفة تنتظر على الرصيف في شارع « كانتـان بوشار » ، فبدأت تتهم كوستال بانه تأخر . وكان قد نسي الموعد ، فخرج من زيارته قبل الوقت المعين ، وذهب في سبيله . وتعجبت اندريه قليلاً من هذا الموعـد للالتقـاء على الرصيف ليلاً ، في يوم شديد البرد ، لاذع النسمات ، من اوائل شبـاط ، فقالت في نفسها : « أيمكن ان يعطي الرجل موعداً كهذا لامرأة يحبها حقاً ، او يحسبها شيئاً يستحق الذكر ؟ » ولكنه ما لبث ان أطل ، فارتعشت ، وسارا جنبـاً الى جنب في الشارع المظلم المنقـّط باضوائـه البيض والحمر .

قال كوستال فوراً ، وبدون تمهيد :

- لستُ على ما يرام . فمنذ ايام رأيت عند احد الباعة حجراً صغيراً من اليشب اعجبني ، واحببت ان يكون لي . ثمنه الف فرنك . فقررت ان اشاريه في المساء عندمـا أمر بالقرب من ذلك البائع . وبعد قليـل التقيت امرأة عجوزاً ، كان لها ، منذ سنوات ، كوخٌ صغير من الخشب ، تبيع فيـه ازهاراً ، وكنت أشتري منهـا دائمـاً اضاميم من البنفسج لصديقاتي . وكانت هذه المرأة ارملة . فراحت تحدثني عن ولديها ، وقالت انهما مريضان كلاهما ؛ ثم اخبرتني عن اخيها ، وعن العذاب الذي تقاسيه من سوء معاملته لها ؛ وانتقلت اخيراً الى ما تعاني من العوز والحرمان . فاذا بي اتأثر ، واخجل من ان اشتري حجر اليشب ، فدسست في يدها ورقة الالف فرنك . وحتى الآن مـا ازال تحت وطأة ما ساورني من

الأسف .

قالت اندريه :

– ماذا تعني بهذا الأسف ؟

قال : اني متأسف لاني اعطيتها الف فرنك ولم اشترِ حجر اليشب .

– ومن يمنعك من شراء هذا الحجر بعد دفعك الالف فرنك ؟

– اشتريته طبعاً ، ولكن الامر كان قد اختلف نوعاً ما . تضايقت لاني دفعت ألف فرنك بداعي الشفقة والاحسان ، لا غير ، فسُمِّمَت حياتي طيلة الاسبوع .

– ماذا تقول ؟ ألم تغنم ارتياحاً من قيامك ... لا اقول بالواجب ، لان كلمة « واجب » مبتذلة ... بل اود ان اقول ، ان اسألك : ألم تكن راضياً في اعماقك لانك أدخلت السرور الى قلب هذه المرأة التي اشفقت عليها ؟

– لا ! بل شعرت بالـ ...

– قلها ! قل : شعرت بالأسف !

– اجل ، شعرت بالأسف . واني لشديد الخجل من نفسي . ثم هناك شيء آخر يزعجني ، لاني ارى ان الألف فرنك ... ما قيمة الالف فرنك ؟ تؤلمني رغبة ملحّة في ان اعطي تلك المرأة اكثر مما اعطيتها .

– كم انت معقّد ، يا صديقي المسكين !

– انك لا تدركين ما هي الشفقة . انها عاطفة تكفي وحدها لتدمّر حياة كاملة . ومن حسن حظي اني ادافع عن نفسي فلا اقع في هذه النكبة . اني امارس انضباطاً دقيقاً من الانانية . ولو لم اكن انانياً لما كانت لي مؤلفات . كان عليّ ان اختار ، وستختبرين يوماً هذه الانانية ، ان شاء الله ...

وساءلت اندريه نفسها : « وهذا الذي عمله لاجلي ، هل عمله على سبيل الشفقة ؟ » كانت تعتقد انه يحبها ، ولكنها لا تدري كيف يحبها .

فقد كان من المحتمل ان يعامل احد اصدقائه بمثل ما عاملها به من الطيبة والاخلاص . إلا انها كانت تقول احياناً ان المرء لا يستطيع ان يكون سريع النجدة ورقيق الشعور الى هذا الحد بدافع الشفقة وحدها . ولو لم تكن تخشى ان يستاء منها لسألته هل كان احسانه اليها نتيجة الصداقة والرفقة فحسب لشعوره الخاص بعذوبة الرفقة ، ام كان في هذا الاحسان شيء من الحب ؟ ولكن كيف تراها تستطيع السؤال عما اذا كانت تعجبه ؟

وبينا كانت اندريه غارقة في تأملاتها ، وقعت عين كوستال على لوحة كُتب عليها : « بيت للايجار » ، فنظر الى البيت ، وقال :

— ان فكرة الانتقال الى بيت جديد تساورني باصرار منذ زمن بعيد ، لا اذكر بدايته . فهل يزعجك ان ترافقيني لزيارة هذا المكان ؟ لقد اعجبني البيت فجأة ، واود لو اراه من الداخل .

وبعد قليل قادهما البوّاب الى غرف البيت ، فخامر اندريه شعور غريب ، شعور عروس جديدة ، او خطيبة تبحث عن بيت سعادتها . احست لحظة انها مبهورة ... خصوصاً لما خاطبها البوّاب قائلاً :

— كل شيء في هذا البيت على ما يرام ... أتريد « سيدتي » ان ترى ؟... ها هنا الماء الساخن ...

سمعت البواب يقول لها : « سيدتي » ، وهي في الحمام ... فهل من المحتمل ألّا يكون كوستال مدركاً لما في هذه الزيارة من الاثارة بالنسبة الى فتاة ، خصوصاً اذا كانت تحبه ؟ وكيف لا ترتعش عندما تزور بيتاً قد يصبح يوماً ما منزل الحبيب ؟ أيمكن ألّا يكون وراء عمله نية مبيتة ؟ وهل هي حسنة الهندام ، جميلة المظهر ، حتى حسبها البوّاب زوجة الرجل الذي يرافقها ؟

أما كوستال فراح يطرح عليها الاسئلة كأنه يسترشد بنصائحها : « أليس من الموافق ان نسد هذه النافذة ؟ ان نهدم هذا الحائط ؟ »

وكانت تجيب بكل بداهة ، كأنها ربة البيت ، إلا ان روحها كانت في مكان بعيد ، كأن إعصاراً عصف بها ، وحملها الى اجواء غير منتظرة ، لا يصدقها العقل ، تكاد تكون مرعبة .

قالت ، لاخفاء ارتباكها :

– ست غرف ... ألا ترى ان هذا البيت كبير جداً ؟

– لا ، فسأجعل منها : ردهة للاستقبال ، وغرفة طعام ، ومكتباً خاصاً لي ، وغرفة نوم ، وغرفة للاشياء المهملة . اما الغرفة الاخيرة فستكون « قبر المرأة المجهولة » ...

– « قبر المرأة » ؟ أتكون ، يا كوستال ، « ذا اللحية الزرقاء » قاتل النساء ؟

– لا ! اقول « قبر » بمعنى آخر ، بمعنى مزدوج ، اعني الغرفة التي تسقط فيها النساء ، وتسقط فيها اوهامهن .

ماذا ؟ أيكون قليل الذوق الى هذا الحد ؟ خيّل اليها انها في منام مزعج ، في قعر هوة سحيقة . وبينا كانت نازلة على السلم ، خشيت ان تفقد توازنها .

ولما خرجت ، دهمها الصقيع ، فارتعشت . وراح كوستال يسير الى جانبها ، وهو في معطفه الطويل المشدود على خصره ، والمتماوج على ساقيه لدى كل خطوة كأنه ثوب امرأة . قالت في نفسها ان هذا المعطف يشبه معاطف الضباط الالمان ، لان مشية كوستال كانت عسكرية متزنة فيها قوة وجلال ، يُسمع لها وقع بالغ التأثير . وكانت يداها في قفازيهما متشابكتين على بطنها ، في وضع لم يتبدل خلال هذا اللقاء ، وهو وضع اعتبرته اندريه وقوراً كالاوضاع الطقسية في الحفلات الدينية ، وخيّل اليها انها تسير الى جانب احد ملوك الالياذة .

وكان كوستال يقول :

– ما افظع التنقل من بيت الى آخر ! وكم اتضايق من الاهتمام بامر سكني ! فأسرتي ترهقني بنصائحها البائخة ، من طراز : « يجب ان تتزوج ،

لتكون لك امرأة تهتم بداخلية بيتك » . أليست هـذه الطريقة في جر المرء الى الزواج منسجمة مع قواعد الاخلاق وحسن السلوك ؟ أيجب ان اتزوج لغايات اجتماعية ، عائلية ، لاسعاد فتاة ما ؟ لا ، بل لتكون الى جانبي امرأة تساعدني ، فلا يخدعني البائع عندما اشتري قطعة قماش ... اذا كانت هذه غاية الزواج ، فالافضل للرجل ان يتخذ قيّمة على بيتـه تعنى بشؤونه ، ويستطيع الانفصال عنها ساعة يشاء . اما الزوجة فهيهات ان يتسنى له الخلاص منها بسهولة ...

ولما كان كوستال مقتنعاً كل الاقتناع بان الكاتب الذي يحترم مهنتـه يرتكب خطيئة كبرى اذا تزوج ، راح يتدفق في حديثه عن هذا الموضوع بغزارة مدهشة ، ويتكـلم دون انقطـاع ، بل دون ان يتوقف ليتنفس قليلاً ، ويكيل الانتقادات للزواج بدون تحفظ ، وحتى بدون لياقة او ذوق . فكانت الحقـائق والسفسطات تزدحم على شفتيـه ، في غمرة من السخرية العنيفـة ، والهزء اللاذع . وكان انتقاده يفور فوراناً ، ويتدفق باستمرار تدفق الماء من تلك الاحواض الممتلئـة التي يصب فيها المـاء . واخيراً ختم حملتـه الشعواء قـائلاً لاندريـه : « أترين كم اثق بك ؟ اني احدثك كما احدث رجلاً ! »

لا بأس . تقبلت الفتاة هذه الصفعة الاخيرة برحابة صدر ، كما تحملت الكلمات الجارحة التي تخللت حديثـه الطويل . وكانت تسير الى جانبـه مسرعة لتلحق به ، وهي ترتجف من البرد في الشوارع المظلمة . أتراه لم يرفعها الى السماء السابعة إلا ليدهورها الى اعماق الهاوية ؟ لقد حـاولت في البدء ان تدافع عن زواج رجال القلم ، وكانت واثقة بوجاهة الآراء التي ابدتها في هذا الدفاع ، إلا انها تخاذلت ، واستولى عليهـا الارتباك حتى تلعثمت ، وعجزت عن الكلام كتلميذ مروّع يعذبه فاحص جائر ... انه يعرف الاسئلة المطروحـة عليه ، ويستطيع اعطاء الجواب الصحيح عنها ، ولكن الخوف يلفـّه بالظـلام الدامس ، ويلاشي فيه كل عزيمة ،

فيقف صامتاً ، واجماً ، كأنه صخرة صماء .

ولكن اندريه فكرت بان زيارة البيت المعروض للايجار لم تكن صدفة ، بل خطة مرسومة ، فتبادر الى ذهنها ان كوستال يريد اثارة شعورها ، ولا ينتقد الزواج إلا ليحثها على الدفاع عنه ، ويسمع براهينها ، ويدرك مدى قدرتها على الاقناع . وقد استرسلت هانئة في هذا الوهم ، هذا النوع من الجنون ... ورأت ان تنتقل في دفاعها من الحديث عن الزوجة الى اظهار ما يسبغه الابناء على حياة الآباء من الرونق والرواء ، فقالت :

— وما رأيك في الابناء ؟ كيف لا يكون لك ابناء ، وانت ، يا كوستال ، نموذج الاله الخصاب ؟ اسمح لي ان اصارحك بان آراءك في هذا الشأن تدهشني . ان شخصيتك بحاجة الى انجاب البنين لتكتمل اكتمالاً يليق بنتاجك الادبي ، واظنك تحرم نفسك كنزاً كبيراً من الفكر والاحساس اذا بقيت عازباً .

وكان « الاله الخصاب » يجيبها فوراً وبقسوة عن كل رأي تبديه ، كأنه يبارزها بالشيش وهو حانق ، فتحس انه اصابها وجرحها . ولما تحدثت عن الابناء ، لزم الصمت ، فظنت انها اصابت من نفسه نقطة الاحساس . ونظرت اليه ، فرأت رأسه الشامخ ، وعينيه الصافيتين ، وخيّل اليها ان في نظراته سحابة من الكآبة تحدث اثراً عميقاً في النفس بالنسبة الى ما هو عليه من القوة والثقة . وكم كانت اندريه تحبه ، وتحس بحبها يحتدم حتى العبادة ، كلما رأته يضعف !

وعادت الى حديثها فقالت :

— فكّر بابنك ، يا كوستال ! فكّر بذراعيه الصغيرتين تطوقان عنقك ... فكر بحاجته اليك ... وفكّر اخيراً بان جميع رسالاتك التي تطرحها الآن في الفراغ ، لجماعات لامبالية ، يمكن ان تنصبّ على مخلوق هو لحمك ودمك ، على مخلوق تحبه ... لا ، يا صديقي ، لا تستطيع ان

تكون رجلا بكل معنى الكلمة اذا كنت لا تعرف هذه الحقيقة. واني لأشعر شعوراً صادقاً بان الاسف ينخر قلبك ! لا تنكر ! لا تكابر ! فلن تستطيع بعد اليوم ان تخفي عني ما في نفسك . ألا تدري ان للنساء نوعاً من الحدس لا يخطىء ؟

واصبح كوستال كالملاكم المصاب بدوار ، يتلقى الضربات ولا يقوى على مقابلة خصمه بالمثل ، فيجيل انظاره في الفراغ . وقد خيّل لاندريه من جديد انها ترى في عينيه دليلا على التراجع والهزيمة ، فاستجمعت قواها وارادت استغلال انتصارها الصغير فانسلّت من حديثها عن الابناء الى التحدث عن نفسها . فقد وجدت مشجعاً لها في ظلام الليل ، وفي قدرتها على الكلام دون ان تكون تحت سيطرة نظراته الطاغية ، وما كانت ترى سوى ظليهما المتجاورين ، يظهران حيناً ، ويدوران ، ثم يختفيان ليظهرا من جديد ، حسب مشيئة اضواء المصابيح في الشارع ، فتغنم من هذا المشهد متعة عميقة بين عديد من السابلة لا يعلمون شيئاً ، ولا يدرون بما يجري في جوارهم ... لأنها كانت تظن دائماً ان في علاقتها بكوستال اشياء تستحق ان « يعرفها » الناس .

وبعد فترة طويلة من الصمت ، قالت له :

ـ اعتقد ، احياناً ، مهما حاولت الانكار ، انك بحاجة الى ان تكون محبوباً ، بالرغم من تجديفك على الحب . نفسي تحدثني بانك قد تصبح يوماً ما اقل قسوة ، لانك كشفت عن جانب من حقيقتك ، يا كوستال ، دون ان تدري ، فرأيتُ نظراتك مشحونة بالحنين والكآبة عندما حدثتك عن ابن لا وجود له ، وعما في حبك الماضي من الجدب والعقم ... ونفسي تحدثني ايضاً بانك تحن الى نوع آخر من التعاطف والمحبة . وتراني ادرك تمام الادراك ما ينتاب المرء من النكد والخيبة عندما يعلم انه غير محبوب كما يجب . ولكن ، انا مثلا ، هل احبك حباً ناقصاً ؟ ما الذي تستطيع ان تأخذه على حبي ، متى ايقنت انه عذوبة ، لا قيد يصفّدك ؟ ألا

تعلم ان الحب الأشد احتداماً والاوطد ولاءً هو الأقدر على الزهد وعلى التضحية ؟ دعني احبك . اسمح لي باطلاق العنان لحبي دون ان ألجم نفسي ، خوفاً من استيائك ، ودون ان اقول « مودّة » حين لا افكر ولا احس إلا بالـ « حب » .

ما الذي اريده منك ؟ زيادة من الحرارة ، زيادة من الحياة ، زيادة من النشاط ! اواه ، ليتني استطيع ان اعمل لاجلك اشياء ، واشياء ! ليتني لا اذهب ، بعد ثلاثة اسابيع ، حاملة كنزاً وهمياً مؤلماً حتى الضراوة ... لأن ما يكفيني هنا توجعني ذكراه يوم ابتعد . اودّ منك ، مثلاً ... لا ادري ما اود !... اشتهي ان تناديني بكنيتي ، او ان تقول لي : « صديقتي العزيزة » ، عوضاً عن « حضرة الآنسة » ، كما تكتب اليّ منذ اربع سنوات . يظن من يسمعك انك تخاطب معلمة عزف على البيانو . واشتهي ايضاً ان تكتب اليّ كلمة صغيرة كل خمسة عشر يوماً . وما اطلبه اليك الآن يبدو لي قليلاً جداً بالنسبة الى عظمة حبي !

واتوق احياناً الى ان تعاملني كما تعامل فتاة صغيرة حمقاء ودائمة الاستياء ، الى ان اراك في اماكن قوية الايحاء ، واكثر انسجاماً مع شخصيتك ، في حدائق غنّاء ، في حقول الرّيف ، في المتاحف ... لا اعلم بالضبط ما اريد ... إلا اني لم أعد اريد ما كان ، وما هو كائن حالياً ، وما اردت انت ان يكون . لا اطلب طول المدة ، بل احب ان انعم بك اكثر ، وان اكون الى جانبك ما دامت لي هذه المدة . واود ان تجيب عن هذا السؤال : هل اعطتك محبتي الصافية شيئاً من السعادة ؟ أيجوز لي الاعتقاد انك تحتاج اليّ قليلاً ؟ هل شعرت بانك اقل انفراداً عندما اعطيتك اليقين بانك محبوب حباً حاراً مخلصاً ، ومفهوم في كل ما يكوّن شخصيتك ويجعلك انت ... في اعمق ما فيك من الماهية والجوهر ، وفي اصغر ميزاتك الشخصية ، في سخريتك ، في دعابتك المتطاولة ، وحتى في قسوتك الشريرة ؟... ليغفر لي الله !... اذا كان جوابك غير جواب

الشيطان لـ « إيلوا »[١] ، فاني اعتبر نفسي في ذروة السعادة .

وكان كوستال يقول في نفسه : « ما اغرب خضم الاوهام الطائشة الذي تعيش فيه ! كيف استطيع الافتراض او التصور ان محبة اندريه هاكبو تمنحني السعادة ! انها مدهشة في اصرارها على انكار الحقيقة الراهنة ، ومذهلة برغبتها الانثوية الطابع في ان اصبح شقياً بائساً ليتسنى لها ان تعزيني . هي تعتقد انها مؤهلة لتعزيتي في شقائي المزعوم ، بينما هي ومثيلاتها ، اعني النساء اللواتي يمنحن حباً لا يريده احد ولا يطلبه ، يسممن جانباً من سعادتي ! لا ! هذه حقاً مهزلة . ولكنها مهزلة تستحق الاحترام وتثير الشفقة . كيف استطيع الخروج من هذا المأزق دون ان اجرحها واوجعها ؟ »

ان تفكيره بالألم ، الذي قد يسببه لها اذا فاتحها بما في نفسه ، كان

---

[١] شخصية شعرية من مبتكرات الشاعر الفرنسي الرومنطيقي ألفريد دوفيني (١٧٩٧ - ١٨٦٣) وهي امرأة ملاك ، ولدت من احدى دموع المسيح على الصليب . وعلمت ان احد عظماء الملائكة تمادى في الكبرياء والغرور فتمرد على الله ، وطُرح في اعماق الجحيم ، فنشأت في نفسها فكرة هداية هذا الملاك الضالّ واعادته الى السبيل السوي . فانحدرت الى الجحيم ، وراحت ترشد المتمرّد . وتأثر الشيطان لحظة باخلاصها وسلامة نيّتها ، ثم تغلب عليه روح الشر ، فقرر ان يفسد « ايلوا » ليجعلها غير جديرة بالسماء . غرر بها ، فسلمته جسدها ، وابتهجت بسقوطها الذي اتاح لها بذل نفسها في سبيل من تحب . ولكنها عندما ارادت مفارقة الحبيب الذي ضحت في سبيله بكل شيء وقالت له :
- سمّني ، يا اخي ، ويا الهي ، لأنتشي بكلامك العذب !
أجابها بجفاء شرس :
- انت أمتي وفريستي .
قالت : لا بأس ، فامنيتي القصوى ان تكون سعيداً .
قال : انا الآن اتعس شقاء مما كنت .
فارتعدت قائلة : ولكن ، من انت ؟
قال : انا الشيطان !

يشل عزيمته ، فيخيَّل اليه انه يتسلى بملاكمة طفل ، ولا يستطيع ان يتحرك إلا بحذر خوفاً من ان يجرح خصمه الضعيف ، ويقول في نفسه : « اوه ! كم هي مزعجة هذه الفتاة ! وفي اي مأزق طرحت نفسي باعطائها هذا الموعد ! »

وراح يجرّها معه ، وهو يسير بخطاه الواسعة . وكان قد مضى عليهما عشرون دقيقة وهما يجتازان الشوارع المظلمة واحداً بعد الآخر : كريستوف كولومبس ، جورج بيزيه ، ماجيلاّت ، الخ ... في حي من المنازل البورجوازية والدور الخاصة ، ندرت فيه المحلات التجارية ، وغمرت العتمة ثلاثة ارباعه . وكان المارة قليلين ، محدودبين تحت وطأة البرد ، والسيارات الخصوصية مصطفة الى جانب الرصيف . واخذت اندريه تسائل نفسها : لماذا لا يدعوها كوستال الى مقهى أو ردهة شاي ، كما يفعل كل رجل في مثل هذه الحال !

ولكن كوستال لم يفعل ... وكأنه كان يأمرها بان تمشي ، وتمشي !... فكر بالذهاب الى احد المقاهي ، إلا انه عدل . فمنذ ايام ، رافقته الى المطعم ، فعلقت بالباب الذي يدور على نفسه ، ولم تعد تستطيع الدخول ولا الخروج ... فضحك الخدم ، وكانت قبيحة المنظر للغاية ، بشعة الهندام ، فخجل بها ، واصبح يفضل ان تسير في البرد ، وان تصاب بذات الرئة على ان تُجرح كبرياؤه بسببها . وكان كل شارع جديد يصلان اليه يبدو للفتاة اشد ظلاماً مما سبقه . وعلى الرغم من تلبد الغيوم في سماء أملها ، فقد تشبثت بما في نفسها من بقايا التفاؤل ، وظنت ان كوستال يبحث عن مكان مظلم ليعانقها ويقبلها ... وانه يواصل السير لانه متردّد ، مرتبك ، لا يجد الجرأة الكافية ليضمها الى صدره ، وليس تردّده إلا دليلاً على انه يحبها حباً حقيقياً . ولما وصلا الى شارع « كيبلر » الحالك الظلام ، الخالي كلياً من المارة ، لم يخامرها شك بانها بلغت المكان الذي سيتم فيه ما هو مقدّر لها . لقد انطبعت في ذهنها الى الابد صور

جميع الاشياء التي رأتها في ذلك المكان : صورة كلب صغير جالس الى جانب السائق في احدى السيارات الواقفة وقد جعل ينظر اليها نظرة ممنة ، ملحّة ، كأنها نظرة انسان ... وصورة مصباح ضئيل النور على كومة من بلاط الشارع كأنه قنديل معبد ... ولكنهما خرجا من ذلك الشارع دون ان يحصل شيء مما توقعته ، وكان كوستال يقول لها في هذه الاثناء :

- استمعت اليك باهتمام كبير . فأقوالك تحدث في نفسي تأثيراً عميقاً . ولكني اجبت عن كل شيء . كانت صداقتنا شيئاً حسناً للغاية . إلا ان القلب يفسد كل شيء حين يتدخل . سواء على صعيد الصداقة او على صعيد العلاقات الجنسية تبقى الاشياء سليمة ، واذا حدثت جروح فانها تبقى واضحة قابلة الشفاء السريع . اما اذا تدخل القلب فكل شيء يتفاقم ويفسد ، وطالما لمست هذه الحقيقة لمس اليد !

اجابت اندريه فوراً :

- ان ما تقوله غير معقول . فالقلب لا يفسد شيئاً ، بل انه يطهّر كل شيء . من البلاهة حقاً ان نعتبر العلاقات الجنسية اطهر من القلب المحب ! لو جئتك بشهوة جسدية عارمة ، لغفرت لي . ولو كنت مغرية ، متحدية ، اصارحك باني لا ابحث إلا عن اللذة ، لكان من المحتمل ان تحتقرني بدون ان ترفضني . ولكني لا اقدم لك إلا الحب الوفي الصادق ، وهذا ما يزعجك ويورثك السأم ، ويجعلك تقول في نفسك : « دعينا من الحب ، دعينا في نجوة من متاعبه ... » اني اقدم لك حبي وهو ثمرة حياتي كلها ، ثمرة حياة فتاة نقية . ولا ذنب لي في هذا النقاء — متفوقة قليلاً ، فتبدو لك تقدمتي تافهة ومضحكة . انك لا تحب حبي . لا تريد كلّي ، هذا الكل الذي اقدمه لك ، بل تريد مني قليلاً . وانا لا استطيع ان لا اعطيك إلا القليل . عاملتني معاملة اخ لاخته ، معاملة سلطان يختار من جماهير الرعية حظيته او وزيره ، وخصصتني بمكان ممتاز الى جانبك ، وتريدني ان اقيم في هذا المكان بدون حركة ، بدون ان ارفع

صوتي ، وان اكتفي بما تخلعه عليّ بسخائك المعبود ، وهو شيء لم يعد يكفيني . لا استطيع البقاء الى جانبك مكتفية بالصداقة ، راضية بان لا يكون لي حق بغير الصداقة ، حتى ولو كانت صداقة رائعة ، منعشة كصداقتك انت ... حتى ولو كانت معزّية ، مؤثرة ، اخوية ! انها لا تكفيني ، لا تكفيني ... ولا اهتم بالمحافظة عليها . ففي نفسي شيء وثّاب ، منطلق ، يتجاوز حدود الصداقة ! اواه ! انه يتجاوز هذه الحدود بمراحل بعيدة ! وهذه القوى كلها لا تصلح لشيء ، ليست ضرورية لشيء ... شهوة العطاء تفيض في نفسي . اريد كل شيء . ولكني لا اعني بـ « كل شيء » ان تخرج من التجرد الذي تحذق ممارسته .

وفي هذه الاثناء ، كان كوستال يفكر : « انها تعبر الآن عن جانب من خيبتها ! يا لها من فأرة صغيرة تود ان يفترسها الهر . وكان ينبغي لي ان اتوقع منها الوصول الى هذا الحد ! »

اما هي فكانت مسترسلة في حديثها ، تقول : « اني مخلصة في ما اقول ، وقد صارحتك مرات عديدة بانك لم تلمس قط في نفسي ينبوع مشاعري الحميمة ، او انك لمسته لمساً عابراً سريعاً في ساعات عطفك عليّ وما سخوتَ به من العذوبة . ان ما اطلب هو ان يكون لي الحق في ان احبك ، في ان اعزك بكل قواي ، بكل ما في نفسي وجسدي من زخم الانطلاق . لقد لجمتْ برودتك دائماً هذه القوة المتحفزة فيّ . لا استطيع ان احبك اذا كنت لا تريد ان احبك .

— أتودين ان ادعك بطيبة خاطر تقدمين لي حباً لا استطيع التجاوب معه ؟ لا حيلة لي في هذا الامر ، فقد أفنيت شعوري وعواطفي . أعطيت كل ما املك في حب اول ، يوم كنت في السادسة عشرة من العمر . لو جئتني ، وانا في السابعة عشرة ، لما اختلف جوابي عما اقوله لك الآن : « صداقة ، نعم . اما الحب ، والتدله ، والهيام ، وكل هذه البضاعة ، فلا ... فقد فات الاوان » .

– فات الاوان ! ليس لديك إلا هذا القول الذي يذبحني : فات الاوان ! اذاً ، فقد ضاعت حياتي .

فاشفق عليها ، وقال بصوت هادىء عميق :

– يوم كنتُ في الثامنة عشرة من العمر ، وفي بداية اختلاطي بالناس ، شرعتُ اطارد الفتيات واغازلهن بحرارة متزايدة . واتذكر ان امي قالت لي آنذاك : « لا يجوز لك ان تضرم النار في صدور الفتيات ، عندما لا تكون نظرتك اليهن جدية غايتها الزواج . فاضرام النار على سبيل التسلية يمس بشرفك » . واني اسائل نفسي الآن هل أسأت اليك ؟

– لم تسىء اليّ قط ، او بالحري لم تكن اساءتك مقصودة عمداً ، فانت اوفى الرجال طراً ...

– أنا ، وفيّ ؟!... اني اكذب دائماً .

قالها وهو يطرق باجفانه . فلماذا خرجت هذه الصيحة من اعماقه عفواً ؟ احس بالاحمرار يصبغ وجنتيه ، فخفض رأسه خجلاً .

– لا ريب في انك تكذب احياناً ، كما يكذب الجميع ، ولكنك أوفى الرجال وانبلهم دون منازع .

– انكِ دائمة التغني بنبلي ! وستمعنين في هذا التغني حتى انقم يوماً ما على نفسي لكثرة ما اسمعك تشيدين بهذا النبل ، ومن المزعج حقاً ان انقم على نفسي . واكاد اقول لك ما قلت لذلك الخادم الذي كان يخدم لا ادري اي امير ايطالي قبل ان يأتي اليّ ، ففي بدء عمله عندي كان يكيل لي ، كلما خاطبني ، تبجيلات من طراز « سمادتك » ، و « سيادتك » ، و « يا صاحب الشرف » ، و « اذا كانت سيادتك تريد ... » ، و « اظن انه من الافضل لشرفك السامي ... » واخيراً ضاق صدري ، فقلت له : « دعك من شرفي ، يا هذا ، فقد تحمله اليّ اذا امعنت في ترديد ذكره » .

– كم انت متعب ، لا تطاق ! تمزح دائماً حين تكون العواطف في

ذروة تأثرها واحتدامهـا . وسأردد قولي لك ، شئت ام ابيت ، انك رجل وفيّ ، وانك مثال الوفاء . ولكنك مسؤول تجـاهي عن شيء من قلة التحفظ والحكمة ... ما كان يجوز لك ان تتركني اصل في حبي الى ما وصلت اليه .

كاد يجيب فوراً : « ألم اعطك اكثر من برهان اني لا اكترث بك ؟ » ولكنه لم يجد في نفسه الجرأة الكافية ليكيل لها هذه الضربة القاضية ، فقال :

— أليست الصداقة ممكنة بين رجل وفتاة في مقتبل العمر ؟

— بلى ، ان ذلك النوع من العجز الجنسي الذي يسمونه صداقة يجب ان يكون ممكناً في بعض الحالات . مثلاً : مع الفتاة في نعومة اظافرها . فلو كنتُ في الثامنة عشرة من العمر ، لما احببت إلا صداقة رجل ما ؛ ولو كان هذا الرجل انت لتحققت اعذب اماني . اما واني امرأة لم تجهل يوماً حقيقة سنها ، ولا تجهل انت عزلتها ، واضطرابها ، وقلقها ، وحاجتها الى الحب ، ولها صديق عظيم مثلك ، فكيف تريد ألّا تتوصل يوماً ما الى ان تحبه ؟

قدمتُ لك حبي ، فرفضته . ولمـا اشعرتك باني آتيـة الى باريس ، دعوتني الى العشاء عوضاً عن ان تفهمني انك لا تريد ان تراني ، كما كان ينبغي لك ان تفعل .

وبينما كان كوستال يقول في نفسه : « هذه مكافأتي ، لاني كنت لطيفاً معها ! » استطردت اندريه تقول :

— شجعتني على التفكير بك ، ابديت لي انك لا تنفر مني ...

وهنا كاد كوستال ينفجر وهو يفكر : « هذه مبالغة في الغرور ! » إلا ان الفتاة تابعت حديثها قائلة :

— عملت كل ما يمكن عمله لأتعلق بك ، لأحبك بكل قواي ، لأنك كنت تقدم لي نفسك وانت ترفضني ، يا سيدي العزيز ، وهذا ما لا تريد

ان تراه ، ولا ان تعترف به . ان من يسمح لسواه بان يحبه يكون قد بدأ يحب . انك لتخطىء اذ تعتقد ان المرء لا يستطيع ان يقدم نفسه إلا بالوعود والمداعبات الغزلية ، فانت قدمت لي نفسك بدون وعود ، وبدون مداعبات ، إلا ان تقدمتك كانت حقيقية ، اكيدة في خفتك الحافلة بسلامة النية ... أتدري ما هو خطأك ، يا صديقي ؟ هو انك لا تستطيع ان تكون شريراً في معاملتي .

— اراكِ تغوصين الى الاعماق ! وبعد ، أحقاً تظنين اني لطيف معك اكثر من اللزوم ؟

— اجل ، انك لطيف اكثر من اللزوم . وفي المستقبل ، لا تكن في علاقاتك بالنساء لطيفاً اكثر من اللزوم ، يا كوستال ، رفقاً بهن . ثم احفر في ذهنك هذه الحقيقة : « لا وجود للصداقة مع الفتيات » ، لان كلا منهن تظن انك تفضلها على سواها ، ولانك تجعل — بدون تعمد — كلا منهن تستخلص من معاملتك لها انها المفضلة لديك . فانت تتصرف تصرف غاوٍ فتان ، حتى حين لا تريد الاغراء ، ثم لا تلبث ان تقف متعجباً حيال ما احدث هذا التصرف ، وتغضب مخلصاً بدون تصنع عندما يكون الضرر قد وقع ، وانتهى الامر . انك خالٍ من الغرور خلواً مدهشاً عجيباً ، وقد يكون هذا سبب قدرتك على جذب القلوب اليك .

— لا استطيع ان اتجاهل ان في العالم الوفاً من الرجال يضاهونني ذكاء ، وافضل مني بكثير في مظاهرهم واناقتهم وجمالهم . ابحثي تجدي حتماً واحداً منهم يتجاوب معك ، ويعطيك بقدر ما تعطينه .

— انك مثير حتى الجنون ، حتى اليأس ! اود لو اقبض عليك بذراعي ، واهزك بعنف ! ابذل جهدي كله لاردد لك ان المرأة لا تحب إلا مرة واحدة ، وانك انت هذه المرة بالنسبة اليّ ، وانه يستحيل ان يحل احد محلك في قلبي ، فلا تريد ان ترى الواقع الراهن ، وهو ان

حياتي الحقيقية هي حبي لك .

اجاب بهدوء :

ـ لا ادري من منا ، نحن الاثنين ، لا يريد ان يرى الحقيقة .

- يا له من جواب لطيف ! تقول لك امرأة : « احبـك اكثر مما احب الحياة ، او بالحري انت حياتي ، ولا حياة لي سواك ! » فتجيب : « ابحثي عن رجل آخر ! » فالامر في غاية البساطة !

ـ من حسن حظك انك تجـدين هذا الامر بسيطاً . امـا انا فارانا غارقين في ورطة مزعجة ؛ اننا نسير على طريق موحلة .

-- انك تتكلم في الحب كولد عديم الادراك . وجدير بك ان تخجل من مزاحك في هذا الموضوع .

-- الرجل بدون مزاح ولهو مسخٌ رهيب !

ـ وانت مسخ رهيب بكثرة مزاحك ولهوك !

وكان صوتها يغص بالدموع ، فقال كوستال ملاطفاً :

ـ انت معقدة ، يا ابنتي المسكينة ، لا انا ، لانك اعطيتني القـدرة على تعذيبك . أتدرين كيف اريدك ان تكوني ؟ اودّ لو انك لا تشعرين بأقل ألم ، حتى ولو قلتُ لك كل ما يجول في خاطري من الكلمات القاسية ، الجارحة .

فرفعت كتفيها دون ان تجيب ، ثم قالت :

-- « يا ابنتي المسكينة ! » انتبه ! حذارِ من العودة الى اللطف اكثر من اللزوم .

-- وبعد ، فانك مزعجة حقاً ! اذا قسوتُ عليك ، تتذمرين ، واذا لاطفتك ، تتذمرين ... لقد بدأت أتضايق من هذه الورطة . واني اسائل نفسي : لماذا انا هنا الآن ! لماذا جئت ؟ وما الذي اريده ؟

لم ينغمس كوستال طيلة حياته في المشاحنات العاطفيـة التي تحـاول النساء فرضها على كل رجل يقربهن ، حتى ولو كانت المرأة التي تجره الى

هذه المشاحنات من اللواتي يحببن ويطمع بوصالهن ، فكم بالحري اذا كانت كأندريه ، من اللواتي لا يكترث بهن !

إلا ان اندريه لم تقوَ على الاحتمال ، فنفرت الدموع من عينيها ، فقال لها :

– مهلاً ، يا عزيزتي ، هدّئي من روعك . لو دريتِ المرأة كم تخسر من رونقها وبهائها حين تبكي ، لما بكت مطلقاً . يجب ان يكون الرجل قديساً لكي يرى المرأة جريحاً تبكي ، فلا يمعن في تعذيبها لتبكي اكثر !... وانا الآن هذا القديس . اعلم ان المرأة تحتاج دائماً الى من ينير عقلها ، اعني انه يجب ان نشرح لها شيئاً لا تفهمه ، ان نداريها ، ونعزيها ، ونهددها ، ونهدئها . ولكني لست مستعداً ان اكون ممرضاً ، ولا قيّماً على صندوق من الخزف السريع العطب . احب ان تعالج قضايا الحب دون هوادة ، كي لا تُبسط في كل مناسبة ، وكي لا تكون مضغة في الافواه ، ولكي يفسح لنا المجال لان نهتم باشياء اخرى في الحياة . واعتقد ان الرغبة في التحدث عن الحب تتضاءل بقدر ما يكون الحب حقيقياً وعميقاً .

وفجأة قبض على ذراع اندريه ، وجرّها بعنف وهو يصيح : « يا للشيطان ! أتريدين ان تنتحري ؟ » ذلك انها بينما كانت تجتاز الشارع ، وهي ساهمة النظرات ، شاردة الفكر ، مرت سيارة مسرعة ، فلامستها وكادت تدهسها . واستطرد كوستال قائلاً ، متأثراً بالحادثة المخيفة :

– من حسن حظك اني لم ادفعك الى تحت الدواليب ! فهذه الرغبة تنتابني دائماً . فكلما كنت مع امرأة ، ومرّت بنا سيارة ، احس برغبة في دفع رفيقتي الى تحت الدواليب . وتشتد رغبتي هذه بقدر ما يكون حبي لرفيقتي كبيراً . ولكني استطعت مقاومة هذه الرغبة حتى الآن . اما انت فلا ادري لماذا رغبتُ في انقاذك وحمايتك . ومع ذلك اراكِ تتذمرين !

– لا ، يا كوستال ، لا اتذمر . أعلم انك تحبني . وفي بعض الاحيان احسك الى جانبي قوة" خيّرة ، ابوية ، وادرك انـه من الخير ان اكون قد ُخلقت ، وان أبعث حية بعد الموت لاكون لك كلياً وبدونٌ تحفظ . هـل وبختك على شيء ؟ اذا كنت قـد فعلت ، فانسَ اساءتي اليك . لا ادري اذا كنت قد تفوهت بحماقة تافهة ... فلست انا نفسي اليوم ... لا اريد اقل واجب منك اليَّ . حتى ولو شاء القـدر ان يجترح معجزة ليمنحني حقاً عليك ، يوماً ما ، فلا اريد ان تقوم علاقة احـدنا بالآخر إلّا على العطف والرقـة . ولكني لا ارضى بشفقتك ولا بصدقتك اللتين جدت بهما على بائعة الازهار ...

قال كوستال في نفسه : « انها ترفض الشيئين الوحيدين اللذين استطيع ان اقدمهما لها ... وما عساها تكون ، يا ترى ، معجزة القـدر التي تمنحها حقاً عليَّ ؟ باي وهم جديد يتمخض خيالها الخصاب ؟ »

وكانا قد دارا حول « ساحة الولايات المتحدة » للمرة الثالثة والرابعة ، بين تماثيل محرري الشعوب وكبار المحسنين إلى الانسانية ، وتماثيل اخرى تجسّد الحماسة . وفي جوانب هـذه الساحة تقوم قصور الارستقراطيين ، حملة الألقـاب القديمة ، وبـدت الارض كأنها موسومـة بأثر من خطى الاميرات والبارونات الناعمة الخفيفة ، ولمعت اوراق اشجار المرجـان في جهمة الليل كأن الخدم يمسحونها كل صباح لوجودها امام قصور اسيادهم . وكانت النوافذ المغلقة شبيهة بابواب الصناديق الحديدية في اقبية المصارف . وظهر هنا وهنـاك افراد من ابناء الشعب في هـذا المحيط البورجوازي الرفيـع ، وهم يتحركون كأنهم اسرى حرب يعملون في خدمة العـدو . وكان بينهم باعـة فحم تلطخت وجوههم واجسامهم بالسواد كأنهم يتقـاضون ثمن تشويه نفوسهم ، وخـادم جزّار يحمل اللحم الى احـدى الاميرات ، وينزلق من باب صغير للخدم كهرٍّ يأوي الى جحره . وكان كوستال وحده يلاحظ هذه الاشياء ، لخلو ذهنه ، وانطـلاق فكره من

كل قيد . اما اندريه فما استطاعت ان ترى شيئاً . ذلك ان كتّاب القصة اعتادوا وصف الاماكن التي يلتقي فيها ابطال قصصهم من العشاق المتواعدين، فغدوا يرون من التفاصيل الدقيقة ما لا يراه سواهم . فالعشاق لا يرون شيئاً لانغماسهم حتى الغرق في مشكلاتهم العاطفية .

لم يعلق في ذهن اندريه من مشاهد « ساحة الولايات المتحدة » سوى وحشة الظلام المطبق على خضرة الاشجار، والممرات الضيقة المقفرة حيث تكثر الزوايا كأنها وجدت خصيصاً لخلوات المحبين، بقدر ما تكثر المقاعد الحجرية او الحديدية كأنها تدعو المتعبين الى الراحة . وكان هناك مقعد خلف تمثال « الحماسة » تماماً، وقد غمره الظلام في زاوية توحي الاطمئنان ... فما كادت اندريه تراه حتى انتفضت فيها افكارها المحمومة، ورغباتها المجنونة . ما معنى وجودها في قلب هذه الحديقة، وفي غمرة هذا الليل، الى جانب هذا الرجل ؟ ليس المهم ان يقبلها او لا يقبلها، فالعبرة في انه لم يأت بها الى هذا المكان صدفةً ولوجه الله . ثم انه قال لها « يا عزيزتي »، فهل يقول الرجل : « يا عزيزتي »، لامرأة لا يهمه امرها، ولا تربطه بها صداقة حميمة ؟

ازدحمت هذه الافكار في خيال اندريه، فقالت في نفسها : « من يدري ؟ قد اكون واهمة ! فمن يعيش مثلي في سان ليونار يفقد القدرة على التمييز بين العادي وغير العادي من الاعمال » .

ولكن كوستال قبض على ذراعها، وصاح بها : « يا للشيطان ! » وللمرة الاولى لمسها ! فرفعت رأسها تبحث عن شيء حولها : اسم الشارع، رقم احد المنازل، لتظل هذه الذكرى حيّة في ذهنها مدى الحياة، ومرتبطة بمكان معيّن . وخيّل اليها انه امسك بذراعها فترة طويلة، وضغط عليها ضغطاً لا يخلو من معنى، ثم انه لا يستطيع ان يصيح : « يا للشيطان ! » دون ان يضع في صيحته مقداراً من العطف والحنان .

من طبيعة الانسان ، ولاسيما المرأة ، انها ، اذا تخيلت اشياء ، حاولت ان تتلمّس في كلٍّ منها التأثير الذي تفضّله . وقد انجلى ذهن اندريه ، وفاضت عليه موجة من الضياء ، عندما قبض كوستال على ذراعها ، ولكن خيالها ما عتم ان غاص في الظلام من جديد كأن غيوماً طارئة تلبدت في سمائه .

اشتهت بكل قواها ، بكل ما فيها من توق ، لو يقبض على ذراعها مرة اخرى ، او تتجرأ هي على ملامسة ذراعه او يده ... ولكنهما ابتعدا عن الساحة المليئة بالزوايا المقفرة ، فأحست الفتاة ان جميع آمالها تتبخّر . الى اين تراه يجرّها بعد ؟ أيريد العودة الى التجوال الطويل في تلك الشوارع الموحشة حيث لا تقع العين إلا على صيدليات وباعة ازهار ؟ لقد تذمرت مرة من شدة البرد ، فأجابها باسلوبه المغري : « البرد الجاف مفيد جداً للصحة ! » ثم استطرد قائلاً :

— يجب ان نوضح مسألة الصداقة بين الرجل والمرأة .

— لا ، دعنا من هذا التوضيح ، فالمسألة غير جديرة بالاهتمام .

— اني لحائر في امرك ! فانت فتاة ذكية بالغة الرقة واللطف في بعض الاحيان وعندما يطيب لها ان تكون كذلك ، ومثقفة ، صنعت نفسها بنفسها ؛ وانت وحيدة ، تعرفين مؤلفاتي اكثر مني ، وتعرفينها معرفة نيّرة ، ذكية . وخلاصة القول انك على جانب من الجدارة والاستحقاق ، واني اعني بهاتين الكلمتين معناهما كاملاً . ومع ذلك تعيشين في خمول سان ليونار في لواريه ، اي في بلد لا اجد لفظاً انعته به ...

اجابت ، وهي تبتسم :

— عفواً ، ان عدد سكان سان ليونار في لواريه ٣١٨٠ نسمة ، وفيها معامل نسيج مهمة ، وهي مسقط رأس العالم الزراعي الكبير « ليفاية » ...

وحاولت العودة الى حالتها الطبيعية ، واحست انه من السخف

ان تكون امرأة فقط . وتبادر الى ذهنها ان كوستال على حق في ان يكون شاباً نشيطاً ، مقامراً ، يصلح للصداقات المرحة ، والمغامرات السهلة العابرة ، وان خطأه الوحيد هو اعتداده المطلق بنفسه ، وقلة ادراكه لهذه الحقيقة .

واستطرد كوستال قائلاً :

– اني اكنُّ للفتاة التي هي انت مودة صافية ، واعتقد انها جديرة بها ، فتبدو سعيدة بهذه البادرة ، وتردد على مسمعي بكل اساليب وكل لهجة ، وطوال سنوات عديدة : اني انقذتها ، واني « ما اعطيتها إلا افراحاً ومسرات » – أترين كيف احفظ رسائلك عن ظهر قلب ؟ ... قالها بطيشه المعهود الذي لا تؤثر فيه المحن والعبر ، ثم استأنف حديثه قائلاً :

– وتبين لي ، ذات يوم ، ان هذه الفتاة على وشك ان تحبني ، واني لا استطيع ان اتجاوب مع حبها على مستوى لائق ومعقول ، لاني لست رجل حب ، بل رجل متعة جنسية وحسب . اجل ، ما حيلتي في هذا الامر ؟ اني احب اللذة ، وهي تعاملني بالمثل وتروي شهوتي . وعلى هذا الاعتبار ، اخذتُ قلمي المفضّل ، وكتبت الى تلك الفتاة :

« آنستي العزيزة !

« يؤسفني جداً انك بدأت تحبينني . لا تحاولي الدفاع عن نفسك : رأيت ذلك بنظري الثاقب . ألستُ « العالم النفساني الكبير » ، على حد قولك ؟ ولهذا السبب خذي علماً باني تراجعت . لن اكتب اليك بعد اليوم . سأعيد اليك رسائلك دون ان افضها . واذا جئتِ الى باريس ، فسيقولون لك اني غائب . فتحتُ لك باباً على النور ، ثم اغلقته . انتشلتك من مسقط رأس العالم الزراعي الكبير « ليفاييه » ثم اعدتك اليه ، وطمرتك فيه . الوداع ، يا آنستي العزيزة ، كوني دائماً بصحة جيدة . اطلب اليك ان تفكري قليلاً ، وبرباطة جاش ، بما كان يمكن ان يحدث لو تسلمتِ مني هذه الرسالة . ألا تحيرين جواباً ؟ حسناً ، اني

اتولى عنك اعطاء الجواب . لو قرأتِ هذه الرسالة لقلت في نفسك فوراً : « يا له من خنزير ! وما اسخف هذه الصداقة التي اظهرها لي وهو قادر على تحطيمها في لحظة . ويا له من ابله مغرور ... يحسب جميع النساء يتهافتن للارتماء بين ذراعيه . هؤلاء هم الرجال . نحدثهم عن الصداقة فيحسبونها علاقة جنسية ، ثم يزعمون اننا نحن النساء لا نفكر إلا بالحب الجنسي » . اجل ، لو كتبتُ اليك هذه الرسالة لكنت عانيت الآلام نفسها التي تعانينها الآن ، ولكنت انت على حق . فلماذا احجمتُ عن توجيه هذه الرسالة اليك ؟ لاني ضننت بصداقتك التي لم اشأ ان اخسرها ؛ ولاني كنت اعلم ان صداقتي تساعدك ، واني اعتبر نفسي وحشاً ضارياً اذا طعنتك هذه الطعنة . فهل اكون قد اخطأت لاني لم اقطع علاقتي بك دون هوادة ؟

— لا ، لا ، اعلم حق العلم انك رجل طيب ...

— يجب ان تدفعي غرامة تكفيرية كلما تحدثتِ عن طيبتي .

— انك شرير !

قالتها وعلى وجهها ظل ضحكة .

وكانت قد بلغت من الحيرة حداً اصبحت معه لا تدري هل كوستال طيب او شرير . واخذت تظن انها هي المخطئة . إلا انها لم تدرك تماماً وجه الخطإ الذي وقعت فيه . فقد اختلطت الاشياء في ذهنها ، واشكل عليها الامر . وكل ما غدت تصبو اليه ان تكون في الفندق ، وحيدةً مع نفسها ، ترقُب اعتلاج كل ما سكب كوستال في اعماقها من السعادة والشقاء ، لترى في النهاية أيهما يطفو على الآخر : السعادة ام الشقاء . وجل ما كانت تريده ، قبل كل شيء ، ان تنجو من البرد الذي كاد ينخر عظامها . ولكنها لم تكن قادرة على الخلاص من البرد ، حتى ولو وصلت الى الفندق ، وقبعت في غرفتها . وجعلت تردد في نفسها كلمة قالها كوستال يوماً ، وهي : « البرد احد امراض الكرة الارضية » ،

وكلمة اخرى قالتها القديسة تيريز ، فبدت عادية للوهلة الاولى ، الا انها عميقة الغور في حقيقتها ، وهي : «انتم لا تعلمون مدى عذاب من يحتمل البرد طوال سبع سنوات» . وكانت اندريه متعبة حتى الارهاق ، فقد استغرق سيرها مع كوستال ساعتين ، فألقى العياء على عقلها غيمة سوداء ، وشرّد افكارها ، واحست بألم شديد في جفونها ، وبانها مهددة بالصداع بين دقيقة واخرى ، فراحت تقول في نفسها : « ما عساه يكون اثر هذا المساء في حياتي ؟ » ولم تشأ ان تضع حداً لوجود كوستال الى جانبها ، هذا الوجود الذي طالما تاقت اليه شهوراً طويلة في سان ليونار. كانت تفضل ان تنهار على رصيف الشارع خائرة القوى ، محطمة ، على ان تكون البادئة باعطاء اشارة الوداع ، وعلى ان تسمع كوستال يقول لها : « الى اللقاء ، يا آنستي العزيزة ، سأتصل بك يوماً ما » .

وفي هذه الاثناء كانا قد وصلا الى شارع « مارسو » ، فعصفت بها ريح الشمال المندفعة بقوة من الطرق والازقة المعترضة . وفي نهاية شارع «بطرس الاول » ، ظهرت جادة الـ « شانزيليزيه » كأنها وادٍ يغمره فيض من النور . واشتهت اندريه ، في قرارة نفسها ، لو يسير بها كوستال الى هناك ، لعلها تنعم بشيء من الدفء في غمرة الاضواء ، في الاختلاط بالناس ، والضجيج ، والحركة ، ومظاهر البذخ . وقد يدخلان الى احد المقاهي حيث يستمعان الى الموسيقى ، او تدله على محل تجاري عُرضت فيه اثواب في منتهى الاناقة ، ثمن الواحد منها ٣٩٠ فرنكاً ، لا يستطيع من يراها الا ان يحسبها من صنع احد كبار مصممي الازياء ... ولكن ، لا ! كيف تدله عليها ؟ فقد تبدو كأنها تطلب اليه ان يشتري لها واحداً منها... وبينا هي في هذه التأملات ، تبادر الى ذهنها ، وللمرة الاولى ، انه لم يفكر قط باهداء شيء اليها ، حتى ولا اضمومة من الازهار ثمنها بضعة فرنكات ، على الرغم من مرورهما بمحلات عديدة لبيع الازهار ، ومن وقوفها امام احدها لرؤية الانواع الكثيرة المعروضة للبيع.

لا ! لم يقدم اليها حتى اضمومة من ذلك البنفسج الذي اعتاد ان يقدمه الى «صديقاته الطيبات» ، على حد قوله . وعلى كل حال لم يسبق له ان قدم اليها شيئاً غير الكتب ، الا انه كان سخيفاً جداً في هذا المجال . وفكرت الفتاة في هذا الامر وهي تقول في نفسها : «أليس من البديهي ان يكتفي بالكتب ما دام يحسبني منصرفة كلياً الى الشؤون الفكرية دون سواها ؟ » وراحت تقاوم المرارة غير المنتظرة التي فجّرها في نفسها هذا التفكير المباغت ، واتهمت نفسها بالسذاجة والتبذل . اما كوستال ، في هذه اللحظة ، فكان قد ادار ظهره لـ «شانزيليزيه » ، لارض الميعاد التي كانت اندريه تتوق اليها ، وتوجّه من جديد الى احد الشوارع المقفرة ، كأنه يجد لذة خاصة في اللف والدوران ، في الذهاب والاياب دون سبب ، شأن ضيغم في قفص ، وفي ذلك الفرار الفوضوي الشبيه بما يجري في الاحلام المرعبة ، او في تصرفات من حلت عليه اللعنة ، فشرد شروداً اهوج مجنوناً ، لا غاية له ولا هدف ...

ولحقت به اندريه وهي شبه غائبة عن الوعي ، تعاني آلاماً مبرحة في ساقيها وفخذيها من شدة التعب ، وتمسح انفها المتقطر من شدة البرد ، وتقول في نفسها : « لا ريب في ان انفي قد احمرّ واصبح قبيحاً ! » وتعض شفتيها اللتين زمّهما الصقيع ، وتعاني حاجة جسدية ملحّة الى خلوة ... وفي هذه الازمة المريعة ، كان كوستال يلقي « مواعظه » التي لا تنتهي . وقد وردت كلمة «مواعظ» الى فكر الفتاة لشدة ما كانت متضايقة من رفيقها المتعب .

كان كوستال يقول :

-- تقولين ان الصداقة بين الرجل والمرأة ارض محرّمة ومحظور ولوجها ، لان المرأة مربوطة في نطاق القلب والعاطفة ، لا تستطيع الارتفاع الى مستوى انبل ، وأرهف شعوراً . فاذا صحت هذه النظرية وجب على الرجل ان يقطع جميع علاقاته الاجتماعية بالنساء الشابات

اللواتي لا يريدهن لفراشه الشرعي ، اي القسم الأكبر من النساء ، خوفاً من ان يخيّب رجاءهن فيه ؛ ووجب عليه ان يمر امامهن لائذاً بالفرار ، خفيض العينين كالتلميذ المبتدىء في مدرسة الرهبنة ، كأنه يقول لهن : « لا تمسسني ، يا سيداتي ، لئلا تحسبن اني احبكن ، وانا على مسافة الف فرسخ من هذا الحب ... اقولها بصراحة ولا اتعمّد الاساءة اليكن » ؛ او ان يتصرف على غرار فتيان القبائل الجزائرية : اخبرني احد ابناء هذه القبائل ان الفتى في قريته اذا بلغ الخامسة عشرة من العمر وبقي عازباً ، ارسله ذووه الى مدينة الجزائر ، كي لا يثير بوجوده شهوات بنات القرية ؛ واذا عاد الى القرية ، في بعض المناسبات ، لحضور مأتم ، او حفلة زواج ، او عيد ، كان عليه ان يصيح ، في رواحه ومجيئه : « طريق طريق طريق » ، لتختبىء الفتيات لدى سماع صوته ، وقبل وصوله الى جوارهن ، لانه يُعتبر خطراً كبيراً عليهن بالنسبة الى قدرته على اثارتهن جنسياً . ومنذ اليوم ، سأصبح انا ايضاً : « طريق طريق طريق » ، لتهرب الفتيات من طريقي ، او احمل جرساً وأقرعه كالمصابين بالجذام ...

وبعد سكوت قصير ، إطلق كلمة بالغة القسوة ، اذ قال : « الفتيات كالكلاب المشرّدة ، لا تكاد تلقي عليهن نظرة عطف ، حتى يحسبن انك تدعوهن ، وتريد اقتناءهن ، فيتهافتن عليك كما يتهافت الكلب الى ما بين قدميك ، ويضع قائمتيه على بطلونك » .

وراح يغزل حول هذا الموضوع ، ممعناً في التجريح والتحقير ، كما يفعل دائماً عندما يخاطب اناساً لا يكترث بهم ، او عندما يكتب اليهم ، فيقول كل ما يخطر في باله دون تحفظ . ولم تكن اندريه قد لمست هذه الناحية من طبعه في ما مضى من علاقاتها به . وكما ان مصارعي الثيران الاسبان لا يهتمون بمعاركهم سواءٌ أمنتصرين كانوا فيها او خاسرين إلا اذا جرت تحت سماء اسبانيا ، هكذا كان كوستال ، وهو الكاتب

بالفطرة ، لا يراعي قواعد الادب ، واللياقة ، إلا عندما يضع كتاباً . اما الاحاديث والمراسلات فكانت مجالاً رحباً لاستهتاره ، ولتماديه ، ولراحة اعصابه ، يقول فيها كل شيء ، ولا يقيم لها اقل وزن .

وفجأة توقف عن السير ، وخاطب اندريه قائلاً :

– أتفهمين ما اقول لك ؟

– بكل تأكيد !

– اما انا فلا افهم شيئاً مما اقول . فمنذ فترة لم يعد لحديثي اقل معنى ، لانه اصبح سلسلة من الجمل الفارغة . اذا كنتِ لا تحسين ذلك ، فما الفائدة من التحدث اليك ؟

وختم خطبته الطويلة قائلاً :

– وبالاختصار ، بما انك تعتقدين ان من واجبي ان اقطع علاقاتي بك ، واني قد اخطأت بالتأخر طويلاً ، فالمسألة في غاية السهولة ... لا استطيع اعطاءك ما تنتظرين مني . فلنقف عند هذا الحد . وليعتبر كل منا انه لا يعرف الآخر .

فصاحت بصوت عميق كأنه خارج من اعماق وجومها :

– لا ! لا ! لم يعد يجوز لك ان تتركني الآن . لا يمكن ان يكون كلامك جدياً . قل لي انك تمزح .

وردد كوستال في نفسه :

« لم يعد يجوز لي ! يا لها من مهزلة ! كنت اقول دائماً : اصعب ما في الاحسان ان المرء مكره على الاستمرار فيه » .

وكأنها ادركت ما يجول في خاطره ، فاستطردت قائلة :

– من يحب يرتبط ، ومن يُحسن يرتبط . لا يجوز لنا ان نحب الناس كما نتصدق سراً ، وان نرفض الدخول في حياتهم ...

– واذاً ، فلنبقَ حيث نحن الآن . ولكن اياكِ ان تتذمري بعد اليوم من هذه الحالة . انت اردتها .

ـ اعدك وعداً قاطعاً باني لن اتذمر من شيء ابداً . ولا اريد منك إلا شيئاً واحداً : ان لا اخسرك .

وبعد سكوت ، قالت بسرعة وحرارة :

ـ أتدري ما سبب هذه الحال ؟ سببها انك رجل تعوّد ان يهجر ، ولم يهجره احدٌ قط . هذه حقيقة احسها بكل جوارحي .

ـ هذا غير صحيح ، هُجرت مرتين وبطريقة بعيدة عن ابسط قواعد اللطف واللياقة .

ـ و ... هل آلمك الهجر ؟

ـ لا . رأيته عملاً طبيعياً . أليس من حق المرء ان يسأم امرءاً آخر ؟ لقد سئمت كثيرين في حياتي ، فغدوت ادرك شرعية السأم لدى الآخرين . وعندما ارى امرأة كانت لي معها علاقات حميمة استغرقت شهوراً فانقلبت عليّ ما بين ليلة وضحاها ، واسقطتني من حساب حياتها ، ولم تعد تشتهي الا ان تنفصل عني انفصالاً كلياً ونهائياً ، فاني اعرف بها نفسي .

لزمت اندريه الصمت ، واستولى عليها الوجوم ، فاذا بكوستال يقول بحرارة كمن تذكّر امراً خطيراً كان قد غرب عن باله :

ـ يا للشيطان ! يجب ان اتركك ، فانا مدعو الى تناول العشاء عند بعض اصدقائي في الساعة الثامنة ، ولم يبق لي من الوقت الا عشر دقائق.

ـ أنتقابل مرة اخرى ؟

طرحت هذا السؤال بعياء ظاهر ، وعجزت عن الاسترسال في الكلام ... عجزت حتى عن قول عبارات المجاملة المبتذلة التي يتبادلها الناس في مثل هذه الحال ، لانها كانت خائرة القوى ، وعلى شفير الانهيار.

اما هو ، فاجاب كعادته :

ـ طبعاً ، سنلتقي ، وساوجه اليك دعوة .

ـ لا تطل غيابك ... اذا كتبت اليك ، فأخشى ألّا تجيب . ثم انك

لم تشأ ان تعطيني رقم تلفونك لاتصل بك !

ــ أما قلتِ انك لن تتذمري من شيء بعد اليوم ؟

ــ عفواً !

ــ لو اعطيتك رقم تلفوني لما استطعتِ الافادة منه مطلقاً ، لان خطي مقطوع دائماً . فالسكوت الطويل الذي احيا فيه احياناً يطمئن نفسي ، ويكسبها قوة . أتدرين ما الذي أكرهني على اتخاذ هذا التدبير المزعج بالنسبة الى اصدقائي والى الذين يحتاجون الى مخاطبتي لتصريف بعض الاعمال ، والمزعج ايضاً بالنسبة اليّ لانه يفقدني فرصاً مهمة لها علاقة باشغالي ومصلحتي ؟ النساء ، ولا شيء غير النساء . مخابراتهن اليومية ، او نصف اليومية ، التي تستغرق كل واحدة منها ربع ساعة ، بدون اقل معنى او فائدة . وبين هؤلاء النساء فئة اخشاها بنوع خاص ، وهي فئة اللواتي يحببنني ولا احبهن . وكانت نتيجة قطع خط التلفون اني اتلقى ثلاث رسائل برقية كل يوم ، وكلها فارغة ، خالية من المعنى . ولا شيء في الحياة يضايقني ويقتلني قتلاً كالرسائل التي تصلني من اناس لا احبهم ، بينما انا على احر من الجمر بانتظار رسائل من احب . هيا بنا ، يا آنستي العزيزة ، والى اللقاء ، واحذري البرد .

وكانت لهجته قاسية ، ساخرة ، مدمرة ، فوقفت اندريه ساهمة ، ذاهلة ، وهي تحس انها تكاد تسقط غائبة عن الوعي ... ثم مدت اليه يدها على مهل كمن يستسلم للقدر المحتوم بدون اقل مقاومة .

وما كادت تبتعد عنه ، حتى دعاها صائحاً :

ــ هيه !

فتوقفت ، فدنا منها .

وكانت تتوالى على قسمات وجهه موجات من الشهامة والمكر والجد والمجون ويختلط بعضها بالبعض الآخر . وقد احس انه اكثر انطلاقاً واوسع معرفة منها ، وخيل اليه انه شبيه بكلب خبيث يقفز حول غنمة مروّعة ،

ويجد متعة خاصة في تعذيبها .

سألها بدون تمهيد :

- أخنازير انا ؟

- لا ادري . اتركني ... اتركني ...

- الوداع !

وابتعد عنهـا . فما كاد يسير بضـع خطوات حتى اشعـل سيكارة ، وخيّل اليه انه عاد عشر سنوات الى عهد الشباب لدى شعوره بانهـا لم تعد الى جانبه . فكل امرأة تمضي وتتركه وحيداً تكسبه عشر سنوات من العمر اذا كان لا يحبها ؛ اما اذا كان يحبها فان ذهابها لا يكسبه الا سنة واحدة او سنتين .



لم يغمض لأندريـه جفن تلك الليلة ، فراحت تتقلّب في سريرهـا وتحس ان كآبتها تتقلب معها يميناً ويساراً كأنها وقر مرهق ومتحرك في داخل جسدها . ومن حين الى آخر كانت تشعر بحاجة الى نقل ساقيها المتعبتين ، المتألمتين من الطواف الطويل المهلك الذي قامت به في اوائل الليل ، من مكان الى آخر . وكان غطاؤها قصيراً وضيقاً ، فلا تكاد تتحرك حتى ينكشف جـانب من جسدهـا ، فتحس (او تظن) انهـا بردانة . وفي الصباح ، بكت من الساعة السابعة حتى السابعة والدقيقـة الخامسة والعشرين . ثم جعلت تفكر بان كوستال عاملهـا بمزيج عجيب من الرقة والقساوة ، فلا بد من الوقوف على حقيقته ... على حقيقة ما يضمر لها .

بعثت اليه برسالة برقية قالت فيها انها بكت من الساعـة السادسة حتى الثامنة ، وتوسلت اليه ان يتصل بها تلفونياً حوالي الظهر اذ تكون في الفندق . ولما دفعت اجرة الرسالة لموظف البريـد ، وتركت له بعض النقود على سبيل الهبـة ، سمعته يغمغم بكلمـات مبهمـة في رثاء النساء المهجورات .

وأبى كوستال ان يتلفن . فقد ملأتـه رسالة اندريـه حقداً ، وكاد ينفجر غيظاً لمجرد وقوع نظره على خط الفتاة ، فراح يقول في نفسه : « انها لا شيء بالنسبة اليّ . لستُ مديناً لها بشيء . فقد اهتممت بهـا خمسين مرة : دعوتها الى تناول العشاء معي ، هـدرت في سبيلها ساعتين ونصف الساعـة ! — اجل ، ساعتين ونصف الساعة ! — وها انا ابـذل

قصارى جهدي لاخرج من هذا المأزق السخيف الذي ورّطتني فيه دون ان اجرحها ... ومع ذلك ، فها هي تطاردني برسائلها ... رسائلها المبلّلة بالدموع ! تريد ان اظل الى جانبها ثلاث ساعات متوالية كل يومين ... لا ! هذا اسراف لا يطاق . وسأعرف هذه المرة كيف أتخلص منها ...

وحوالى الظهر كتب اليها انه مضطر للسفر الى « بزانسون » في زيارة لعمه ، وانه سيكتب اليها لدى عودته .

واقامت اندريه تنتظر في غرفتها الكائنة في الطابق السادس من فندق حقير ، وقع اختيارها عليه لرخص تعرفته ، بعد ان زارت قبله ستة فنادق للسؤال عن اسعار المنامة . وكان الهواء البارد يدخل من جنبات النافذة المتفسخة ، والطاولة عرجاء قذرة تفوح منها رائحة كريهة ، وقد وجدت فيها قطع ملوثة من القطن ... فجلست بكآبتها على الكرسي الوحيد الموجود هناك ، الى جانب نار شحيحة من الحطب ، والقت معطفها على كتفيها اتقاء للبرد .

لم يخطر في بالها قط انه كان من المحتمل ان تصل الى هذا الدرك من البؤس والشقاء ، ولكنها ظلت تفكر بكوستال ، وتودّ لو تنفذ الى خفايا عقله لتدرك رأيه فيها !

كانت تعلم انها ستثيره برسالتها البرقية اليه ، ولكن ما الحيلة ؟ كانت عاجزة عن السكوت ، لا تقوى على الامتناع عن الكتابة اليه . وكان فكرها كالميزان المعطّل يتبدل توازنه بين دقيقة واخرى ، فيميل تارة الى هذه الجهة وطوراً الى تلك ، ويتجه فكرها حيناً الى البرد الشديد الذي هصرها هصراً بينما كانت تسير في الشوارع الموحشة ، وتسير ، ثم تسير كروح معذبة وهائمة على وجهها ، وهي تستمع الى اقوال كوستال فتحس كأنها خناجر تتحرك وتحز في جرح مؤلم عميق ، ثم يتجه الميزان حيناً آخر الى الجهة المعاكسة ، جهة الدقائق العذبة التي اعتبرتها اندريه فترة السعادة الوحيدة في حياتها ، لما تخللها من مداعبات كوستال الكلامية

الحافلة بالطيبة ، والرقة ، والجد ، ربما على غير قصد منه ، خصوصاً عندما كان يتألم لانــه محروم الابناء ، ويشكو كأنه يود لو يرثي الناس لحــاله . وفي هذه الغمرة من التفكير العاطفي ، كانت الفتاة تقول في نفسها : « كم كان مؤثراً في احاديثة عن امه ! أتراه فاتح امرأة سواي بمثل هذا الحديث ؟ »

وكما توهمت انه خصها دون سواها باخبار امــه ، بينما كان بالحقيقــة يخاطب نفسه ، لا اكثر ولا اقل ، كما يكتب لحسين الف قــارىء دون ان يهتم باحد منهم ، هكذا زيّنت لها احلامها انه ، لما صافحها ، احتفظ بيدها في يــده وضغط عليهــا عمداً . وكان يخيــل اليها ، في انفرادهــا الكئيب ، انها تسمع وقع خطاه في مشيته العسكرية على بلاط الشارع ، وانها تراه يستمع اليها وعلى شفتيه « ظل ابتسامة الهية » .

أتراه فكر مرة بالزواج بها ؟

لقد بدا لها هذا الافتراض ابعد احتمالاً مما كانت تحسب بالامس ، في فترات امعانها بالتفــاؤل ، فراحت تقول في نفسهــا : « اعرف اني غير جديرة بهذا الحظ ، واعرف ما يقوم بيننا من الفوارق حتى على الصعيد الاجتماعي الصرف . لست مجنونة ، ولا مغالية في التخيلات الوهمية . فلا بد ، اذاً ، من ان يكون حــدث شيء جعلني اظن ان هــذا الافتراض من الامور المحتملة ، على الرغم من اني لم احلم قط بهــذا الاحتمال ، حتى في اسعــد فترات التفــاؤل » . واسترسلت في هذا التفكير حتى غدت تشتهي بحرارة ان تكون الى جانبــه حتى ولو اضطرت الى السير معــه من جديد في الشوارع المظلمة ، الموحشة ، الى ان تخور قواها وتلتمس منه الرحمة . فالامر الذي كان يبدو لها مرهقاً ، كئيباً ، مفجعاً ، منذ دقيقة ، اصبح الآن مرجع رغبتها ومحط املها .

وفي الساعــة الحــادية عشرة والنصف نزلت الى مكتب الفنــدق ، وانتظرت مخابرة كوستال التلفونية ، وعينها على ساعتها ، كأن هذه الساعة تعبأ انظارها عبأ . ولكنه لم يتلفن . وفي الساعة الواحدة عــادت الى

غرفتها ، ولم تستطع ان تتغدى ، فأقامت تنتظر من جديد .

جاءت الى باريس لتمضي فيها شهراً واحداً ، ومع ذلك باتت تود لو يمر الوقت سراعاً ! وفي الساعة الثانية ، تلقت من كوستال رسالة برقية ، واحست قبل فضها انها تحتوي اكذوبة ، ثم قرأت فيها انه « غادر باريس ، ولا يدري متى يعود ! » ، فذهبت الى منزله ، في شارع « هنري مرتان » ، وسألت عنه البوّاب اولاً ، فأجابها :

– ان السيد كوستال هنا ، ولم يغادر باريس .

ولما صعدت الى الطابق الذي يقيم فيه قال لها الخادم ان كوستال سافر الى بيزانسون .

وفي اليوم التالي ، عادت الى شارع « هنري مرتان » ، لانها ارادت ان تعلم الحقيقة ، على الرغم من انه لم يكن لديها اقل شك بان كوستال هناك ، فرغبتها في البحث والاطلاع كانت اقوى من ارادتها . وقد احست بحاجة ملحّة الى قرار واضح ، حتى ولو كان مفجعاً ، لترتاح في اليقين او لتموت فيه .

وسألت الخادم من جديد :

– هل عاد السيد كوستال ؟

فأجاب : لا ، يا آنسة ، ولا ندري متى يعود .

لمضت في سبيلها ، وتاهت في الشوارع ، دون ان تقوى على مغادرة الحي ، وهي تبحث بانظارها في كل مكان عن كوستال ، وتجترّ في اعماقها هذه المرارة : هو هنا ، وهي هنا ، والايام تمر في نوى لا يقل قساوة عن الوحشة التي كانت تغمرها في سان ليونار . وغداً ستعود الى هناك ... ستعود في جهمة الظلام الى جحيم الانفراد والقنوط ...

وراحت تلتقل من شارع الى آخر ، لا تلوي على شيء ، كأنها ما خُلقت إلا للتيه في الشوارع . ولم يكن سيرها الحثيث للبحث عن كوستال بقدر ما كان افيوناً تخدر به شعورها ، وتسكّن آلامها . فلو

بقيت وحيدة في غرفتها بالفندق لكان من المحتمل ان تنتابها ازمة عصبية حادّة .

وفي اثناء تجوالها الطويل ، دخلت كنيسة لا تعرف اسمها ، وبقيت فيها زهاء الساعة ، وهي ترتجف من البرد وتردد : « اواه ! ان الله لا يستطيع ان يعذّب اكثر من الرجل » . وكتبت هذه الجملة على ورقة وجدتها في حقيبتها ، ثم اشترت غلافاً وضعتها فيه وراحت الى بوّاب كوستال .

دارت اكثر من ساعة حول البيت . وكانت ، في ما مضى ، كلما جاءت الى باريس ، تمر كل مساء تحت نوافذ كوستال لترى هل هي مضاءة . واصفرّ وجهها فجأة ، اذ رأت رجلاً حسبته هو ، ثم مرت الى جانب متجر ورأت وجهها في المرآة ، فهالتها قباحة سحنتها ، وتمتمت تخاطب نفسها : « يا الهي ! ماذا فعلتَ بي ؟ من تكون هذه الغريبة التي وقعتْ عليها عيني ؟ » والجدير بالذكر انها لم تفكر بالله عندما كانت في الكنيسة .

وبينما هي سائرة على غير هدى ، التقت بائعة بنفسج ، فاشترت منها اضمومة وهي تقول في نفسها : « احملها اليه لاكون اكرم منه » . ثم صعدت الى منزل كوستال ، ووضعت الاضمومة على عتبة الباب . وبينما كانت عائدة ادركت ان تقدمتها ستكون وبالاً عليها ، وان الخادم سيهزأ بها عندما يجد الاضمومة . ففكرت بالرجوع لاستعادتها ، ولكنها فكرت ايضاً بان البوّاب سيلاحظ مجيئها للمرة الخامسة في يومين ... فلم تجرؤ على العودة .

ولما بدأ الليل يرخي سدوله ، سارت ، وهي ترتعد من شدة البرد ، الى محطة « الميترو »[1] . وكم كانت تود لو تركب سيارة تكسي ! ولكن

---

١ ـ قطار كهربائي يسير في انفاق تحت الارض .

المسافة الى الفندق الذي تقيم فيه بعيدة ، واجرة السيارة لا تقل عن اثني عشر فرنكاً . وهكذا كانت حياتها كلها توقفاً في غمرة الانواء العاطفية العاصفة ، لحساب الفرنكات وتقنين النفقات .

وفي « الميترو » ، اخذ الناس ينظرون اليها : فالكآبة تظهر للعيان كالثياب . واحست انها تذوب رقة ، وشفقة ... وانها خائرة القوى ، ضعيفة ، مغمورة ، فوقفت وقدمت مكانها لعجوز كان واقفاً الى جانبها . وكانت هذه البادرة عفوية ، خالية من التفكير ، لان اندريه كانت في شبه غيبوبة ، لا ترى شيئاً .

وانتقلت الى خط آخر من خطوط « الميترو » وهي ذاهلة ، شاردة اللب ، وقد هالتها تلك الدياميس المظلمة تحت الارض بقدر ما هالها تهافُتُ الناس الى الحافلات ، وانغلاق الابواب آلياً في وجوه المتخلفين ، واحتشاد الجماهير في فوضى مخيفة كأن الناس قطيع خنازير تنقله الآلات في احد المصانع الاميركية ...

وما كادت تخرج من الحافلة حتى خيّل اليها انها على وشك السقوط غائبة عن الوعي ، فقد ارهقها تعب لا يوصف من جراء تفكيرها المضني ، وسهرها طيلة الليل . ولم تكن قد تناولت طعاماً منذ الصباح ، فشعرت انه لم يبق لها من مسعف سوى دقات قلبها .

وأحست بألم حاد في جفونها ، وبأن كل ما فيها من قلق واضطراب قد تجمّع ألماً مبرحاً في عينيها . فدخلت احد المقاهي وطلبت فنجان قهوة ، على الرغم من انها كانت تخشى ان يحسبها الناس بغيّاً شاردة . وكان هناك جمهور من العمال مزدحمين الى جانب منضدة المقهى ، فاضطرت الى الوقوف وراءهم ، والى مدّ يدها من بينهم لتتناول فنجانها . وحسبت انه لا يجوز لها البقاء واقفة في ذلك المكان ، إلا ان احد العمال نظر اليها ، وابتسم لها ، فسرّي عنها . ولكن ارتياحها لم يدم سوى لحظة عابرة ، فما ان خرجت من المقهى حتى بدأت آلامها تزدحم في صدرها

من جديد .

ولما وصلت الى الفندق تبين لها ان زجاجة العطر التي كانت لديها قد سُرقت ، وكانت من النوع الفاخر ، ثمنها اربعون فرنكاً ، فانتابتها غصة عميقة ، لأن ذلك العطر كان عزاءها الوحيد ، وكانت تنشق منه ملء صدرها كلما تراكمت عليها الهواجس والآلام . وعلمت ايضاً من الخادم ان اجرة غرفتها ارتفعت ثلاثة فرنكات زيادة على المبلغ المتفق عليه ، لأنها « انيقة المظهر ... » فخيل اليها انها تجتذب الضربات من كل جانب ، كالدجاجة الجريح التي تنقرها جميع الدواجن في المزرعة .

لو تسنى لها ان تكون سعيدة لبذلت مئات الفرنكات بكل سرور في يوم واحد . اما وانها تعاني الشقاء ، فقد آلمها ان تبذل مالها — ان تخسره ، حتى انها ، في بعض الاحيان ، فكرت بمغادرة باريس ، لا لشيء الا لتسد هذا الثقب الذي يتسرب منه مالها .

وبكت . الا ان ذرف الدموع في حال من الشك هو ضرب من الغباء ! فستجد متسعاً رحباً للبكاء في آخر المطاف ، عندما ينتهي كل شيء . وانتهى بها هذا التفكير الى الظن ان كوستال يجربها ، ويعذبها تعذيباً خالياً من سوء النية ، ليبهرها بعد قليل بفيض من المسرّات ينسيها ما عانت من الشقاء . ولكي تتشبث بخيط من الامل ، راحت تطبق على كوستال قول شافينيي في كتابه « هوى »[1] : « انه قاس ، ولكنه ليس شريراً » . وظلّت تهوّن الامور على نفسها حتى غدت تجد بعض الخير في عذابها . وكانت هذه التجربة الاخيرة حاسمة ، جعلتها تعرف معرفة اليقين كم تحب هذا الرجل ، ومن اي نوع هو حبها ، ما دامت

---

١ ـ تيودور شافينيي (١٦٨٧ — ١٧٧١) ديبلوماسي فرنسي . عين وزيراً مفوضاً لفرنسا في راتسبون عام ١٧٣١ ، وتولى المفاوضات التمهيدية لعقد معاهدة فرنكفورت بين فرنسا والمانيا .

تتحمل في سبيله كل هذا الشقاء . وتبين لها انها لم تحقد عليه قط ، ولم يساورها شيء من الغضب حتى في افظع فترات الشك بصدقه وسلامة نيته ، وانها تحبه بكل قواها بدون ان تفهم دوافع هذا الحب . وكانت تقول ايضاً : «كل ما يمكن ان اعاني من الشقاء بعد الآن سيكون نعيم الفردوس بالنسبة الى هذه الايام » . وبالرغم من الصداع الشديد الذي لم يفارقها لحظة ، ولم تخففه جميع المسكنات ، عزمت على ان تكتب الى كوستال رسالة طويلة ... على ان تخربش ، وتخربش لتسوّد الورق الهادىء تحت يدها . ولكن المصباح الكهربائي كان عالياً وضئيل النور ، فاضطرت الى العدول عن الكتابة .

وفي الساعة الثامنة الا ربعاً من صباح اليوم التالي ، سمع كوستال جرس بابه يرن ، ولم يكن الخادم يأتي الا في الساعة الثامنة ، وهو يحتفظ بمفتاح البيت . فترك كوستال المغسل ، وجاء الى غرفة الانتظار المحاذية للباب ، ووجهه مكسوّ برغوة الصابون ، وسأل من خلال الباب المقفل :

— من هنا ؟

— انا !

— من «انا» ؟

— اندريه .

— اندريه ؟ لا اعرفك .

لقد عرفها حق المعرفة ، الا انه اراد ان يعاقبها على مجيئها وقرع بابه في الساعة الثامنة الا ربعاً ، وعلى تلك العبارة : « لا يستطيع الله ان يعذّب اكثر من الرجل » ، وعلى وضعها اضمومة البنفسج على عتبة الباب كما توضع الازهار على الاضرحة ! ففي هذه الاعمال ما يجعله مهزلة في نظر جيرانه . وكان قد عفّر اضمومة البنفسج بغضب شديد بين اصابعه ، وطرحها في تنكة الزبالة ...

وارتفع صوت الفتاة من جديد يقول :

— انا اندريه هاكبو .

— لا استطيع ان افتح لك . عدتُ الى باريس مساء امس ، ولم احلق ذقني بعد .

— لا بأس ! اتوسل اليك ان تفتح لي .

— يجب ان تقولي : « افتح لي اكراماً لله » ، كما يقول المتسوّلون .

— افتح لي اكراماً لله !

— كنت اود لو افتح لك ، ولكني عارٍ من الثياب .

— أترفض ان تستقبلني ؟

— اجل ، ارفض في هذا الوقت .

— أهذه كلمتك الاخيرة ؟

— لا تتعبي نفسك .

— حسناً . ساركب قطار الساعة الثامنة والدقيقة السادسة والخمسين ، واعود الى سان ليونار ، فلا يبقى هنا ما تخشاه من شري .

— لا ، لا ! لا تبالغي الى هذا الحد ... ساتلفن لك الظهر .

— اجل ، كما تلفنت منذ ايام ! الوداع !

وسمع وقع قدميها وهي تبتعد . ثم شق البـاب ، وهو يسائل نفسه أتكون قابعة تنتظر على السلم . فلم يرَ احداً ، بل وقعت انظـاره على آثار قدميها المبتلتين بالقرب من الباب ، وقد ارتسمت في كل اتجاه كآثار حيوان مطارد كان يدور في مكانه ، ولا يدري كيف يفر لينجو بنفسه .

وفي الساعة الحـادية عشرة ، تلفن كوستال الى الفنـدق وهو يزفر متبرماً ، فقيل له ان اندريه سافرت بعد ان سددت حسابها ، فأحس ، للوهلة الاولى ، بارتياح عميق ، إلا انه ما عتم ان شعر بتبكيت الضمير ، وتذكر ان الفتاة كانت تنوي ان تقيم شهراً في باريس ، وانها كانت تعقد على هذه الاقامة اطيب الآمال !

ولم يصعب على كوستال ان يدرك كم تألمت اندريه ، وكم عانت من

الهموم ، وهو الروائي المحترف الذي يشعر شعور ابطال رواياته ، وينغمس في حياتهم ، فكتب اليها :

آنستي العزيزة !

كان سفرك المفاجىء لغزاً بالنسبة اليّ . ولا اصدق انك استأت لاني أبيت ان اقابلك في الساعة السابعة والنصف صباحاً . لقد حظّرتْ عليّ امي يوماً دخول غرفتها ، وكنت مرهف الشعور ، فتأثرتُ ، ورحت اسائل نفسي : « بمَ اسأت اليها ؟ » ولما عادت امي في المساء ، استقبلتني ، وعانقتني ، ولم يتبدل شيء من معاملتها لي ، ولكنها رفضت ان تبوح بسبب منعي من دخول غرفتها . وبعد انقضاء سنوات اطلعتني على ذلك السبب : لم تكن لديها بودرة ، فأبت ان تقابلني وهي غير مبودرة الوجه ، مع اني كنت في الرابعة عشرة من العمر . ولما احست بدنو الاجل اوصت بان لا يسمح لي بدخول غرفتها ، بعد وفاتها ، إلا بعد ربط فكيها الاسفل بمحرمة ، كي لا اراها فاغرة فاها ، وانا ابن هذه المرأة . وقد تزعمين اني لست أبله الى هذا الحد ، مع اني في بعض الامور بعيد كل البعد عن البساطة . فلو كنتِ هذا الصباح تحترقين في اللهيب على سلم منزلي ، لما فتحت الباب لاغيثك ، لاني لم اكن قد حلقت ذقني بعد . وثقي باني لو كنت عارياً من الثياب ، كما قلت لك ، لما همني الامر ، فانت تعرفين ، ولا ريب ، كيف هو جسم الرجل ، وقد رأيتِ تماثيل كثيرة عارية ، ثم اني لم اكن عارياً كما زعمت ، بل كنت ارتدي ثياب النوم .

ان سفرك المفاجىء العجيب حرمني متعة مصاحبتك الى معرض « كلود مونيه » ، لاني كنت عازماً على زيارته معك ، وكنت اتوقع ان اجني من هذه الزيارة سروراً حقيقياً . لك من القلب .

قرأت اندريه هذه الرسالة ، فوجدت فيها كوستال كما عرفته تماماً ،

بلطفه ، ومداعبته ، وحق بتلك النزعة المستترة الى خلع العذار ، وقد ابتسمت اندريه لها دون ان يساورها شيء من الاضطراب ... ثم هذه الاشارات الى اخباره مع امه التي خلّفت في نفس الفتاة اعمق الأثر... إلا انها لم تندم على عودتها الى سان ليونار ، لانها ادركت ، بالحدس ، انها لو بقيت في باريس لظل يمعن في تعذيبها . اما هذه الرسالة فكانت بالنسبة اليها نسمة منعشة حلّت عقدة كبيرة من آلامها بقوة سحرية . ولما كان فكرها مشبعاً بكتب كوستال ، تذكرت جملة قالها بطل احدى رواياته ، وهي : « البعاد يقرّب » ، فلماذا يفهم هذا الرجل كل شيء فهماً كاملاً في رواياته ، ويتظاهر بانه لا يفهم شيئاً في الحياة ؟

ما انقضت بضعة ايام على عودة اندريه الى سان ليونار ، حتى كان كوستال في « كان » وقد جلس صباحاً في منزل مشرف على البحر ، فاذا بالمياه تبدو أشدّ زرقة بعد هدوء الانواء التي عصفت في اليوم السابق . وقد اكبّ كوستال على كتاب بين يديه هو : « البحث عن الحقيقة » لمالبرانش[1].

وارتفع في الغرفة المجاورة صوت ولد يغني ، فرفع الكاتب رأسه ، فلما سمع ابنه يغني ، خيّل اليه ان البيت كله يطير ويرفّ في الجو . وفي بعض الاحيان كان كلّ من الأب والابن يغني على حدة في طابقين مختلفين من المنزل . اما هذه المرة فاستمع الاب قليلاً ، ثم لم يستطع صبراً ، فسار الى غرفة صغيره .

وما ان فتح الباب حتى صمت الولد ، وتظاهر بانه غارق في النوم . فادرك كوستال ان الولد يداعبه بهذه الطريقة اسوة باكثر الاولاد الذين هم في مثل سنّه ، لأنه في ذروة المراهقة ، وسيبلغ الخامسة عشرة بعد ثلاثة اشهر . إلا ان نزوات فيليب كانت عابرة ، سريعة الزوال ، تنتهي بين يوم وآخر ، على الرغم من تصلبها حتى العناد في اثناء ثورتها . ولو لم

---

١ ـ فيلسوف لاهوتي فرنسي من رهبان القديس فيلبس النيري ، توفي سنة ١٧١٥ . وضع مؤلفاً ضخماً في فلسفة ما وراء الطبيعة المستمدة من مذهب « ديكارت » ، وجد حلا لمسألة التناسق بين الروح والجسد باتحاد الروح بالله . كان متفائل النزعة ، يرى في النظام اساساً لمتانة الاخلاق .

يكن كوستال قد سمعه يغني لعلم بسهولة انه غير نائم من مجرد النظر اليه ، لأن وجهه كان جافاً ، وهو الذي يتبلل دائماً بالعرق في اثناء النوم ، فخاطبه قائلاً :

– افتح عينيك ، يا جحش ، او القي رماد سيكارتي على وجهك .

وجلس الوالد على السرير ، ثم هبّ واقفاً ، وقد احس بوخزة ... فرفع الغطاء ورأى في يد فيليب شيش المبارزة . وكان الولد قد اكتشف هذا النوع من المبارزة منذ خمسة عشر يوماً ، فتحمس له وراح ، في غمرة حماسته ، ينام وشيشه الى جانبه ، كما كان « الكردينال دي مايّيه » ينام مع كمّته على اثر سيامته كردينالاً حسب قول سان سيمون[1].

وجلس كوستال من جديد آخذاً يدي ابنه بين يديه ، فاذا هما ، كالعادة ، غير نظيفتين ، إلا ان اصابعهما طويلة صافية ، فيها معنى النقاء .

وتذكر كوستال انه اراد يوماً ان يقرض الشعر فكتب :

« الاولاد الصغار ذوو الايدي العريضة الصافية ... »

وانحنى على يدي ابنه فلثمهما .

وكان الولد سفيع الوجه لوّحته الشمس ، اسود الشعر ، وعلى ثيابه لطخات شوكولا . وقد امعن في التظاهر بالنوم ، وابى ان يفتح عينيه . وكانت حول سريره كمية مبعثرة من النقود المعدنية ، كان يحب ان يضعها في جيبه ، ويرنها على سبيل المباهاة بين رفقائه . وكانت الى جانب النقود اشياء كثيرة منها مشط مكسور ، ومرآة مكسورة ، وقلم حبر مكسور ، ومحفظة نقود فارغة ، وقارورة عطر فارغة ، وكل ما يحب

---

١ ـ كاتب فرنسي وضع مذكرات حافلة بالاسرار ، سرد فيها حياة مجتمعه من سنة ١٦٩١ الى سنة ١٧٢٣ . تحدث كثيراً عن البلاط ، ورجال الحكومة ، والارستقراطيين ، واشتهر بالبيان المشرق وبسداد الرأي . إلا ان اعتقاده بتفوق الطبقة الارستقراطية افسد جانباً من آرائه ، على حد تعبير معجم « لاروس » .

الاولاد ان يضعوه في جيوبهم . وكان هنـاك ايضاً قفل ، لأن السيد فيليب يعطف عطفاً خاصاً على الارانب ، ولا يرضى بان تُذبح لتؤكل ... فرأى ان يقفل قفصها بيـده ، حتى اذا اراد الطاهي ان يضع للارانب طعامها ، كان عليـه ان يأتي الى فيليب ليفتح له القفص . وبعـد وضع الطعام كان الولد يقفل القفص من جديد امعاناً منه في الاحتياط .

وفجأة ، نهض فيليب ، وقبض على رأس ابيه ، وشدّه اليه ، وقبّله ، ثم ضمّه بقوة بين ذراعيه ، كأنه يريد ان يصارع مظهراً قوته ، لا ان يداعب . وجرت بينهما مهارشة طويلة ، لان فيليب كان يحب هذا النوع من اللعب لتدفق ما فيه من النشاط والحيوية . وكلما حذّره كوستـال من تحطيم الاثاث ، او تمزيق الوسائد ، كان يجيب : « هـذه تفاصيل لا اهمية لها » . وكانت هذه العبارة من العبارات التي اعتاد ان يرددها بعض الوقت ، في كل مناسبة ، لينساها بعد ايام ويبتكر غيرها . وفي النهاية انتصر الولد ، فبطح اباه واضعاً ركبتيه على كتفيه ، ثم انحنى عليه وجعل يعض انفه بطرف اسنانه ، فصاح كوستال :

– انك تؤلمني ، يا ابله !

وابتهج فيليب قائلاً :

– انه يتألم ! يتألم ! اوه ! يا له من ركيك !

ورفع يديـه الى رأسه ، جاعـلاً منهما قرنين ، على سبيـل السخرية البريئة .

واخيراً ، بدأ الهدوء يسود الغرفة ، فعاد فيليب الى فراشه وتوارى تحت الغطـاء ، وتمدد كوستال الى جانبـه وعاد الى قراءة كتـاب « مالبرانش » .

رزق كوستال هذا الولد غير الشرعي لما كان في العشرين من عمره . واختار لينجبه امرأةً اعترفت في شهادة الولادة بانها زانية كي لا يكون لها اقل حق في الحضانة . ولـما بلغ فيليب السادسة من العمر ، عهد

كوستال بتربيته الى صديقة له عجوز تدعى الآنسة « بيرون دي لارشان »، وكانت عانساً خمسينية ، فأحبت الولد كأنها امه بدون ان يكون حدبها عليه على شيء من تلك الميوعة الضارة التي تشوب حنان الامهات . وقد احبت كوستال ايضاً كأنه ابنها ، ولكن حبها هذا ظل بعيداً عن الغرام ، ما اكسب عاطفتها متانة وطهارة نادرتين . وكان كوستال قد دبر الامر بهذه الطريقة كي لا يكون لاحد سواه اقل حق على ولده ، لاقتناعه بان تأثير الامهات على ابنائهن وخيم العواقب في اغلب الاحيـان . وكثيرون من المربين والعلماء الاجتماعيين يقولون بهـذا الرأي ، إلا انهم لا يجرأون على الجهر بـه ، خوفاً من الاصطدام بالآراء المألوفـة ، وخوفاً من اثارة نقمة الامهات عليهم .

وكان فيليب يقيم حيناً في مرسيليا ، وحيناً آخر في كان ، فيذهب كوستال اليه ويمضي معه عشرة ايام من كل شهر . وقد اكتفى الوالد بهذه الفترة القصيرة لانه عصبي المزاج ، يعلم حق العلم ، وعن طريق الاختبار ، انه لا يستطيع ان يحب امرءاً يساكنه باستمرار ويراه الى جانبه كل يوم . اما الطريقة التي دبرها لتحديد علاقاتـه بابنه ، فقد اعجبتـه ، واثبتت طوال خمسة عشر عاماً انها هي الطريقة الفضلى ، ولكنها ليست برهاناً قاطعاً على صحة رأي كوستال في هذا الموضوع .

وكان كوستال يُلقب فيليب بالـ « أسمر » على سبيل التحبب وبالنظر الى لونه . اما فيليب فكان يدعو اباه « دين » ، ولا يدري احد لماذا ، ومن اين اشتقت هذه الكلمة . وعلى الرغم من بلوغه الخامسة عشرة ، كان يبدو طفلاً بنضارته ، وصوته ، وطباعه ، إلا انه كان نبيهاً ، متفتح الذهن . واذا كان متأخراً جسدياً ، فانه كان ولا ريب مبكر النضج من حيث الادراك والفكر وسعة الخيال . لم يكن مراهقاً بالمعنى الصحيح ، بل سابق الاوان بتفتحه للحياة ، والفرق بين الحالين واضح . كان يوماً في باريس ، وهو في التاسعة من عمره ، فانفق كل ما كان يحمل من النقود ، ولم يبق معه

حتى اجرة « الميترو » ليعود الى البيت ، فراح يغني للمارة مستجدياً ، حتى جمع ما يلزمه من المال . ولما بلغ الحادية عشرة ، ثقب باب المغسل ليرى الآنسة بيرون تخلع ثيابها . فاستنتج كوستال ان ابنه لم يولد بريئاً ... وتذكر انه هو ايضاً لم يكن بريئاً في مثل سنّه .

ولم يكن فيليب ولداً ثائراً ، ولا شريراً ، ولا ثقيل الظل لاسترساله في الطيش والدلال كغيره من الاولاد الذين يستيقظون باكراً مكفهري الوجوه فيضطرونك الى التساؤل هل من المستطاع احتمالهم طيلة النهار . كانت له اطوار على شيء من الغرابة والخفة ، إلا انه كان شريفاً . لم يكن طاهراً ، انما كان سليم الخُلق والخَلق ، يروح ويجيء في خطوط متعرّجة ، ولكن بدون ان ينحرف عن الصراط المستقيم . وقد عُرف بالنزاهة ، ورهافة الشعور ، وطيبة القلب ، والذكاء ، إلا ان ذكاءه كان سطحياً ، يلمّ بالاشياء الماماً سريعاً عابراً . وعبثاً حاول كوستال اعطاءه فكرة عميقة عن الحياة والكون ، وتنشئته على ذلك النوع من الدماثة المريحة التي يتسم بها الاولاد البعيدون عن الرياضة البدنية . وعلى الرغم من انه كان يبدو للوهلة الاولى فاسد الخلال كأكثر الاولاد الفرنسيين في ذلك العام ١٩٢٨ ، فقد كان بالحقيقة بعيداً كل البعد عن الدناءة ، لا يضر باحد ، ولا يرتكب اعمالاً قبيحة سافلة .

ان الطريقة الفضلى لاكتساب ثقة الولد وصداقته هي ان لا تكون اباه . ولكن الـ « أسمر » كان يفتح قلبه لابيه اكثر مما هو مألوف بالنسبة الى الاولاد الآخرين ، ولم يكن يكذب إلا قليلاً ، اقل مما تتطلبه الاحوال العادية . ولم يكن كوستال يفهم ابنه دائماً فهماً كافياً . وكثيراً ما كان يتضايق من هذا النقص وينقم على نفسه . ان خبرته الواسعة في الحياة جعلته يفهم النساء ويدرك ردة كل امرأة في حال معينة ؛ اما بالنسبة الى فيليب ، فكان يقف متردداً ، ويتوقع حدوث مفاجأة . قد يكون مرد ذلك الى ان النساء متشابهات ، يتّبعن اساليب تقليدية

واحدة في الحياة[1] ، او الى قلة اهتمام كوستال بهن ، واعتقاده بانهن غير جديرات بالدرس والتحليل ، لانهن في نظره اقل عمقاً وتعقداً من الرجال ، خصوصاً في ايام الحداثة . ولا سبيل مطلقاً الى المقارنة بين الصبي والبنت ، فالبون بينهما شاسع . وقد صدق من قال : « على الرجل ان يختار احد امرين : ان يحب النساء او ان يفهمهن » . وقد يكون صاحب هذه الحكمة فوفنارغ او شانفور[2] . وقد اختار كوستال الطريق الاول ، فراح يحبهن دون ان يحاول فهمهن ، وحتى دون ان يسائل نفسه هل فيهن ما هو جدير بالتفهم .

وارتفع صوت فيليب فجأة :

— يا « دين » !

— لا تزعجني ، دعني اقرأ مالبرانش .

— انك تضايقني ، انت ومالبرانش ! اسمع : رأيت هذه الليلة حلماً جميلاً .

— كيف كان حلمك ؟

— حلمت باني آكل عجة ببندورة .

— أبمثل هذه السخافة جئت تزعجني ؟ حقاً انك كالمغص ، لا تطاق !

— ارى انك توبخني . ولكنك انت المغص ، لا انا ...

---

١ ـ قال « البرنس دي لين » : « النساء متشابهات جداً في فرنسا ، يلتهجن طريقة واحدة في ابراز المفاتن ، في دخول غرفة الوصال ، في الكتابة ، في الحب ، في الخصام . ومهما تنقل الرجل في مغامراته الغرامية ، يخيل اليه دائماً انه لا يمتلك الا امرأة واحدة » . ـ المؤلف .

٢ ـ « فوفنارغ » كاتب فرنسي من علماء الاخلاق ، توفي سنة ١٧٤٧ ، متفائل النزعة آمن بطيبة الطبيعة البشرية وصلاحها . و « شانفور » من علماء الاخلاق الفرنسيين توفي عام ١٧٩٤ . اشتهر بنقده اللاذع وشدة وطأته . طارده رجال الثورة فانتحر .

وعادا الى المهارشة . وبينما كانا يتعاركان اقترب وجه فيليب حتى اصبح على مسافة عشرة سنتيمترات من وجه ابيه ، فتوقف عن الحركة ، وجعل ينظر الى وجه ذلك الاب بكل انتباه ، ثم قال :

– انظر اليك ، لاني اكاد انسى وجهك . وامس في محطة القطار ، ساءلت نفسي هل اعرفك عندما تنزل من الحافلة . ومن حسن الحظ اني تذكرت شكل معطفك ولونه . فهو معطف قبيح من الصنف الرخيص . حقاً انك عديم الذوق . ومنذ هذا اليوم يجب ان اصحبك عندما تذهب لشراء ثيابك .

وقال كوستال في نفسه : « انه مثلي ينسى الوجوه » . وقد كان كوستال ينسى وجوه عشيقاته واصدق اصدقائه ... ينسى كل شيء . وعندما كانت تنعكس عليه من ولده احدى مزاياه كان يساوره القلق ، فيحاول تهوين الامر على نفسه قائلاً : « لا بأس ! انه شهم شريف ، وانا احبه . وهكذا نستطيع التفاهم دائماً » . ولا ريب في ان تفكيراً كهذا لا يخلو من المبالغة في التفاؤل .

وفي تلك الاثناء ، كان الـ « أسمر » يواصل النظر الى وجه ابيه بامعان ، ثم قال له : « احبك بقوة ، فأنت رجل طيب ! » وعانقه بحرارة ، وقبّله . فبادله كوستال العناق والتقبيل ، ولكن بفتور ، كأنه يقوم بواجب المجاملة بدون رغبة ، فتعجب الولد وسأل :

– أهكذا تقبّل النساء ؟ أرني كيف تقبل النساء !

– ششت ... يا ولد ! رويدك ! رويدك !

– هل قبّلت نساء وانت في الخامسة عشرة من العمر ؟

– طبعاً !

– وانا قبّلت « فرنسين فينون » . قالت لي : « قبلني ، ادفع عنك اجرة السينما » ، فقبلتها .

– اين قبلتها ؟

- هنا (واشار الى مكان من خده) .

- وهل احسستَ بشيء من المتعة ؟

فجعل الولد يحدج اباه بنظرة استياء كأن افتراض تلذذه بمثل هذه القبلة اهانة كبرى موجهة اليه ، ثم قال :

- رويدك انت هذه المرة !

- يوم تجد في تقبيل « فرنسين فينون » شيئاً من اللذة ، اخبرني فوراً ، فعندئذٍ يجب ان اقول لك كلمتين .

- ساخبرك بكل تأكيد . ولكننا الآن على خلاف ، فقد طلبتْ الي ان اعطيها عشرة فرنكات ، فصفعتها .

- تدفع عنك اجرة السينما ، وتبخل عليها بعشرة فرنكات ؟ هذه معاملة منافية للاصول .

- هذه تفاصيل لا اهمية لها .

وبحث كوستال في جيبه عن علبة السواكير ، فوجد علبة حبوب « روح النعنع » . وكانت هذه من المفاجآت التي يعدها له فيليب دائماً ، فلا يمضي اسبوع دون ان يدس في جيبه هدية ما : علبة ملبس ، او علبة سواكير ، وما اشبه ...

واشعل كوستال سيكارة ، ثم اعطاها لفيليب الذي امتص دخانها ثم نفخه في رأس ابيه ، فاسرع الوالد واعتمر بقبعة ابنه ، ثم رفعها بعد قليل ، فاذا بالدخان يتصاعد من رأسه ، كأن في جمجمته حريقاً . وانفجر الولد ضاحكاً من شدة السرور كأنه يرى هذه اللعبة للمرة الاولى ، مع انها قديمة وتقليدية ، فطالما شوهد دخان العبقرية يتصاعد من رأس الكاتب الكبير !

وتأسف فيليب قائلاً :

- مسكين انت ، يا دين ! اني اضيّع وقتك .

- لا ، فوقتي لا يضيع عندما اكون معك .

واستلقى كوستال من جديد على سرير ابنـه ، وترك « البحث عن الحقيقة » جانباً ، وراح يقرأ ، من وراء فيليب ، في مجلة «كري كري» المصورة التي تصدر خصيصاً للاولاد . وفي اثناء القراءة ، كان الولد ينفجر ضاحكاً من حين الى آخر . فهو يبحث دائماً عن ذريعة للضحك ، ويجد هذه الذريعة في ابسط الاشيـاء ، ولا يعتبر القراءة قيّمة الا اذا كانت مضحكة . وبعد الضحك ، كان يدير الى ابيه وجهه الاسمر الشامخ على قمة وجوده ، ويبتسم كاشفاً عن اسنان ناصعة البيـاض ، منتظمة الصف كاسنان القطط ، تذكّر بالثلج على قمم الجبال . وكانت طيبته كلها ترتسم على وجهه في تلك اللحظات السريعة . وخلال الساعة الكامـلة التي كان قد امضاها مع ابيه ، لم ينقطع عن الضحـك ، فهو مزيج متناسق من اللطف والمرح الطلق المشع ، ولا يصعب على من يراقبه ان يدرك فوراً انه ولد سعيد لانه متحرر من عبء والديه . وكانت هذه الحال تنسجم مع طبع كوستال الميّال هو ايضاً الى المرح الدائم ، وهـذه مزية اكثر رجال الفكر والقلم .

واطل من باب الشرفة كلب صغير ، فنبح نباحاً خافتاً كأنه يدعو فيليب ، ثم مضى في سبيله . وكان هذا الكلب ، الذي يدعى « شعيرة » ، « الشخصية » الوحيدة المتحلية بسمو الاخلاق في ذلك البيت . وكثيراً ما كان ينظر الى كوستال وابنه يتهارشان كالمجـانين ، فيبدو على ملامحـه الحيوانية الاستهجان والاستياء . ومن الواضح انه في مثل هذه الاحوال كان ينتقد سلوكهما . وفي اغلب الاحيان كان يتنهد متأسفاً ، ثم يـدس انفه في اسفله ويرقد من جديد .

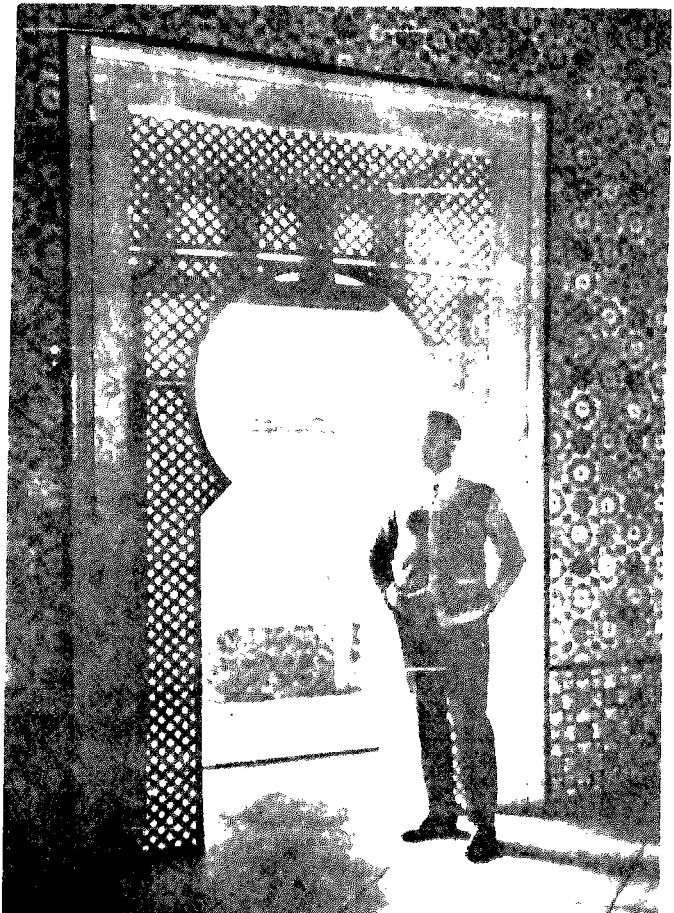
وحاول كوستال ان ينهض مرات عديـدة ، ولكن فيليب كان يمد اليه ذراعيه متمطّياً ، كما يتمطّى الهر الكسول . ولما كان الوالد يدرك معنى هذه الحركة ، ويجدهـا بالغة التأثير ، فقد كان كل مرة يعدل عن الذهاب .

ثم لم يلبث فيليب حتى دعك مجلة « كري كري » بين يديه بغضب ، وطرحها بعيداً كأنه استفظع اهتمامه بها ، ثم احنى رأسه وألقـاه على صدر ابيه . وكانت تظهر دائماً فيه ، في اعماق غريزته المرحة المغامرة ، رغبة شديدة في الملامسة والاحتكاك ، فيجد الاسباب المبررة ليلتصق بابيه ، حيناً بمهارشته ، وحينـاً آخر باكراهـه على ان يرقص معه « فوكس تروت » ، واحيـاناً بالقفز على ظهره . وفي الشارع كان دائماً يتأبط ذراعه . وكثيراً ما كان يقوم بحركات من تلـك التي تميزت بها البنات ، كأنْ يقفز محوّلاً وجهه جانبياً للتعبير عن الاستهجان اذا فتح امامه حديث عملية جراحية ، او رويت قصة فيهـا شراسة وضراوة ، وحتى اذا رُبط ساعده بجهاز فحص ضغط الدم . وكان كوستال في تلك اللحظة ملتصقاً بـه ، فتأثر تأثراً عميقـاً بحاجته الى العطف ، ولم يجـد بداً من معانقته وتقبيله مرة اخرى ، وهو يقول في نفسه : « انه فاتن ، انه مغنـاج ، انه طيب ، فنعومة جلده هي نعومـة عالم آخر ، ومع ذلك فاني لا اعطف عليه كما اعطف على المرأة ! لماذا ؟ انـه لامرٌ عجيب ! »

وبالفعل لم يكن كوستال يشعر بالعطف الشديد الا على النساء اللواتي يشتهيهن . وكان يرى ان انف فيليب يبدأ فوراً تحت عينيـه ، وانـه عريض كأنف الشبل . وكانت هذه السمة الوحيدة التي لم يكن يحبها في وجه ابنه ، وكانت تحول في اغلب الاحيان دون تجاوبه الكلي والعفوي مع محبة الولد ومداعباته .

الا ان كوستال كان شديد الحذر ، يراقب نفسه مراقبـة دقيقة ، ويحرص على ان لا يبدو فاتراً ، لانه كان يحب ابنه حباً عميقاً ، ويعمد الى الامعان في تدليله ليغرس في نفسه الطمأنينة والهناء . الا انه كان يتساءل عن ابنه كما يتساءل عن النساء : « لماذا يجد فيليب لذة في تقبيلي ؟ » فيذهب سؤاله سدى ، ولا يفهم .

وبينما كان كوستال غارقاً في هذا التفكير ، اطلت الآنسة فيرون من الباب المشقوق ، وكان فيليب يسميها « الام بيلبوكيه » ، فابتسمت للمشهد الجميل الذي وقعت عينها عليه .



مونترلان داخل بيته في تونس

من

اندريه هاكبو
سان ليونار

الى

بيار كوستال
باريس

١٥ آذار ١٩٢٧

لا ينقضي يوم ، منذ عودتي الى سان ليونار ، دون ان تنفر الدموع من عيني تحت وطأة تأملاتي الموجعة . ولكن بكائي لا يستغرق اكثر من بضع ثوان . وفي الفترات الاخرى احيا حياة طبيعية ، فاضحك ، واتكلم ، واكتب . ان مظاهري لا تدل على اني مصابة في الصميم . الا ان ما يشعرني بوجود جرح بليغ في اعماقي هو اني لم ابق قادرة على الغناء . كنت من قبل أغني دائماً في اشد ساعات الالم والقنوط ؛ اما الآن فألاحظ ان الغناء لا يخطر في بالي وحسب ، بل اني عاجزة عنه حتى ولو بذلت في سبيله اقصى الجهود ، فصوتي لا يطيعني ؛ انه يختنق في صدري .

اواه ، يا كوستال ! مم يتألم الرجال ؟ ليس في الحياة سوى عذاب واحد حقيقي هو عزلة القلب . وضعت جدولاً بحسنات حياتي ، فاذا هي : الحرية ، الصحة ، الفراغ من العمل ، الرغيف المضمون (اني آكله قفاراً ، ولكن لا بأس) ، الشباب الباقي . وماذا بعد ؟ عندما افكر

بانه من المحتمل ان تكون هناك مخلوقات بشرية تحسدني على هذه الحسنات ، وان حسدها صارخ محتدم ، فان تفكيري يظل سلبياً ، ولا يجعلني سعيدة . ومهما يكن هذا الجدول طويلاً ، فيكفي ان اضع في الجانب المقابل له فقدان الحب لتصبح جميع الحسنات هباء . والحقيقة اني لم ابقَ انعم بشيء . ولم اجد قليلاً من الراحة إلا يوم السبت ، عندما رحت اعترف للكاهن بخطاياي ، كيلا انقطع كلياً عن ممارسة شعائري الدينية . فالله وانت تحظران عليَّ ان احبك . ولا بد من الاقتناع بهذه المشيئة والخضوع لها !

رأيت في احدى الليالي الماضية حلماً لا تصعب عليَّ معرفة مصدره : كنا نتنزه معاً في شوارع باريس تحت المطر ؛ وكنتُ بين الفينة والاخرى انسى شيئاً ما - نسيت مرة فروتي - فاروح اتسلق سلماً لا نهاية له ، وانت تنتظرني على رصيف الشارع ، فلما عدت واصلنا سيرنا تحت المطر ، ثم تبيّن لي اني نسيت شيئاً آخر ، فعدت الى تسلق السلم ، والى البحث ... ولما كان البحث في الاحلام متعباً حتى الارهاق ، اخذتْ تراود فكري اشياء مبهمة لا حدود لها ولا نهاية . وجل ما اذكره بوضوح اني كنت خائفة ... اخشى ان اعود من بحثي فلا اجدك . وقد استقر هذا الخوف في ذهني بقوة الكابوس . ولكني كنت اجدك دائماً تنتظرني على الرصيف ، وفي وجهك عبوس من قلة الصبر . ولا انسى هذا الوجه الصغير المكفهر كأنه وجه هرّ في ثورة الغضب . وقد وجدت في هذا الحلم بعض التعزية ، كأنه دليل على اني لم اخسرك كلياً .

اما اذا عاد بي الفكر الى سكوتك الطويل ...

عفواً ! لا اقصد بهذا القول أقل توبيخ ، وليس في قلبي اقل استياء . اني اعلم جيداً ما يكلفني الاستياء . ولا استطيع ان اتصوّر ظلّ تأنيب مني اليك . مهما تعمل ، ومهما يحدث ، فلا شيء يستطيع ان يصدّع ما لك في يقيني من الاعجاب ، والاخلاص ، وعرفان الجميل . ولكن

محبتي هي التي ترزح عاجزة ، جائعــة ، خائرة ، تحت عبء شعورهـا بانها عديمة الفائدة ، وليس في وسعها ان تغذي نفسها بنفسها الى الابد . فهذه مهمــة تفوق القوى البشرية ، والاستمرار فيها شبيه بمحاولة سكب الماء لملء برميل مثقوب . انها تنتهي دائماً بالهلاك عياء .

قد تكون هذه المهمة ممكنة بالنسبة الى فتاة في العشرين من العمر ؛ اما بالنسبة الى فتاة في الثلاثين (إلا تسعة ايام) فانهـا تفقد شجاعتهـا حيال هذه المغامرة .

اراك في خيالي منصرفاً عني الى امور اخرى ، فتخمد حماستي . وها انا معلّـقة بك دون امل دائماً ، دائماً ... فكيف استطيع احتمال الآلام في هذه الصحارى المترامية من الصداقة ؟

ماذا غنمتُ منك ؟ يا لها من واحات ضيقة مجدبــة ! لم احصل على ساعة واحدة من الحياة الحميمة . منذ سنتين ، استقبلتني مراتٍ عديــدة في منزلك ، ثم لم نلتق إلا في الخارج : في حفلة موسيقية ، في المطعم ، على رصيف الشارع ، كأني بك تخشى شيئاً لا ادري ما هو .

بقيتْ لي رسائلك ، رسائلك النادرة . وكم كنت اود لو لم تقــدم لي اقلّ خدمة على الصعيد العملي ، وتكتب اليّ اكثر . ألا ترى ان مراسلتنا غدت ضرباً من المنــاجاة الطويلة من ناحية واحدة ، ناحيتي انا ؟ كيف تصبح حالي اذا حرمتني حتى رسائلك ؟ اذا خلت الصداقــة من حضور الصديق ومن رسائله ، فماذا يبقى منها ؟ اعلم حق العلم ان الصداقة بين الرجال تستطيع ان تتحمــل اسابيع وشهوراً من البعــاد ومن انقطــاع المراسلة ، دون ان تفقد شيئاً من قوتها ووثوقها . ولكني لست رجــلاً . فكل بريد لا يحمل اليّ شيئاً منك يطرحني ساعة كاملة في ضيق ثقيــل مهلك ، ويؤثر في مجرى يومي كله . اما اذا جاءتني كلمة منك ، فانهــا تنهلّ كنقطة الزيت على النار ، فتنعش فيَّ حرارة الحب والايمان ...

ألم تشترط عليّ ان تكون رسائلي اليك قصيرة ، اذا كنت اريد ان

احتفظ بمكان صغير في قلبك ؟

لك : اندريه

قررت منذ اليوم الامتناع عن الضحك قدر المستطاع بسبب الغضون التي بدأت تظهر في وجهي .

(بقيت هذه الرسالة بلا جواب)

من

اندريه هاكبو
سان ليونار

الى

بيار كوستال
باريس

٣١ اذار ١٩٢٧

ما معنى هذا السكوت ؟ ما هذه المفاوز من الصمت التي يجب عليّ اجتيازها للوصول اليك ؟ احبك كما يُحَبُّ ولدٌ مصابٌ في القلب ، وهو على موعد مع الموت عندما يبلغ العشرين من العمر . أعلم اني سأخسر ما بقي لي منك ، اعني حقي في مراسلتك ... ولكنك انت هـا هنـا في حياتي ، انت ، انت ، لو تسمح بان يكون لي شيء منك !

واعلم ايضاً اني لن اتشبث بك ، ولن امعن في ازعاجك . غير اني لا ارضى بان أصرع بطعنة في الظهر . لا اجد غير هـذا القول للتعبير عن هذا الهجر المريع بالتزام الصمت ... هذا الصمت الذي اتخبط فيه دون ان اعلم ، ودون ان افهم ... اتلمس طريقي في الفراغ كأعمى يبحث عن عصاه ، او كناسك متعبد يفتش عن ربه في ظلمات الاستسلام الروحي . ان النسّاك انفسهم يحتاجون الى معونة الاسرار الدينيـة التي تملأ شيئاً من الفراغ اذ تحل محل « الوجود » الذي يتوقون اليه . احب منك كل شيء : سخريتك ، قساوتك ، إعراضك عني . اجد سعادتي حتى في هذه الاشياء لانها تقويني عليك . ولكن سكوتك يجردني من السلاح ،

يقتلني قتلاً . أنزل بي ما تريد من الضربات ، فاستطيع الدفاع عن نفسي . ولكن لا تبالغ باستعمال مـا تكتسب من التفوّق الجبـان حين تعتصم بالصمت والغياب .

ليتك تدري فظاعة فقدان الاتصال بك ، سواءً أكان هـذا الاتصال لقاءً بك او رسالة منك ! وليتك تدرك مدى عذابي في فترات انفصالك التـام عني في هذه القطيعة بيننـا ! كم من الفرص تفوت ، وتجهض ، ثم تجهض بسبب الغياب ، بينا اغتنامها واجب في حينه . كل شيء يذهب هدراً في هذا الغياب ، كما يذهب دفء الغرفة من النوافذ المفتوحة . فما الذي تريده ان يولد بيننا ، او ان يبقى في هذا الانقطـاع المتوالي ؟ لا اكاد ابتعد عنك حتى تتوارد الى ذهني الكلمات التي كان يجب ان اقولها لك ... موجة من الكلمات الضرورية لاوضح لك هذا وذاك من الامور ، ولأصحح الفكرة التي قد تكون كوّنتهـا عني . ولكني لا استطيع ان اقول لك شيئاً ، لاننـا لا نلتقي إلا في فترات متبـاعدة ، فاضطر الى الاكتفاء برسائلي التي تزعجك ، ولا قدرة لها عليك . وها انا وحيدة ، في غرفتي ، اخاطبك بصوت مرتفع ، واحاول اقناعك .

لا اشكو من اسلوبك في معاملتي ، ولا من قلة اكتراثك بآلامي . لا شأن لك انت في شكواي . فالشك هو مصدر عذابي . هذه اللجـة من الشك المطلق ، التي تحتوي كل شيء دون ان يدري بها احد ، تحتوي الحوادث المشؤومـة ، والامراض ، وتبـدل الشعور ، والمآخذ الواهيـة ، وسوء التفاهم ...

اكتب اليّ مـا تشاء ، ولكن اكتب . ارسل اليّ غلافاً فارغـاً كذلك الذي كان المارشال دي لوكسمبورغ يطلبـه الى روسو[1] ، لاعلم

---

١ ـ اديب وفيلسوف فرنسي (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) يعتبر رائد الحركة الرومنطيقيـة ، وفي مقدمة الذين مهدوا فكرياً للثورة الفرنسية . اشهر مؤلفاته : العقد الاجتماعي ، اميل ، هيلوئيز الجديدة ، اعترافات ، وسواها .

انك حيّ .

اني اؤمن بك على كل حال . قال لنا الواعظ منـذ حين : يجب ان نؤمن بالله على كل حال .

اندريه



من

اندريه هاكبو

سان ليونار

الى

بيار كوستال

باريس

٢٧ نيسان ١٩٢٧

الساعة ٩ ليلا

بلغتُ الثلاثين من عمري ، يا كوستال !

كان ذلك يوم الاحد . والاحد هو يوم ضعفي في الاحوال العادية . وقد كان الطقس في غاية الصفاء والبهاء . اواه ! بدأت اعرف رباع الوحشة والاسى ، وهذه الاصياف التي تنقضي وتنطوي واحداً بعد الآخر ، وهي كالسلال الفارغة . لم يف واحد - ولا واحد منها بوعده : وعد الخصب والينباع . ما افظع الشعور بالعقم خلال هذا الفصل الذي يتوق فيه كل حيّ الى التناسل والاخصاب ! هل قُدِّر لي ان ارى دائماً هذه الاشياء الفاتنة المسكرة من خلال قساوة الحرمان ، حرماني الحصول على شيء منها ؟ ما الفائدة من ان اكون حسناء ؟ والى متى أظل حسناء ؟

اليوم ، بعد الظهر ، وصلتْ الى غرفتي جلبة اللاعبين بالكرة في جوار بيتنا ، وسمعتُ سبع مرات اغنية « لويز » يرددها الفونوغراف ، ومطلعها : « منذ ان وهبتُ جسدي ... » ومن حين الى آخر كانت ترتفع اصوات

اللاعبين مهلّلة او ساخطة ، فالبلدة في عيد . وقبل العشاء ، هبّت عاصفة شديدة . جميع الغرف والابهاء في الفندق كانت مضاءة بانوار ساطعة كالشمس ، وطاولات الحديقة موزعة في انحاء الفناء ، تلمع مبلّلة في وهج النور ، والهواء يحمل اليّ من بعيد موسيقى حفلة راقصة ، وأشمّ مزيجاً من رائحة الملبّس والبرتقال يفوح من غصن اكاسيا متهدّل ، وارى شابين يخرجان من الفندق وهما يرتديان « السموكن » . كل شيء فيهما يلمع : صدرتاهما ، شبابهما ، وحتى احذيتهما الهازئة بالوحل . اني افكر بخلائهما من الهموم وبسعادتهما ، فأتألم .

انا في الثلاثين . قضي الامر . مضت سن الانتظار ، وبدأت حقبة ادراك الواقع . لم يبقَ لي مفرّ . وما احتاج اليه ليس مستقبلاً ، انما هو ماضٍ . لم يبقَ لي آمال ، بل ذكريات . في مثل سني تنتحر ممثلات السينما في اميركا اذ لا يبقى لهن امل في الحياة ، بينما انا انتظر من هذه الحياة « كل شيء » .

يطيب لي احياناً ان اتخيّل نفسي الى جانب سرير تمدد عليه ابني جثةً هامدة ، او الى جانب سرير تمدد عليه زوجي ميتاً . لا ريب في ان الحصول على النعمة ثم فقدانها لشيء مفجع . اما عدم الحصول عليها منذ البدء ، فشيء افظع بكثير . لو كنتُ اصغر سناً او اكبر ، لهان الامر ، لاني اكون في زهو الشباب استطيع الاكتفاء بهذه الحياة العقلية الصرف ، وبهذه الصداقة الافلاطونية ، الذكية ، الباردة . يوم عرفتك ، ما كنت احب الحب ، لاني لم اكن بحاجة اليه . كنت اكتفي بنفسي ولا احسب لجسدي حساباً . لو كنتُ في سن الكهولة لما بقي لي امل بان « اصنع حياة جديدة » ، فلا اخسر شيئاً اذا بقيت في نطاق الصداقة الصافية ، النقية ، البسيطة ، لاني اجد في هذا النطاق نوعاً من السعادة القانعة المذعنة . اما الثلاثون من العمر فتعني ، بالنسبة اليّ ، ان وقتي لم يحن بعد ، او اني تأخرت وفاتتني الفرصة الفريدة .

كوستال ! اقول لك بكل بساطة ، وبكل حزن : اني لا احاول الاحتفاظ بك . لم يغرب عن ذهني قط اني لن اعجبك الى الابد ، مهما بذلت في هذا السبيل . فقد عشت في ما مضى ، وها انا اعيش الآن ، بانتظار سأمك ، وصدك ، ونسيانك . وهذا السكوت الذي تعتصم به منذ شهرين يؤكد لي اني على حق في تخوفي. قد اكون مخطئة لعجزي عن ادراك خفايا النفوس ، لانك كنت امينا كل الامانة على مواصلة « عملك الخيري » في اغاثتي منذ اربع سنوات ! ولكني لا اريد الاتكال على ما مضى ، لاستنتج منه ما يجعلني اتفاءل بالمستقبل . ثم لا أدري أبادرتك الطيبة نتيجة « عمل خيري » او ميل عاطفي . لم تشأ قط ان توضح لي هذه المسألة .

وما دام الامر كذلك فلماذا ابقى متحفظة ومتكتمة معك بعد اليوم ؟ لماذا اكون متحذرة ، متكتمة ؟ بدأت اعتقد اني كنت متكتمة ومتحذرة اكثر من اللزوم . ثم لا مجال للتحايل عليك ، وهذا ما اعرفه عن كثب . انك تسأم بدون سبب ، او لسبب بسيط هو ان « العلاقة » قد طالت ، او عاشت عمرها ، او لأن « الحال يجب ان تتبدل قليلاً » . انك الماء الجاري ، والويل لمن يرتمي في مجراك ! لا سبيل معك الى البحث عن الاستحقاق ، انما السبيل الوحيد هو ان يسعى المرء الى الاستفادة ، قدر المستطاع ، من الفترة القصيرة التي يكون له فيها مكان في حياتك ، وان يجعل من هذه الفترة ، اذا امكن ، شيئاً كثيفاً ، ابهى جمالاً ، واوسع سعادة .

لن تجد فيّ عدوتك الانثى ابداً ، ابداً ، ابداً . مهما فعلت ، لن تراني منقلبة عليك ، ولن تسمعني اوجه اليك كلمة توبيخ . اني صديقك . ولن اكون لك ، بعد اليوم ، إلا هذا الصديق . اني نفس معذبة ، اني امرأة في الثلاثين من العمر ، عصبية المزاج ، شقية ، ليس لها ما للرجال من وسائل التسلية والتنفيس ، كالغرام العابر ، والسفر ،

والاشغال ، والغرور ، والطموح . منذ عشرين عاماً ما برحت اسير على خط مستقيم بين سدّين . فكن رحيماً ، وانظر بعين التسامح والغفران الى ما سأقوله لك .

وما اريد ان اقوله لك هو هذا : لم تعد صداقتك تستطيع شيئاً في سبيل سعادتي . انها اللؤلؤة التي يجدها البدوي في الصحراء ، وهو يموت عطشاً .

لست في سنٍّ تكتفي بأنصاف الحلول ، بأنصاف العلاقات . اني بحاجة الى السعادة اعبّها ملء كأسي ، او الى اليأس اشربه حتى الثمالة . اني جائعة ، اتوق الى الامتلاء بالحب المحتدم دون هوادة . لم اعد اقيم وزناً لتلك الشؤون الفكرية التي كانت تهمني يوم كنت اصغر سناً . انت نفسك لم تعد تهمني على هذا الصعيد الفكري الروحي ، فقد تعبتُ من كوني محبوبة بلطف ووقاية . هذه الصداقة شيء جميل ، ولكنها ليست شيئاً ملموساً استطيع الوثوق بوجوده وثوقي بوجود ما اشرب ، وما آكل . انها شيء وهمي ، غير متجسّد ، جاف ، مضنك ، متقطع ، مختلط ، فوضوي ... ثم انها مهملة ، تهرأت على المدى الطويل ، كلها غياب ، وانتظار ، وعدم ، وعليّ فيها كل ما في الحب من البذل والتفاني دون ان يكون لي مكسب واحد من مكاسب الحب . انها شيء عقيم ، قُضي عليه ، ان لم نبادر الى تغذيتها بماويّة جديدة . فالمرأة المحبوبة هي التي تُشتَهى ، وتُداعَب ، وتُؤخذ ، وتُحَب حباً غرامياً جنسياً ، وكل ما عدا ذلك هراء .

اريد ان انال منك حصتي ، ان اشبع منك ، ثم اعيش على ما غنمت من وصالك . واليك ما اقترحه عليك . واني اقدم هذا الاقتراح بصفاء ذهن ، وهدوء ، ورباطة جأش . وقد فكرت طويلاً ومليا بما اكتب اليك الآن . اقترح ان نستبدل هذه الصداقة المختصرة بشهرين تكون خلالهما لي ، تعطيني جسدك بحرارة ، واعطيك جسدي دون تحفظ . واني

لمستعدة ان اقطع لك على نفسي عهداً باني ، بعد انتهاء هذه المدة ، لن أريك وجهي ابداً ، اذا شئت .

وفي هذه الاسابيع القليلة من الامتلاء اليائس (اليائس بالنسبة اليّ) قد تجد شيئاً من المتعة . اما انا فستكون هذه الفترة في حياتي كل شيء ، اي ان حياتي الخالية ، الفارغة حتى الآن ، سيكون فيها شيء استطيع التوكؤ عليه ، ويبقى ذكره في عقلي وقلبي ، ولا يستطيع احد ان ينتزعه مني . وهذه متعة نفسية وذهنية تكون قد سخوت بها عليّ ، فضلاً عن المتعة الجسدية . وبهذا التذكار استطيع ان اتحدى السعادة المبتذلة التي تنعم بها النساء السعيدات . اذا نلتك مرة ، فلا تكون حياتي ضائعة . ويا له من امانٍ مشرق متألق للبقية الباقية من ايامي !

لا تظن اني ، وانا في الثلاثين من العمر ، احتاج الى الحب الجسدي حاجة كبرى لا غنى لي عنها . فحاجتي اليك عقلية ، عصبية . والحق يقال اني اريد ما اريد على سبيل استكمال المعرفة وراحة الضمير ، وبعدئذٍ فلينتهِ كل شيء . اود لو ألقّح ، لو اجد الهدوء ، هدوء الفكر . وهذا ما لا يجوز ان يغرب عن بالك . فالارتياح الذي اسعى اليه شبيه بارتياح من يحتلّ مكانه في الحافلة ، بعد ان يكون قد خشي ان يفوته القطار .

ما ازال في الشؤون الجنسية فتاة قاصرة ، وكل ما اقدمه لك نضير ، جديد ، في صباحه الاول ، يليق بعظمتك لما فيه من النقاء والبساطة . ولن اغفر لك ابداً اذا اكرهتني على تقديم كل هذا لسواك بدون حب .

واياك ان تلفظ كلمة « لصقة » التي تستعملها احياناً بدون لباقة . كل ما له مكان في حياتك يختلف مغزاه ، بالنسبة اليّ ، عن معناه المعروف بين الناس . فالعشيق ، والخليلة ، والعلاقة ، والحب غير الشرعي ... هذه كلمات لم تعد تعني شيئاً في نظري . اني مؤمنة بالحب ، وفي نطاق هذا الحب تُباع جميع الحريات ، وجميع انواع الجرأة ... ثم تضيع في

اشعاعه الذي يفترسها .

اجل ، انا التي كتبت هذه الرسالة . منـذ سنتين فقط ، كان الموت أهون عليّ من التفكير بالاقدام على هذه الخطوة للدنو منك . ولكن ما قيمة رأي الناس ما دمت أعلم ان ما قد اعطيك طاهر ، صافي النقاء ، وقد يكون على جانب كبير من الجلال ؟

اندريه

(بقيت هذه الرسالة بلا جواب)

ابرز ما يسترعي الانتباه في الفكرة التي يكوّنها الرجل – الذّكر – عن السعادة، هو ان هذه الفكرة لا وجود لها. هناك كتاب وضعه «ألان» عنوانه «آراء في السعادة»، ولكن ليس فيه اقل شيء عن السعادة. وهذا امر له مغزاه، فالقسم الاكبر من الرجال لا يدركون للسعادة معنى.

صاح «سان برو»[1] في رواية «هيلوئيز الجديدة»: «يا إلهي، كانت لي نفس للألم، فاعطني نفساً للهناء والسعادة!» ولكن الله لم يستجب لهذا الدعاء. ليس للذكور نفس تشعر بالسعادة. فالسعادة في نظرهم حالة سلبية، تافهة بكل معنى الكلمة، لا تخطر على البال إلا في حالات الشقا الراهن؛ والانسان يملك السعادة حين لا يفكر بها مطلقاً؛ وهو يفكر صدفةً بنفسه، ويرى ان حياته خالية من المتاعب، فيعتبر نفسه سعيداً، وينتهي الى الاعتقاد المبتذل ان المرء لا ينال السعادة إلا اذا كان لا يبحث عنها. اما اذا بحث عنها، واعتبرها حقيقة حسية، فان اصحاب الاعتقاد المبتذل يعتبرون عمله بعيداً عن الرجولة. وقد حدثنا رجل، هو «غوته»[2]، عن «واجب السعادة»؛ وكتب رجل

١ - بطل رواية «هيلوئيز الجديدة» للاديب والفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو الذي يعتبر رائد الحركة الرومنطيقية، والذي كان كتابه «العقد الاجتماعي» انجيل الثورة الفرنسية.

٢ - من اعظم الكتاب والفلاسفة الالمان. امتاز بعبقرية شاملة. ابرز صفاته عمق التفكير وخصب الخيال. اشهر مؤلفاته: «فاوست»، و«فرتر»؛ ويقال ان هذا الكتاب الفياض بالعواطف اليائسة اطلق في العالم موجة من الانتحارات تعد ضحاياها بعشرات الالوف.

آخر ، هو « استندال »[١] ، كلمة عظيمة ، عميقة المغزى ، تتضمن فلسفة كاملة ، ودرساً خلقياً شاملاً ، هي : « لا احترم شيئاً في العالم بقدر احترامي للسعادة » . ولكن « غوته » و « استندال » كانا رجلين كبيرين ، متفوقين . وهما يفكران هذا التفكير لانهما يسموان فوق مفاهيم الناس العادية . فالرجل العادي يرى في احترام السعادة تصرفاً مشبوهاً .

اما « واجب السعادة » فلا يجد من الناس ايماناً بحقيقته ، على الرغم من « غوته » ، ومن القول المأثور : « لكل امرىء ان يعيش حياته » . دونك ، مثلاً ، هذا الرجل ، وهو شاب في مقتبل العمر ، فاذا قلت امامه : « هذه الساعة الكئيبة ! هذه الساعة الضائعة ! كم سيكون تبكيت ضميري شديداً عندما يأزف الأجل المحتوم ، لاني لم اعطها للسعادة » ، لأخذته الدهشة من غرابة هذا القول ، ولتوجّه اليك سائلاً : « على اي سعادة تتكلم ؟ أعلى سعادة الآخرين ؟ أعلى سعادة البلاد ؟ » واذا اجبته بحرارة : « لا ، اني اتكلم على سعادتي انا » ، فلا تلبث ان تراه مستاءً كأنك اهنته . فهو لا يستطيع ان يفهم انه من الجائز ان تفكر بسعادتك ، لانه لم يفكر قط بسعادته .

يقول الذكر لنفسه دائماً ، وبدون ان يشعر بأقل ألم : « ستعيشين غداً » . وهذا شيء جميل للغاية اذا كان الذكر يقصد بكلمة « تعيشين » معناها الحقيقي .

وهناك رجل آخر ، في مقتبل العمر ، الدنيا كلها امامه حافلة بالوعود ، سمع بعضهم يستعمل كلمة « عاش » بمعنى تحقيق الحياة في مداها الأرحب ، والأعمق ، والأجمل ، فسأل : « وماذا تعني بقولك : عاش ؟ »

---

١ ـ كاتب فرنسي دقيق الملاحظة ، ساخر الاسلوب ، توفي عام ١٨٤٢ ، ولم يقدر حق قدره إلا بعد وفاته . من اشهر مؤلفاته : « الاحمر والاسود » ، و « راسين وشكسبير » .

لأن العيش ، بالنسبة اليه ، هو الشغل ، والكد . ولو سئل هذا الشاب : « ما هي السعادة ؟ » لأجاب حتماً : « هي الواجب ، هي ان تكون للمرء مهمة ، وان يكون منضبطاً في القيام بها ، الخ ... » والخلاصة ان مفهومه للسعادة ينحصر في الشكل الذي اختاره ، او الذي فرض عليه لقتل الوقت . وليس هذا كل شيء ، فعندما يتسنى للرجال ان يقتلوا الوقت بسهولة ، وبطريقة ممتعة ، لا يلبث ان يستولي عليهم السأم والقرف . وقد تحدث العارفون مراتٍ عديدة عن ذلك النوع من الانزعاج الذي يساور الرجل حين يصل الى حال من التوازن يفقد معها الرغبة والاشتهاء . وهذا النوع من الانزعاج يشبه شعور من يكون في زورق بخاري ، فيتعطل المحرّك في بحر هادىء كالزيت . ولهذا السبب يرافق الاحساس بالسعادة شعور بالعزلة . وهذه حقيقة يجهلها الناس في اغلب الاحيان .

ولكن الرجل يكوّن احياناً فكرة ايجابية عن السعادة ، فتكون في نظره متعةً يغنمها حين يرتوي غروره . وفي مثل هذه الحال ، من الطبيعي ان تكون لكل سعادة مزاياها الخاصة ، لان لكل امرىء فكرة شخصية عن سعادته لا يفهمها جاره

والغرور هو النزوة المهيمنة على الرجل . ويخطىء من يعتقد انه يستطيع بالمال ان يجعل الرجال يعملون كل ما يريد . ولكنه يستطيع ان يجعل العدد الاكبر منهم يعمل كل شيء ، اذا عرف كيف يساير فيهم غرورهم. وقد يرضون جميعاً بان يحرموا نفوسهم الطعام والشراب يوماً كاملاً ، اذا وثقوا من الحصول ، خلال هذا اليوم ، على ما يرضي غرورهم . واذا كان هناك رجل بدون غرور ، فلا حساب له في هذا المجال . انه يلقي على هذا الجو فتوراً مقيتاً . فلندعه على حدة . فالمسألة ، اذاً ، بالنسبة الى الرجل ، هي : لا ان يكون سعيداً بالفعل ، بل ان يقنع الناس بانه سعيد . تزوج منذ حين طبيب شاب من سكان الارياف ، فكان يقول بسذاجة ، وبدون ان يدرك عظمة قوله : « اني سعيد للغاية ، ولكن

يجب ان اجد احداً لاخبره بسعادتي ! »

ان أكثر الرجال يؤثرون سعادة الرجل الحكيم ، ويحبون في اعماق نفوسهم الهدوء والراحة ، فيتوقون جميعاً الى التقاعد . ولكن لا يصدق احدٌ انهم سعداء في مثل هذه الحال ، ويحسبهم متخاذلين او عاجزين ، فينتقلون الى الطريق الآخر ، ويتظاهرون بأنهم من اصحاب الشأن ، وينغمسون في الاضطراب السخيف الذي نراهم فيه ، ويمعنون في تبادل المخابرات التليفونية ، فيصبح اليوم السعيد ، في اعتبارهم ، اليوم الذي يتكلمون فيه اكثر بالتلفون ، اي اليوم الذي يبدون فيه على جانب كبير من الاهمية . وهكذا تدخل السعادة التي ترضي الغرور بالسعادة التي ينالها المرء بدون ان يفكر بها ، والتي تحدثنا عنها منذ قليل .

اما المرأة فهي بخلاف الرجل ، تكوّن عن السعادة فكرة ايجابية . واذا كان الرجل اكثر اضطراباً ، فالمرأة اكثر حيوية . وليس من المحتمل ان تسأل هي كما سأل ذلك الشاب الذي ذكرناه : « وماذا تمني بكلمة : عاش حياته ! » انها لا تحتاج الى تفسير . فالعيش ، بالنسبة اليها ، هو الاحساس . وجميع النساء يفضلن الفناء في الاشتعال على البقاء في الانطفاء . جميع النساء يؤثرن مصير الفريسة على مصير ما هو مهمل لانه محتقر . وكم في هذا « الاحساس » الذي تقدسه المرأة من حركة النشاط ، ومن الاتساع وردود الفعل .

اذا تألمت المرأة لان الرجل الذي تحبه لا يبادلها الحب ، او لانها تحسب انه كذلك ، فان ألمها يشتد اذا تبين لها ان هذا الرجل لا يحبها مطلقاً . ولكن اذا اكتشفت بعدئذٍ انها مخطئة ، وان الرجل يحبها ، فانها تنعم بفيض من الغبطة والابتهاج ، وتضيف الى سرورها قوة جديدة بالاعتذار الى الحبيب ، لانها شككت لحظة واحدة بحبه . فعندما نرى ذلك ، ونقارنه ببلادة الرجال وخمود شعورهم ، نستطيع ان ندرك معنى كلمة « حي » او « حياة » .

ان تراكم المسرات الصغيرة التي تؤلف بتجمعها السعادة الكبرى ، حسب اعتقاد الرجال ، كما تؤلف النجوم المجرّة ... ان هذا التراكم يبدو سقيماً في نظر النساء ، ولا يختلف عن اعتقاد المسيحيين ان الف خطيئة عرضية لا تؤلف ، اذا تجمعت ، خطيئة واحدة مميتة . فالسعادة في اعتبار المرأة حالة واضحة المعالم ، جلية الحدود ، لها شخصيتها ، وميزاتها الخاصة ، وحقيقتها الواقعية الزاخرة بالحياة ، العظيمة القوة ، المرهفة الاحساس . تقول لك المرأة انها سعيدة ، كما تقول انها تشعر بالبرد او بالحرارة . تسألها : « بمَ تفكرين ؟ » فتجيب : « باني سعيدة ! » وتسألها ايضاً : « لماذا تريدين ان تفعلي كذا وكيت ؟ » فتقول : « لاكون سعيدة ! » تجيبك هكذا بلهجة صادقة ، عفوية ، كلها حرارة وحياة ، حتى انك تجد في هذه اللهجة كثيراً من اللوم لانك لا تدرك حقيقة السعادة .

وتقول للمرأة : « اخشى ان تقومي بهذا او ذاك من الاعمال ! » فتجيبك : « ماذا ؟ أتظن اني اريد هدم سعادتي بيدي ؟ » انها توضح لك صفات السعادة ، فتقول ، مثلاً : « عندما اكون سعيدة ، ألزم الصمت » ، او : « عندما اكون سعيدة ، تبقى صحتي على ما يرام ! » وهي تعرف تمام المعرفة متى تبدأ السعادة ، ومتى تنتهي .

هناك كتاب عنوانه « اربعة عشر يوماً من السعادة » كتبته امرأة ، وهو يُعرف من هذا العنوان . ولا يخطر قطعاً في بال الرجل انه من المحتمل تقسيم السعادة هكذا بكل دقة ووضوح كأنها قطعة حلوى . ان هذه « الايام الاربعة عشر من السعادة » تعني ان للسعادة ، في نظر المرأة ، فترات محدودة . ومن خصائص المرأة انها تنعم بهذه السعادة العابرة اكثر مما ينعم بها الرجل . وكل امرأة تفضل السعادة الموجزة السريعة الزوال على لا شيء . قل لاحدى الفتيات : « اريد ان اقترن بك ، ولكني انذرك بان هناك اسباباً عديدة تجعلك شقية بعد مرور سنة على زواجنا » ، فتجيبك ، ولا ريب : « لا بأس ، اكون قد غنمت

سنة من السعادة ! » أما الرجل ، في مثل هذه الحال ، فيفكر بخطر المستقبل ، ويقارن بين السعادة والمجازفة ، في حين ان المرأة لا ترى سوى السعادة التي يحجب تألقها خطر المجازفة ، لان فكرة السعادة في نفسها بالغة القوة ، واسعة السيطرة .

ان المصير الافضل في نظر المرأة هو الزواج السعيد . وهي تعلم منذ حداثتها ان مصيرها منوط بالرجل . واذا كان المراهق يعاني شيئاً من العذاب لشعوره احياناً بالعجز ، فان الحدث يعيش في حاضره ، والشاب يتخيل مستقبله كأنه مادة ، له وحده ان يكيّفها كما يشاء ، بينما الفتاة تخشى هذا المستقبل . الشاب يعلم ان مستقبله سيكون ما يريده هو ان يكون ، بينما الفتاة تعلم ان مستقبلها سيكون كما يريده الرجل . وفي هذه المرحلة من الحياة المحفوفة بالشك ، تكون احلام الفتاة بالسعادة شديدة الاحتدام ، بقدر ما يخيل اليها ان هذه السعادة مهددة .

والمرأة كذلك تعلق ، اكثر بكثير من الرجل ، اهمية كبرى على شروط السعادة .

كتبت احدى النساء اقتراحاً طريفاً بشأن ميزان الحرارة الذي يعلق في جدران البيوت ، فقالت : « يجب ان يكتب على خط الدرجة الخامسة والعشرين فوق الصفر كلمة « سعادة » لان هناك كلمات اخرى مثل « شجر البرتقال » و « دود الحرير » مكتوبة على خطوط درجات اخرى للدلالة على ان هذا المستوى او ذاك من الحرارة يلائم « نمو البرتقال او دود الحرير » . ولا يدرك اهمية هذا الاقتراح الا الذين يعودون الى باريس بعد ان يقيموا مدة طويلة في افريقيا الشمالية ، او في اسبانيا ، او في ايطاليا ، وينتقلون من ربوع الدفء والشمس الى شتاء باريس الموحش ، الى صقيع يبلغ الدرجة العاشرة تحت الصفر ، الى الظلام ، والقذارة ، والقبح ، والصعوبات في كل شيء ، وقساوة كل شيء ، والحياة المريضة المُرهِقة . ومما يدعو الى الدهشة ليس تجمع هذه الفظائع في مكان

واحد ، بل قدرة الرجال على الانسجام معهـا ، والى هذه القدرة يعود الفضل في استمرار الحياة استمراراً طبيعياً .

اما النساء ، في اعماق هذه الجحيم ، فيحلمن باشياء أخرى ، يذبن حنيناً الى بلاد بعيدة ، وكثيرات منهن يتخبطن في اليأس .

صدرت يوماً رواية كتبت خصيصاً للفتيات عنوانها : « سنّ الاعتقاد بوجود الجزر »[1] . وجميع النساء يعشن في هذه السن ، ويعتقـدن بوجود جزر الشمس والدفء والازهار والحب ، لانهن يعتقدن بوجود السعادة .

ان هذه الفكرة الايجابية التي تكوّنهـا المرأة عن السعـادة ، وهـذا الالحاح المستمر في طلب السعادة ، انما هما ناجمان ، ولا ريب ، عن حالة التوق الدائم الذي تعانيه النساء ، وهو سنّة حياتهن .

قد نغالي ، طبعاً ، اذا استنتجنا من هذه الحال ان جميع النساء شهيدات معذّبات ، ولكننا اذا فكرنا باوضاع الجنس وحاجته في الحياة الاجتماعية تبين لنا انه شقاء بالنسبة الى المرأة ، وانزعاج بالنسبة الى الرجل .

ان للزواج في الجزائر تقليداً يدعو الى التأمل والاعتبار ، ففي حفلة الزفاف ، تدنو الماشطة من العروس وتسكب في كفيها ماء اليـاسمين ، فينحني العريس ويشربه . وتكرر الماشطة عملها فتسكب الماء المعطر في كفّي العريس ، وعندما تنحني العروس بدورها لتشرب ، يفتح العريس كفيه فيذهب الماء هدراً ... انه ، ولا ريب ، تقليد قاسٍ للغاية ، يقرّ مبدئياً حق الرجل في السعادة ، وحرمان المرأة اياها . ان في انحناء الفتاة المسكينة على كفّي عريسها لتشرب ، وفي رفض العريس ، وهدر الماء ، مغزىً ترتعد منه الفرائص .

من المسلّم به ان هذا التقليد الجزائري غير شائع في اوروبا ، وان

---

١ ـ كلمة « الجزر » من الالفـاظ المتواضع عليها في اللغـة الفرنسية للدلالة على بـلاد الشمـس ، والدفء ، والحياة الرافلة باسباب المتعة والهناء .

الشقاء ليس مفروضاً على المرأة الاوروبية فرضاً مبدئياً في فجر حياتها الزوجية كما هي الحال في الجزائر ، ولكننا نرى اجمالاً ان المرأة ، حيثما كانت ، تغزل سعادتها من خيوط سعادة الرجل ، بينما الرجل لا يهتم مطلقاً بتوفير السعادة لها . ومن النادر جداً ان نجد احد العاملين في شؤون الحياة العامة يضحّي بسير اعماله ، او احد الصناعيين يجبازف بجزء من قدرته على الانتاج ، او احد الكتّاب يكرّس جانباً من امكاناته الادبية ، ليجعل احدى النساء سعيدة كأن يقترن بها مثلاً . واكثر من ذلك : اذا صرفنا النظر عن كل تضحية ومجازفة ، نرى ان الرجل لا يتزوج بامرأة ترغب في هذا الزواج ، اذا كان هو غير راغب فيه ، حتى ولو كان واثقاً بان هذا الزواج يجعلها سعيدة ، بينما هناك ملايين من النساء يحلمن بالزواج لغاية واحدة هي دفق ما يفيض فيهن من الاخلاص لاسعاد الزوج والابناء المرتجين .

تنشأ الاحلام من التوق ، ومن التعطّش . فمن كانت حياته مفعمة بما يحب لا يحلم ، او يحلم باشياء يختارها هو ، اذا كان من أرباب الفن .

اين يحلم الناس – حتى الرجال منهم – بالسعادة ؟ في الاكواخ الحقيرة حيث يعانون العوز والفاقة ، في المستشفيات حيث ينهشهم المرض ، في السجون حيث يتوقون الى النور والهواء الطلق . وكذلك المرأة تحلم بالسعادة ، وتفكر بها ، لانها تفتقر اليها . اذا تعذّب الرجل بسبب المرأة ، كانت له وسائل عديدة للهو والتسلية ؛ اما هي فما الذي يبقى لها اذا شقيت بسبب الرجل ؟ انها عاجزة دائماً عن تحقيق ذاتها تحقيقاً كاملاً ، لانها وثيقة الارتباط بالرجل ومنوطة به . لذلك تحلم دائماً بالمستحيل .

وضعت احدى الشاعرات كتاباً عنوانه : « انتظار » ، فكان هذا العنوان انثوياً كـ « اربعة عشر يوماً من السعادة » . فالمرأة تنظر دائماً بأمل حتى تبلغ سناً معينة تفقد بعدها جميع آمالها .

ان الرجل لا يدرك هذا الحلم بالسعادة المختص بالمرأة ، فهو يدعوه

سذاجة ، هوساً ، نزعة خيالية ، بشيء من الازدراء والشعور بالتفوق . وللرجل كلمة اشد تحقيراً للتعبير عن هذا الحلم ، وهي : « غموض في الروح » . اذا اعلنت المرأة انها سعيدة ، اتهمها الرجل بالمباهاة وحب الظهور ؛ واذا ترنمت بالاغنيات طيلة نهارها قال : « انها ساذجة خفيفة العقل » . فهي لا تستطيع ، في نظره ، ان تكون سعيدة ، الا اذا كانت بسيطة .

اذا كتب شاعر انه يفضل عدم الذهاب في رحلة للترويح عن النفس في الربوع الايطالية ، على الذهاب اليها بدون رفيقة يحبها ، انبرى له احد النقاد قائلاً : « هذه ذهنية العامل الكادح » . وليس من المستبعد ان يتهم النقاد بهذه الذهنية ايضاً المرأة التي تقول انها تفضل عدم رؤية لوحة فنية تحبها على رؤيتها الى جانب لوحة تعتبرها قبيحة وتكره النظر اليها . والفتاة التي تنتظر طويلاً الزوج المرتجى ، وتزين هيكل قلبها بالازاهير دون جدوى ، معللة الامل باستقبال الرجل المجهول ، تبدو لذلك الناقد سخيفة مضحكة ، لانه يعتقد ، او يتظاهر بالاعتقاد ، ان في هذا الانتظار مأساة جنسية جسدية صرفاً ، بينما الحاجة الى العطاء الحقيقي هي من خصائص الروح المحتدمة شوقاً .

بقي علينا ان نعلم هل هذا الشقاء اشد من شقاء النساء المتزوجات ؟ فالناقد الذي تحدثنا عنه لا يهتم بالمرأة الحالمة بسعادة لا تملكها إلا بقدر ما يأمل بالحصول على مكاسب من وراء هذا الحلم . فهو لا يحترم الحنين ولا يقيم له وزناً ، ويهزأ علانية بالعوانس ، وبما يبدين من الحسرة والاسف المرير ؛ وكثيراً ما تتخذ سخريته طابع الاهانة . فموقف الرجل عامةً من العانس – في فرنسا على الاقل – هو موقف مخجل حقاً . ان مصير هذه الفكرة التي تكوّنها المرأة عن السعادة كمصير جميع آراء النساء على هذا الصعيد : لا تهم الرجل مطلقاً . فالرجل لا يهتم بالمرأة عندما تكون حواسه مرتوية . وهذه احدى مآسي حياة المرأة . انها تبدأ

يوم تطّلع المرأة عليها وتشعر للمرة الاولى بقساوتها . ان «غالاتيه»[1] تفر هاربة الى ظلال الصفصاف ليلحق بها الرجل . وبعد قليل يفر الرجل من ظلال الصفصاف وهو لا يريد ان تلحق به « غالاتيه » . فالمرأة تُضايق الرجل وتزعجه بعد فراغه من التسرّي بها ، كأنها سيكارة ، نمتص دخانها بلذة في البداية ، وعندما يحترق ثلاثة ارباعها يصبح دخانها مضنكاً ، فنلقيها من يدنا ولا نعود نفكّر بلمّها . والازواج يتشاحنون عادة ، لانهم لا يجدون من الحديث ما يتبادلونه لقتل الوقت . وعلى الرجل ان يتعهد باعطاء المرأة شيئاً من وقته بعد ارتوائه منها ، ولو على سبيل التأدب واللطف . فهذا واجب مفروض عليه . وهو عندما يهتم بها على هذا الصعيد ، يخالجه شعور بانه يسبغ عليها نعمة بدافع الرحمة والسخاء . والفسّقة وحدهم يهتمون بالمرأة اهتماماً دائماً ، لان فضولهم دائم اليقظة ، وهو روح الشهوة وحافزها الاكبر . وهذا هو سبب تساهل النساء معهم حتى الشريفات الرصينات منهن .

قال بطل احدى الروايات قولاً بالغ العمق في هذا المعنى ، وهو : « تأتي سعادة النساء من الرجال ، اما سعادة الرجال فتأتي من ذاتهم . والخدمة الوحيدة التي تستطيع المرأة تقديمها للرجل هي ان تعكر فترة سعادته » . وافظع ما في الامر ان المرأة قد تحلم ، في سذاجتها وعجزها ، بان تعمل في سبيل الرجل ما يستطيع الرجل عمله في سبيلها . والمرأة السعيدة ، التي تحب وتكون محبوبة ، لا تطمح الى اكثر من تحقيق هذا الحلم . اما الرجل الذي يحب ويكون محبوباً فيحتاج الى اشياء اخرى .

---

١ ـ ربة مائية في اسطورة يونانية شبيهة كل الشبه باسطورة عشتروت وادونيس . احب هذه الربة الجبار « بوليفام » ، ولكنها فضلت عليه الراعي آسيس ، فحمل الجبار صخرة كبيرة وسحق بها الراعي الجميل ، وراحت الربة الثكلى تندب حظها وتبكي الحبيب الشهيد .

واذا صرفنا النظر عن مسألة المال ومقدار الحاجة اليه ، نرى ان الرجل الذي يتزوج يقدم بزواجه هدية قيّمة للمرأه لان حاجتها الى الزواج حيوية ، بينما هو لا يحتاج الى هذا الرباط . فالنساء يتزوجن لان الزواج هو مفتاح سعادتهن الوحيد ، بينما الرجال يتزوجون على سبيل الاقتداء بفلان وعلان من الذين تزوجوا ، يتزوجون على سبيل العادة ان لم نقل على سبيل البله والبلادة . وهم لا يعترفون بهذا الواقع لانهم لا يعون . وفي هذه الحال من اللاوعي نرى اكثرية الرجال يتزوجون كما يتورطون في خوض الحروب . اننا نرتعد خوفاً على مصير المجتمع البشري اذا عمد الرجال الى تحكيم عقولهم في شؤون حياتهم ، لان هذا المجتمع قد يبيد ، كما نرى بام العين هلاك الشعوب الذكية التي يقضي عليها افراطها في الذكاء .

يقف الرجل والمرأة في هذه الحياة متقابلين ، فيخاطبهما المجتمع قائلاً : « انتِ لا تفهمين منه شيئاً . وانتَ لا تفهم منها شيئاً . فتدبرا امركما ، وحاولا ان تفهما ... هيا الى العمل » . ولولا متعة العناق والوصال ، لكان كل منهما يبقى في مكانه ، لا امعاناً في التصلب كما قال الشاعر فيني[1] ، بل لان الجنسين متباعدان ، ليس بينهما شيء من التجانس ، ولا يشعر احدهما باقل حاجة الى الاتصال بالآخر . جعلتهما الطبيعة متناقضين في الجوهر ، فاصبحا عاجزين عن التوافق ، واذا توافقا فيكون دمار شيء ما نتيجة لتوافقهما . وهكذا يتسنى لنا ان نرى مشهداً غريباً فيه مخلوقان يجتذب احدهما الآخر ، وليس بينهما من التجانس ما يجعل احدهما صالحاً للآخر .

---

١ « شاعر فرنسي رومنطيقي ، توفي عام ١٨٦٣ . من اشهر مؤلفاته : « قصائد قديمة وحديثة » ، و « عظمة الحياة العسكرية وقيودها » ؛ و « شاترتون » . ميزته الاولى ثبات الجنان على المصاعب عملاً بمذهب زينون الرواقي . وقد عبر عن ايمانه بهذا المذهب في قصيدته العصماء : « موت الذئب » .

ُخلقت المرأة للرجل ، وخُلق الرجل للحياة ، وخصوصاً لجميع النساء . ُخلقت المرأة لتبلغ غاية معينة وتستقر فيها . وخُلق الرجل ليكون جسوراً مقداماً ، كلما بلغ غاية دفعه الطموح الى سواها . تبدأ هي بحبه عندما يكون قد انتهى من حبها . كثيراً ما يتحدث الناس عن النساء الفاتنات اللواتي « يضرمن النار » في الصدور ، ولو أنصفوا لتحدثوا عن الرجال الذين « يضرمون هذه النار » ! الرجل يأخذ ثم يطـرّح . والمرأة تعطي نفسها ولا تستعيد ما اعطت ، واذا فعلت فانها لا تحسن الاستعادة . المرأة تؤمن بان الحب قادر على كل شيء ، ولا تحصر هذه القدرة في حبها هي ، بل تعتقد بوجودها في الحب الذي يقدمه لها الرجل . وكثيراً ما تبالغ في تقدير هذا الحب ، وتزعم ببلاغتها العاطفية المعهودة ان الحب لامحدود . اما الرجل فيرى حدود الحب ، حدود حب المرأة له ، وحدود حبه للمرأة ، فيدرك هزال حبه وتعرّضه الدائم للزوال السريع .

ولا يقتصر الخلاف بين الرجل والمرأة على انهما لا يسيران على طريق الحياة بخطى متشابهة ، بل يتناول طريقة العرض والطلب بينهما . فالرجل لا يستطيع ان يحمل الى المرأة إلا الشهوة الجسدية التي تتعبها حتى الارهاق ، والمرأة لا تستطيع ان تحمل الى الرجل إلا الحنان الذي يضايقه حتى السأم . انها تقدم له من العطف والحنان اكثر مما يستطيع ان يحتمل . ومن حسن الحظ ان المرأة تلد ، وتجد في ولدها سبيلاً لدفق ما يفيض من عطفها وحنانها ما دام الولد بحاجة اليها .

تقول المرأة : « يا لجنون الرجال الذين يسعون وراء المبادىء ، والمجد ، والمال ، ويبذلون في سبيلها وقتاً ثميناً كان حرياً بهم ان يكرّسوه للحب ، للحب الحقيقي الذي يعلّم اشياء كثيرة ! وكم من الرجال يخفقون في تنفيذ مشاريعهم الكبيرة من فكرية ، واجتماعية ، ودينية وغيرها ، لانهم لم يدعوا الحب يحيا فيهم ! »

فيجيبها الرجل : « كيف ادع الحب يحيا فيّ ؟ لا استطيع إلا ان

ادعه يموت . ليست هذه الجذوة من النوع الجدير بدوام الاشتعال ، لان ما فيها من التصنع والافتعال يجعلها اقل من لا شيء . لماذا يُطلب اليَّ ان اكون غير ما جعلتني الطبيعة ؟ ان الطّبيعة جعلتني رجلاً ، اي مخلوقاً بدون حب » .

هذا هو « الزوج » ، المتباين الشقين ، الذي ينبعث منه القسم الاكبر من شرور البشرية ، دون ان يكون الرجل مذنباً ، او ان تكون المرأة مذنبة . كل ما في الامر ان الطبيعة جمعت بينهما بدون تنسيق ، خالطة الخير بالشر ، شأنها في جميع اعمالها ، حيث نجد الاشياء متشابكة ، مبهمة ، دنسة ، ذات وجهين ، على الرغم من مزاعم اللاواعين والفلاسفة الذين لا يرون في الحياة إلا احد وجهيها .

ربَّ قائل يسأل : « ما هذه المبالغة ؟ كيف يكون اتحاد الرجل والمرأة مبعثاً للقسم الاكبر من شرور البشرية ؟ »

للرد على هذا السؤال يكفي ان نفتح احدى الصحف ، وان نقرأ ما فيها من مآسي الغيرة ، وفواجع الخيانة الزوجية ، ونكبات الطلاق ، وكوارث الاجهاض ، والجرائم الغرامية ، وما اليها من مآسي العيال التي لا يمكن ان تحدث ما لم يكن هناك « زوج » : رجل وامرأة . وثمة اشياء اخرى لا سبيل الى ذكرها الآن .

في ضوء هذه الاعتبارات يمكن القول ان اللعنة ليست في الاقتران الحر ، بل في « الزوج » نفسه ، مهما يكن اساس زواجه ، او شكله ، او شروطه . وافظع ما فيه هذه الصدفة الشنيعة التي كانت بداية له . فالرجل المضطر الى اتخاذ رفيقة لحياته لا يجد سبباً وجيهاً لاختيار هذه دون تلك ، لان هناك ملايين من النساء جديرات بالحب . والطبيعة تُكره الرجل على ان يردد لعشر نساء كلمات الحب نفسها التي يقولها لزوجته . وهو في مثل هذه الحال يكون خبيثاً اذا كتم الحقيقة عن زوجته ، وقاسياً اذا صارحها بكل شيء . ان الطبيعة ترغمه على خيانة

زوجته ، وعلى ارتكاب ما تجره هذه الخيانة من الكذب والسفالة ، فاذا هو شرير حين يستسلم لطبيعته ، وشقي حين يقاوم هذه الطبيعة ويقاتلها .

تصير الفتاة امرأة في البكاء والعويل ، واماً في الاوجاع والانين . والولد – وهو حاصل طبيعي – يبشّع امه ويشوّه جمال جسدها . والعمل الجنسي ، الذي يُعتبر طبيعياً في صميمه ، لا يتم إلا في اوقات معينة ، وفي احوال معروفة ، فضلاً عما يتطلب من الاحتياطات . وهناك الخوف على الولد ، والخوف من الامراض الذي يخيم على الحياة الزوجية كأنه شبح الشؤم . ولا بد من احاطة العمل الجنسي الطبيعي بمحتويات صيدلية كاملة ، توسّخه وتسمّه ، وتجعله مهزلة .

والحق يقال ، لا يستطيع الرجل ، اذا فكر قليلاً ، إلا ان يشعر ، حين يدنو من المرأة ، انه يضع اصبعه بين دواليب مسنّنة تشده وتهدده بالسحق ، وانه يتحدى القدر . ومع ذلك فهو يشتهي هذه المجازفة ، والمرأة تشتهيها ، والمجتمع يشتهيها ، والطبيعة نفسها تشتهيها ، لو كانت قادرة على اشتهاء شيء . وهذا هو الحب ، هذا هو الخيط الناري الذي يربط الاحياء بالارض ، وقد يكون كافياً لتبرير وجود الخليقة .

قد يقول قائل : « ما الذي تعنيه بهذا الشرح الطويل ؟ والى اين تريد الوصول ؟ »

الجواب هو : « اني لا اريد الوصول الى شيء ، كل ما اريده هو التعبير عن دهشتي حيال هذه الحركة الاساسية في الحياة ، حركة التجاذب بين الجنسين المضطرة ، على الرغم من ضرورتها ، الى ان تكون سبباً لخضم من الشرور والآلام . واغرب ما في الامر ان الطبيعة هي التي ترغمها على ان تكون هكذا » .

يبدو لنا ان من واجب الطبيعة ان تعاقب من يقاوم نواميسها ، بينما الواقع هو خلاف هذا ، لان الطبيعة تخص بقساوتها وشدتها جميع الذين يتّبعونها ، والذين لا وجود لها بدونهم ، اللهم إلا اذا كان

المقاوم وغير المقاوم صنوين في صميم الطبيعة ، واذا كنا نخطىء حين نعتبر هذا مع الطبيعة ، وذاك ضدها ، ثم نعتبر ان الطبيعة موجودة هنا وغير موجودة هناك .

من

بيار كوستال

باريس

الى

السيد ارمان بايليس

لولوز

٢٧ نيسان ١٩٢٧

صديقي العزيز !

تسلمت رسالة من هذه المسكينة اندريه هـ . انها تعرض نفسهـا عليّ بكل صراحة . فاذا أصرّت ، فساضطر الى الرفض بصراحة لا تقل عن صراحتها .

اني اعلم كيف تكون ردة الفعل لدى المرأة الفرنسية في مثل هـذه الحال ، فقد تقول : « ان الرجـل الذي يحترم نفسه لا يتصرف هكذا ! واذا فعل ، فهو وغد ، او عاجز . من العار ان تُوجّه مثل هذه الاهانة الى امرأة » .

ما رأيك في هذه التهمة ؟

رويدك ، لا تتسرع باصدار حكمك ، واليك بدفاعي عن نفسي : ان اندريه غريبة عن المفاهيم المتواضع عليها في الحياة الاجتماعية ، وعاجزة عن فهم ما في تصرفي معها من المجاملة ، وسهولة الطبع ، والبساطة العفوية . فهي تعتبر معاملتي المهذبة اهتماماً كبيراً ، ورعايتي إثاراً ، وشفقتي صداقة . ويخيل اليّ انها تعتقد ، في بعض الاحيـان ، اني احبهـا . لو كتبتُ في

تقدمة احد مؤلفاتي الى زميل مـا تربطني به علاقـة ودية : « اقدم لك هذا الكتاب تعبيراً عن مودتي واخلاصي » ، لما خطر في باله لحظة واحدة اني اكنُّ له كثيراً من المودة والاخلاص . امـا اندريه فلو كانت هـذه التقدمة لها لذابت سروراً وصاحت : « لقد باح بحبه لي ! »

والواقع اني اعطف عليهـا ، واحترمها ، واقدر مواهبهـا ، ولا يخلو تقديري من الاعجاب بها . هذا كل ما في الامر ، وهذا كثير .

أهذا كل ما في الامر ؟ لا ، اني افهم حالتها النفسية ايضاً ، وقد ادركت انها تثير النفور منها في نفوس الذين يعرفونها ، فهم يتهمونها بانها تحسب نفسها متفوقة . ومن يدري ، فقد تكون متفوقة بالفعل ، خصوصاً على الصعيد الادبي . ولكنها على الرغم من كثرة مطالعـاتها تتصرف تصرفاً طبيعيـاً خالياً من التصنع ، بينا هنـاك نساء ، في مثل حالهـا ، يقرأن كثيراً ، فيستشعرن ، عن قصد او غير قصد ، احاسيس مستعارة ليست منهن في شيء . وكتابة اندريه بليغة الدلالة في هذا الشأن ، فهي البساطة بالذات ، تجري كأنها تتدفق من ينبوع . واندريه تختلف عن غيرها من النساء بان لها شخصية متميزة ، وطابعاً خاصاً فيه قوة وبساطة . وانت تعلم ان « الطابع الخاص » هو المزية العليا في اعتبار « غوته » . واني اعذرها ، الى حد ما ، على تخليها احياناً عن كرامتها ، لانها تحب ... والحب والكرامة لا يتفقـان . تريد ان تكون سعيدة . وهـذا مطلب طبيعي . وانا ايضاً عندما اريد ان اكون سعيداً امضي الى غايتي دون تردد .

والخلاصة انها تضايقني ، ولكني افهمهـا وادافع عنهـا اذا هوجمت . ولا استطيع القول باني لو كنت في مثل حالها لما كنت انا ايضاً مزعجاً ، ولكن بشيء من الحكمة والحذر ، على كل حال .

وبعد ، فانها دميمة ، خالية من الظرف ، قبيحة الهندام ، بعيدة كل البعد من مفاتن الانوثـة ، وانت نفسك قلت لي يومـاً : « ان لها شكل الخادمة » . فالوجه البشري اختراع غريب ، لا يعجب إلا اذا كان كامل

المحاسن .

ان اندريه لا تعجبني ، وان تكن غير كريهـة . واعتقد ان هـذا الشعور يكفي لتبرير موقفي منهـا . هناك نساء يفتقرن الى كل شيء ، ولكن افتقارهن هذا يعجبني ، ويثير شهيتي ، بينما اندريه تضايقني حتى الارهاق . لن اشرب هذه الكأس حتى الثمالة ، لا ! ابداً .

لا يصعب عليّ اخذ هـذه المرأة . وبوسعي ان اقوم بعمل استهجنه واحتقره على الرغم من صعوبته ، لأني مضطر فيه الى التغلب على الناس وعلى نفسي . وقد نجحت مرات كثيرة في اعمال تثير قرفي ، ولم يكلفني هذا النجاح إلا قليلاً من الانحطاط العصبي انتابني على اثر وصال قمت به مكرهاً . ولكن الامر الذي اعجز عنه هو التظـاهر بالحب . قد تشعر اندريه بقرفي منها خلال الوصال اذا رضيتُ بان آخذها ، فيكون هـذا القرف طعنة لها في الصميم . وما الداعي للتورط في هـذه التجربة ؟ لا يجوز ان ألبي طلبها لاعتقادي ان في ذلك ضرباً من الامعان في تعذيبها !

واذا افترضنا جدلاً انها لن تشعر بقرفي ، ولن تتألم ، فهل يجوز لي ان أضاجع امرأة على سبيل الشفقة ؟ هـذا موضوع جدير بالمناقشة ، على حد قول زملائي .

من المسلّم به ان الرجل يواصل احياناً امرأة استدرّت رحمته ، او أثارت غضبه . ولكن ، في كلا الحالين ، لا بد من اساس للرغبة في الوصال ، وليس من المحتمل ان يقوم أساس من هذا النوع بيني وبين اندريه .

حدثني يوماً صديق لي شقيّ في حياته الزوجية ، فوصف حـاله مع زوجته قائلاً : « اسايرها بعامل الشفقة . انها في مقتبل العمر ، ومحتاجة الى الوصال » . ولم الس قط هذا الوصف الذي بدا لي رهيبـاً . ولكن من المحتمل ان يقدم الرجل على إرضاء امرأة ما رحمة لهـا ، حتى ولو عانى اشد الشقاء ، اذا كانت هـذه المرأة زوجتـه ، او كانت مختلطة بحياته ومصالحه ، او كان يراها دائماً ؛ اما اذا كانت غريبة عنه ، تثير

اشمئزازه بدمامتها ، وليس لها في نفسه ادنى مودّة ، فكيف يستطيع ارضاءها على سبيل الشفقة ؟

ومهما يكن الاستيلاء على فتاة عذراء - وان تكن في الثلاثين من العمر - مهماً في نظر الناس ، فلا بد من الاعتراف بان هذا العمل يخلق علاقة ، ويجرّ الى مجازفة ، وقد يؤدي الى تحمل مسؤوليات ، والى نتائج عديدة . وليس في الامكان اعتبار عمل من هذا النوع كأنه لم يكن ، مهما يُبذل من الجهود ، ومهما تكن النيات حسنة . واعتقد انه من الجنون المطبق ان يواجه المرء جميع هذه الاخطار لاجل فتاة لا يكترث بها . كانت ام « كوليت »[1] تقول لها : « لا ترتكبي من الحماقات إلا التي تجدين فيها متعة » . ثم لا اريد ان تكون لاندريه حقوق عليّ .

وهناك سبب اخير لنفوري منها ، قد يكون سخيفاً ، وهو اني لست من حديد لاوزع قوتي بلا حساب . حرصت منذ ايام المراهقة على إخفاء جميع علاقاتي الغرامية — حتى التي تدغدغ غروري — وراء ستار كثيف من التكتم . ومبعث هذا الحرص : طبعي الخاص ، ومبدأ آمنت به : فانا من ناحية الطبع كتوم ، إخفي الحقيقة دائماً حين اتحدث عن علاقاتي الغرامية ؛ اما مبدأ التكتم فقد اعتنقته لانه يشجع الفتيات على الاستسلام لي بسهولة ، لثقتهن التامة بان ما يجري بيننا يبقى خفياً . ان لي سمعة فاسق ، ولكن هذه السمعة لا تضايقني ، ولا تعرقل مشاريعي لانها مبهمة . وهي مبهمة لانها خالية من اسماء النساء اللواتي اتعشقهن . وجل ما اخشاه ، اذا لبّيت طلب اندريه ، ان تنشر اخبار علاقتي بها ، ان تصارح الجميع بانها خليلتي ، وهي الفتاة المعطاء كلاماً وكتابة ...

---

١ ـ كاتبة فرنسية توفيت عام ١٩٥٤ ، من مؤلفاتها : « يا عزيزي » ، و « الثانية » ، وسلسلة كتب عنوانها « كلودين » .

من دواعي اعتزازي ان خليلاتي مجهولات ، لا يعرفهن إلا نفر قليل من اصدقائي الحميمين ، فكيف تكون حالي في باريس اذا استطاعت فتاة دميمة كاندريه ان تعلن للملإ انها خليلتي ؟

سيقول الناس : « اننا نعرف الآن من هي آسرة لبه ! » وبالنسبة الى هذا القول تصوّر ما يليه من المتاعب والمزعجات !

واخيراً ، اذا صرفنا النظر عن كل ما سبق شرحه ، يبقى هناك سبب واحد كاف ليحظر علي وصالها ، وهو ان لها من شكل وجهها وجبهتها ما يجعلها شديدة الشبه بعمي « كوستال دي براديل » ، وانت تعلم اني لا احب الاختلاط بين افراد الاسرة الواحدة ...

من يصدق ان لي ، انا ايضاً ، حشمتي الخاصة[1] ؟

. . . .

كوستال

---

١ ـ بقية هذه الرسالة لا علاقة لها بالموضوع . ـ المؤلف .

من

اندريه هاكبو
سان ليوناو

الى

بيار كوستال
باريس

٣٠ نيسان ١٩٢٧

تركتَ بلا جواب أخطرَ وأهم رسالة يُقدّر لفتاة مثناف ان تكتبها الى رجل. ان رسائلي الاخرى لا تحتاج حتماً الى جواب. اما الاخيرة منها، فالرد عليها كان ضرورياً لا بد منه. واذا ابيت ان ترد ايضاً على رسالتي هذه، فسأعتقد انك اسأت التصرف معي للمرة الاولى، وسيكون هذا الاعتقاد اول ثلمة حقيقية في ما أكنّ لك من الاعتبار.

بلغتُ الثلاثين من العمر، ولم أعرف الحب بعد. واذا ابيتَ ان تغير موقفك مني، فلن اعرف الحب ابداً، لانك شغلت من نفسي مكاناً بالغ الاتساع. من يستطيع ان يحبك مثلي؟ لا احد! هذا امر مستحيل. ليس بين خليلاتك واحدة تحبك مثلي. ولعل هذا احد الاسباب التي جعلتك تفضلهن عليّ. انت الرجل الذي لا تلتقيه المرأة في حياتها الا مرة واحدة؛ انت الرجل الحاسم، النهائي، الذي يدمغ بطابعه، والمرأة التي لا تلتقيه تحيا حياة بتراء، ناقصة، لا ازهار فيها ولا ثمار؛ انت سيدي. والله يعلم ان نفسي ليست نفس عبدة، ولكني اخضع لك بلا اقل جهد، وبلا ادنى تواضع. وعلى الرغم من كل شيء، فأني

ابقى دائماً معك على مستوى واحد ، وانا في حاشيتك ومساوية لك معاً . واعتقد انك لو كنت سيدي بكل معنى الكلمة لما كانت في العالم امرأة تشعر مثل شعوري المنعش اللذيذ . اقول هذا لافهمك اني لا استطيع – حتى ولو اردتُ مخلصة – ان اقدم لرجل آخر ما بقي فيّ من الحثالة ، لانك اخذت زبدة وجودي وأفضل ما في حياتي ؛ واعتبر اعطاء حثالتي لسواك عملاً حقيراً وقذراً ؛ ناهيك بانه يتعذر عليّ كلياً ان اهتم برجل آخر ، فجميع الرجال الذين ليسوا انت يملأون نفسي سأماً ، ويعجزون عن الهيمنة عليّ ، لاني اسيطر عليهم . ولا استطيع ان اكون لرجل لا يهيمن عليّ هيمنة مطلقة في كل شيء . هذا امر مستحيل ، لا اكاد افكر به حتى احس ان كل شيء فيّ ينخرط في البكاء . حقيقتي – حقيقة المرأة في حياتي – هي ان احب في جوّ من الخضوع والاحترام ، وان احس بان من احب متفوّق عليّ . لو قدمت لي اليوم افضل العروض المغرية للزواج ، لكان شأني حيالها شأن من تملكته الدعوة الى الحياة الرهبانية ... ولعمدت الى ميزان المقارنة ، اضع في احدى كفتيه جميع خيرات العالم وملذاته ، واضع دعوتي في الكفة الأخرى ، فترجح حتماً دعوة الزهد والتقوى .

انت في حياتي كثير وقليل : فانت كثير يجعلني عاجزة عن ان احب سواك ؛ وانت قليل لا يروي توقي ، ولا يشبع حواسي . انك تعطيني كثيراً ، فلا استطيع قطع علاقتي بك دون ان اتمزق تمزقاً مهلكاً لا يُحتمل ؛ وانك تعطيني قليلاً لا ينقع غليلي ، ولا تقل آلامي فيه عما اعاني من الحرمان التام . ان صداقتك لي مصدر لعذابي واوجاعي ، وقطع هذه الصداقة يسبب لي من العذاب والاوجاع ما لا اطيق احتماله . فكأني بك خنجر غائص في قلبي ، اذا تركته آلمني ، واذا انتزعته فرغ قلبي من الدم والحياة . اني مقطّعة بين اربع قوى تمزقني بلا هوادة ، وهي : صداقتي لك ، وحاجتي الروحية اليك ، وحاجتي الى

ان اكون محبوبة عاطفياً منك ، وحاجتي الجسدية الى الحب ، اي توقي الى الحياة الكاملة ، الممتلئة ، ولو اقتصرت على بضعة اشهر لا غير ، لان جسدي ايضاً في أمسّ الحاجة الى الحب ، وحاجته طبيعية مشروعة . اذا كنتُ أضنُّ بك ، ولا اريد ان اخسرك ، فلا بد لي من التضحية بجسدي ، ولا بد لي من ان اموت عذراء ، او ان انسى حتى اسمك . وها اني احرم نفسي الزواج ، والمتعة الجنسية ، والامومة ، والحياة الطبيعية السليمة ، وارهق قواي في مأزق عاطفي لا مخرج منه ، في سبيل رجل يحبني قليلاً ، ولا ريب ، ولكنه لا يحتاج اليّ مطلقاً ليعطيني ، ولا ليأخذ مني . فانت لا تريد مني حتى زهدي بالحياة . انك لا ترغب في شيء مني اطلاقاً .

قلتَ لي يوماً ان النساء اللواتي ينظرن اليك بعيون مغرورقة بالدموع « يطرحنك ارضاً » من شدة الهلع ،فهل رأيتني مرةً واحدةً انظر اليك بعينين مغرورقتين ؟ أتراني افرض نفسي عليك او اتشبث بك ؟ لو كنتُ اتبع هذا النهج ، لكانت مقاومتك معقولة ، اذ ليس عليك اقل واجب نحو الذين يضايقونك بالحافهم . ولكن ليست هذه حالي بالنسبة اليك . انني شديدة الحرص على اجتناب هذا المزلق ، لان سأم الرجل مُذلّ للغاية بالنسبة الى المرأة . انـ ـحبي صداقة ، او بالحري صحبة مغرمة . اني لا اشتهيك ، ولكنك الرجل الوحيد الذي استطيع ان اتقبل شهوته بلا مقاومة . واردد لك قولي السابق : اني لا استطيع ان احب إلا على المستوى الرفيع . افضّل ان يزقني الحرمان على ان اعطي نفسي لمن هو دوني . وافضل الزواج ، ولو كان تافهاً ، على المغامرة التافهة . ماذا تريد ؟ ان اتزوج ، وصداقتك الى جانب هذا الزواج ؟ ليس هناك زوج يرضى بمثل هذه الصداقة في حياته الزوجية . ثم ان مجرد التفكير بان رجلاً آخر يحاول ملامستي يجعلني انفر منه ، وألوذ بك ، وفي خيالي أسفٌ مرير ، لأن ما كان ممكناً ان يكون قد ذهب مع الريح .

اردتُ ، في ما مضى ، واريد الآن ، الخير لك ولي . فهل من المحتمل ان تكون آمالي وجهودي قد ذهبت كلها سدى ؟ أمعن في تعذيبي ، والحق بي ما تشاء من الضرر ، اذا كانت حقيقتك تتطلب ذلك ، ولكن لا تخيّب رجائي فيك . واذا افترضنا جدلاً ان الشهرين اللذين التمسهما منك سيكونان خاليين من المتعة بالنسبة اليك ، لانك متخم بالغرام في ميادينك الاخرى ، فلمَ لا تعتبرهما فترة تجربة نفسانية تستمد منها اختبارات جديدة لمؤلفاتك المقبلة ؟ سأكون معك الارنب الهندي الذي تجري عليه هذه التجربة . وانا على هذا الصعيد ارنب نادر الوجود ، عظيم القيمة ، لاني حيوان واعٍ ، يمتلج في نفسه عالم من الاحاسيس ، والرغبات ، والعواطف ، ويستطيع ان يدوّن ما يحس ، وان يحلل ما يتنازعه ، ثم ان يطلعك على كل شيء بامانة واخلاص . واذا فاتتك اللذة في هذه التجربة ، فلن تفوتك الفائدة لانماء انتاجك . ومتى ايقنتُ اني اساعد على هذا الانماء ، ولو قليلاً ، فان سعادتي تكون مضاعفة .

وبعد ، فمن يدري ؟ قد تأتي اللذة على حين غرة ، فتجد في تجربتك شيئاً من المتعة . إن لائحة النساء اللواتي احببتهن خالية من فتاة ريفية في الثلاثين من العمر ، مثقفة عقلياً بقدر ما هي نقية وطاهرة جسدياً ، وحسناء جسداً اكثر منها وجهاً .

كثيراً ما قلتَ في مؤلفاتك ان غرض الرجل الوحيد في الحب هو الفضول ، والسعي وراء المعرفة ، فلماذا لا يتحرك فضولك بالنسبة الى هذا « الشيء » المعروض عليك ، والذي هو « انا » ؟ واخيراً ، لماذا لا اكون انا لك عوضاً عن امرأة اخرى تتسرّى بها لسدّ حاجة عابرة ؟

ان قضيتي معك هي احد أمرين : إما ان يكون لي في نفسك بعض العطف الحقيقي ، فلا تؤثر علاقتنا عليك بشيء ولا تفقدك شيئاً ، بل تكسبك بعض الارتياح لانك جعلتني سعيدة ، وقد تبدأ علاقتنا بالصداقة ، وتنتهي بالصداقة ، فيكون الحب كامناً بكل امان بين طبقتين

من الصداقة ، كجوهرة ثمينة بين قطعتين من الحرير ؛ وإما ان اكون لا شيء في نظرك ، وان يكون نصيبي منك عدم الاكتراث ... وفي هذه الحال فما الذي يخيفك مني ؟ انك تشهد انتهاء التجربة دون اقل أسف ، فتنفصل عني وتقصيني عن حياتك نهائياً .

يخيل اليّ اني انطح جداراً ، وان هذا الجدار لا يلين ، ولكني سأثابر على العمل ، سأستمر في هذه المحاولة ... انك لا تعلم مقدار القوة التي تنطوي عليها ارادة المرأة .

اندريه



من

بيار كوستال

باريس

الى

اندريه هاكبو

سان ليونار

٢ نوار ١٩٢٧

آنستي العزيزة !

تسلمتُ رسالتيك المؤرختين في آذار اللتين تشكين فيهما من سكوتي، ورسالتيك المؤرختين في نيسان اللتين تعرضين فيهما نفسك عليّ. وانت ترين من ذكري لمحتوياتها اني قرأتها كلها.

انك موسوسة بالسعادة. وانا مثلك أعاني هذا الوسواس. لا يسمك ان تدركي كم انا مرهف الشعور بالمأساة التي يقاسيها من يكون جسده وروحه محرومين مما يشتهيان. ساكتب في هذا الموضوع صفحات، وصفحات، بقوة يتضاءل دونها ما جاء في رسائلك. واذا كنا متفاهمين عقلياً وعاطفياً في هذا الصدد، فلأن عذابك التقى عذابي في نطاق عذاب من نوع واحد، فاذا انا انت على هذا الصعيد، ولكن يوم كنتُ في سن المراهقة. ولم اكن في هذه السن فقط مصفّداً بارتباكي، وحيرتي، وجهلي للعالم، بل غدوت، لما بلغت سن الرجولة، اعاني مرارة الوحدة في فترات عديدة من حياتي، إلا ان هذه الفترات كانت قصيرة الامد. اما اليوم فاني املك كل ما احب، واحب كل ما املك.

واذاً ، فليس عذابك من النوع الذي اضطر الى تخيله لأستطيع ان اشفق عليه . اني اعرفه حق المعرفة . فهو فظيع ، وحالتك فظيعة ، وانك ، ويا للاسف ، عديمة الحظ .

وما خلا ذلك ، فاني فهمت رسالتيك الاخيرتين . فانت تريدين ان تكوني لي . فاسمحي لي بان اقول لك ، ايتها الآنسة العزيزة ، ان هذه الفكرة لا تبدو لي موفقة .

اولاً — لي مزايا جسمانية خاصة . فانا لا اشتهي إلا :

أ — البنات اللواتي لم يبلغن الثانية والعشرين من العمر .

ب — البنات الباردات ، السلبيّات في الحب ، النباتيّات المزاج .

ج — الطويلات ، الرقيقات ، صاحبات الشعر الحالك السواد .

وانت تعرفين انك لا تتمتعين بشيء من المؤهلات المطلوبة ، وهي مؤهلات ضرورية لا بد منها مطلقاً . ومهما تكن مفاتنك التي لا استرسل في وصفها لانك تعرفينها جيداً ، فاني احس بعجزي عن تلبية طلبك ، على الرغم من انه يشرّفني . فالطبيعة — وما احقرها ! — قد تظل صماء اذا دعوتها للقيام بما تريدين . وقد صدق من قال : لا يمكن سقي حمار غير عطشان .

ثانياً — ان العمل الذي تحلمين به — واقول هذا على سبيل التذكير — قد يكون لك خيبة كبرى ، خصوصاً بعد حماستك المحتدمة في سبيله . ليست لديك فكرة واضحة عن « السعدنة » التي تجاهرين بالتوق اليها . فمن يستمع الى حفلة غرامية من وراء حاجز يظن ان هناك عملية تجري في عيادة طبيب الاسنان . لا ادري اذا كنتِ قد سمعت ما تهمس به المرأة عندما تسلم نفسها . ألم تسمعي هذا الهمس ؟ لا ؟ حسناً ، لانك لو سمعته لكانت الحال مؤسفة ، ولكنتِ دخلت الدير وترهبت فوراً .

ولكي نكون منصفين يجب ان نذكر ايضاً ما يقوله الرجل عندما يتحدث الى امرأة مجهولة ، محاولاً انشاء علاقة بينه وبينها ... ولكن

لا ! من الافضل لك ان لا تعرفي شيئاً من هذا الحديث ، لئلا تنتحري باطلاق الرصاص على نفسك .

واني احذرك ايضاً من ايمانـك بقدرة الرغبـة والارادة على اجتراح المعجزات . تعرفين رأيي في غباوة النساء . ويبدو لي ان احـد وجوه هذه الغباوة هو ايمـانهن بجدوى الالحـاح في الطلب . لا اشك بان هناك رجالاً تنجح هـذه الطريقة معهم ، ولكني من النوع الآخر تماماً . لذلك ارد طلبك قائلاً : لا ، ابداً !

هيا بنا ، تشجعي ! كوني على يقين باني معك بكل اخلاص في هذه التجربة القاسية . ولكني أسائل نفسي : لماذا تتهافتين عليّ ، بينما هناك عالم وسيع ، يكتظ برجال يتمتعون بمختلف المواهب والصفات ، وفي وسعك ان تختاري واحداً منهم لتجعليه سعيداً ؟ انك ترتطمين بي ارتطام الطير بزجاج المصبـاح . لن تحطمي هذا الزجـاج ، بل ستتحطمين عليـه ، وستسقطين على قدمي المصباح خائرة القوى . الى اللقاء ، يا آنستي العزيزة . اود الاعتقاد انك ستحتفظين لي بصداقتك ، بـلا حقد ، أليس كذلك ؟ وانت تعلمين اني في حاجة دائمة الى نيـل الغفران لجميع اعمـالي . لكِ باخلاص [1] .

ك

ملاحظة : لم تضعي على رسالتـك الاخيرة طوابـع كافية . وللمرة الرابعة تقعين في هذا الاهمـال . ولا غرابـة في الامر مـا دمت ترسلين اليّ هذه الكدسات من الورق الكثيف . وعليّ كل مرة ان ادفع رسوماً باهظة . يجب ان تشتري ميزاناً للرسائل .

---

١ ـ ختم كومستال هذه الرسالة بعبارة : « BIEN A VOUS » وهي من التعابير الدارجة في المراسلة والتي تعني تقريباً : « لك باخلاص » . ولكنـه كتب حرف « R » ، بدلاً من حرف « B » في كلمة « BIEN » ثم خربشها قليلاً ، فاصبحت العبـارة : « RIEN A VOUS » ومعناها : « لا شيء لك » .

من

بيار كوستال

باريس

الى

ارمان بايليس

تولوز

٢ نوار ١٩٢٧

. . . .

. . . .

تسلمت من اندريه المسكينة رسالة ثانية تعرض فيها نفسها عليّ بما يشبه خبط عشواء. انها تحبني حباً جنونياً جعلني اتعجب من احجامها عن قتلي حتى اليوم. ولكن ما عليها الا ان تجرّب، اذا شاءت ا فسيكون استقبالها حسناً، اذ لستُ من الذين يُقتلون بسهولة. وسأكون البادىء باغتنام الفرصة، ولن اتركها تفوتني.

لا الوم اندريه، بل افهمها وارثي لحالها. كتبتْ اليّ يوماً قالت: «الفهم هو الحب، ومن فهم فقد احب. واذا كنت افهمك فهماً تاماً، فلأني احبك حباً عظيماً». اما انا فلست في مثل حالها. اني افهمها ولا احبها. ليس لها في نفسي إلا هوة عميقة من عدم الاكتراث. وحتى تفكيري باني أعذبها لا يكسبني اقل تسلية. ولهذا السبب لن اعطيها شهرَي الحب اللذين تلتمسهما. لن اعطيها اسبوعاً واحداً — اسبوع الاحسان — ولا ليلة واحدة، حتى ولا ساعة.

ليتك تقرأ الرسالة التي بعثتُ بها اليها ! لم اشأ ان اصارح هذه المسكينة بالسبب الحقيقي لرفضي الذي يمكن تلخيصه بما يلي : « لن احبك ، ولن امتلكك ، لاني لا احبك ولا اشتهيك » ، فرحت اجهد نفسي بابتكار الشروح والتفاسير لكي ارفضها بدون ان اجرح شعورها .

ليست هذه المرة الاولى التي اجد فيها نفسي عالقاً بمأزق . ففي ايام الشباب اضطررت الى التماس مساعدة احد الاطباء ، فطلبت اليه ان يخبر امرأة اميركية ، هامت بي ، بان احدى البغايا نقلت اليّ عدوى مرض وبيل ... فنجوتُ بهذه الحيلة من الاميركية الملتهبة . ومنذ ثلاث سنوات طاردتني البارونة « فليشياه » وهي اكثر من خمسينية . وذات ليلة ، بعد ان مضى من الليل اكثر من نصفه ، ونحن منفردين ، وجهاً الى وجه ، في حديث وسمر ، بذلتُ اقصى الجهد لابقيها على مستوى رفيع من الرصانة والجلال ، فرفعت البارونة ذراعيها الكالحتين الموصومتين بشحوب الشيخوخة ، ووضعتهما تحت انفي قائلة : « انت اول رجل استقبله في مثل هذه الساعة ، ولم يقبل ذراعيّ » . وفي هذه المحنة الدهماء رأيتني مضطراً الى اختراع سبب اعتذر به عن فتوري . وخجلت جداً لان البارونة كانت قد ساعدتني على الخلاص من احدى فتيات ولاية « ألاباما » الاميركية . فقلتُ لها اني سيء الحظ ، لا اشعر باقل رغبة في وصال النساء . وبما اني متكتم في حياتي الغرامية ، فقد صدقتني البارونة ، او تظاهرت بانها صدقتني ، لست ادري ! وقد غمرتني موجة من المرح ، وانا في هذا الموقف الحرج ، لاني تخلصت من البارونة بلباقة ، وسدّدت ما لها عليّ من فضل سابق ، فرحت اروي لها اساطير مدهشة ، مقسماً باني لم اعانق امرأة في حياتي ... وبهذه الطريقة بقيت صداقتنا على حالها .

ولكن نفسي أبت عليّ ان اتذرع بمثل هذه الاسباب الكاذبة حيال فتاة تعرض عليّ نفسها ، فرحت ألفّق لاندريه اخباراً مذهلة لا تنطلي على الاغبياء ... قلت لها اني لا اشتهي إلا الفتيات اللواتي لم يبلغن الثانية

والعشرين، واريدهن طويلات، رقيقـات، لهن شعر حـالك السواد، وفيهن برود الجماد العديم الشعور. واخيراً، قلت لها ان الوصال ضرب من « السعدنة ». وهو بالفعل كذلك. ولكنه ايضاً شيء آخر.

مع ان المسألة كانت في غاية البساطة، اذ كان يكفي ان تنطلق شرارة واحدة من الرغبة ليتم الامر منذ اربع سنوات! انك تعلم ناموس الخلق الذي اؤمن به، وهو: « في البدء كانت الشهوة! » اجل، ولو لم تكن الشهوة، لما كان البـدء. اسمع: رأيت امس في منزل « دوانيي » فتاة مدهشة. يا لها من حيوان صغير جميل! استرعت انتباهي، فلاحقتها فترة من الوقت في شهر شبـاط، وفي مركز الاصلاح الاجتماعي، حيث كانت تقود رجلاً اعمى قالت لي انه يتيم ومن اقربائها. وبينما كان الناس يرهقونني بانواع المجاملة والملاطفة، كانت هي صامتة لا تنبس بكلمة. وانت تعلم ان من يسكت ولا يقول لي شيئاً، يكون قد وجد الطريقة الوحيـدة التي افهم منها انه قال لي اشياء كثيرة. ومتى كانت الفتاة بسيطـة، فانها ترتفع في اعتباري درجة، خصوصاً اذا جاءت بعـد الشخصيـات « المرموقة » التي هي من طراز اندريه.

وبدت لي تلك الصغيرة، منذ اللحظة الاولى، قليلة الذكاء، لانهـا بارعة الجمـال. وأنا واثق باني لم اجـد قط الذكاء والجمـال مجتمعين في امرأة واحدة.

واخيراً خاطبتني تلك الصغيرة الحسناء، فتفوهت بعبارات مبتذلة، من تلك التي يجترّها الجميع كل يوم، وفي كل مناسبة. إلا انهـا كانت تحاول ان تسبغ على حديثها شيئاً من الرونق، ولكن صوتها المصطنع كان خالياً من الذكاء.

من البديهي اني احببت ان اتحرّش بها، فقلت لها:

— اخبرتني انك قرأتِ احد مؤلفاتي، فأيها قرأتِ؟

ففكرت قليلاً وهي تستنجد ذاكرتها، ثم قالت:

– ماذا قرأت ؟ آه ! تذكرت الآن ... قرأت : « لا شيء سوى الارض » .

– متأسف ! يا آنسة ، هذا الكتاب لـ « موران » .

ولكنها لم ترتبك ، بل اجابت بكل بساطة :

– اعلم اني قرأت شيئاً منك . لا اتذكر عنوان الكتاب ، ولا موضوعه ، ولكني اعلم علم اليقين انه اعجبني .

عافاها الله ! تخلصت بلباقة . ولكن الامتحان لم يكن قد انتهى بعد ، فحدجتها بنظرة قاسية ، وقلت :

– و ... و ... أتتحفظين في الثناء على ادبي وفني ، يا آنسة ؟

فجعلت تحدق اليّ بعينين واسعتين دون ان تتكلم ، فقلت : « لا ! انك لا تتحفظين في الثناء ! » قلتها بلهجة مفعمة بالحرارة والثقة . فحرّكت الفتاة رأسها موافقة على قولي ، وكنا كلانا مسرورين بهذه النتيجة .

كم كانت فاتنة هذه الصغيرة ! رأسها مستدير كرأس العصفور ، ويداها كاملتا المحاسن ، كأن اطراف اصابعها واظافرها من عقيق يشع اذ يخترقه النور ، مما يدعو الى الظن ان هذه الحسناء ارستقراطية الارومة ، ولكنها – ويا للاسف ! – ليست ارستقراطية .

جعلتُ اناور لنخرج معاً ، فنجحتُ . وها نحن في شارع « وغرام » .

حديثها مبتذل كرصيف الشارع ، وصوتها مزعج ، فيه حموضة ، يترك في النفس أثراً سيّئاً للغاية . ولكني تأثرت بخطاها الضيقة كخطى البغلة عندما كانت تسير الى جانبي . اني امشي كالجبل ، وهي تمشي كالشجيرة . أرأيت ما اجمل هذا التشبيه وما اسلم حدوده ؟ كانت جميع النساء ينظرن اليها متفحصات بعيون خالية من العطف ، وكان بعض الرجال يلتفتون ليروها من وراء حين تمر بهم . اما انا فافهمتها انها اعجبتني . وراودني ذلك الغرور العتيق الجلف الذي يراود الشاب السخيف عندما يسير الى جانب فتاة حسناء فيحسبها الناس خليلته . ولكني

قلت في نفسي : « يكفي ان يسمع النـاس صوتها ليدركوا انهـا فتـاة عذراء » . وقد هدّأت هذه الفكرة — نوعـاً ما — احتدام حمـاستي . والخلاصة ان « رنيه ميزروا » قد تقمصني . فروفرو ، فروفرو ![1]

كنت متضايقاً لاني لا اعرف اسمها . وعندما يشتهي الرجل امرأة ، يجهل اسمها ، يخيل اليه ، عندما يطّلع على هذا الاسم ، انه بدأ يمتلك من يشتهي . فالاسم هو روح ثانيـة . واسم فـاتنتي الصغيرة « سولانج دنديّو » ، وفيه الطرفان النقيضـان : الارض والملاك[2] ، وانا في جميـع اطوار حياتي متصل بهذين الطرفين .

وسولانج حفيدة مدعٍ عام . وقد تكون هذه الصفة وحدهـا كافية لتثير شهوتي .

حدثتني قليلاً عن حياتها ببساطة فرنسية الطابع ، فأنستني الحكايات الخيالية الطويلة التي ترويها العذارى الالمانيات عن نفوسهن .

ورافقتُ فتاتي الى منزلها في شارع « فيلياه » ، فاعجبتني البناية التي تقطن فيها ، مما ساعد على ازدياد حبي لها .

زعمت ان ليس لها صديقات . ولا شيء ، في نظري ، يوافق الفتاة

١ ـ « رنيه ميزروا » كاتب فرنسي توفي سنة ١٩١٨ ، حرر في جريدتي الـ « غولوا » والـ « فيغارو » ، ووضع سلسلة من الكتب الاباحية الحالمة العذار ، اهمها . « الغرام المحظور » ، و « الباريسيات » و « الازرق الكبير » اي البحر . و « فروفرو » كلمة تقال للتعبير عن الشبق الطائش ، والامعان في التهتك . وقد وضع « ميلهاك » و « هالفي » تمثيلية خفيفة سميا بطلتها « فروفرو » ، وهي غادة حسناء ترى الحياة عيداً دائماً ومنهلاً للمتعة لا ينضب . دللهـا كلٌ من ابيها وزوجها فاسترسلت في التهتّر ، وفرت مع احد عشاقها ، ثم عادت مرهقة الى المنزل الزوجي ، وماتت مغفورةً لها خطاياها .

٢ ـ قسم المؤلف « SOLANGE » قسمين : « SOL » و « ANGE » ، ومعنى الكلمة الاولى : « الحضيض » ومعنى الثانية « ملاك » . وهذا تلاعب بتفسير الاسم ، بعد تجزئته ، ليقول انه يحب الطرفين النقيضين : انحطاط الحضيض ، وسمو السماء .

كخلو حياتها من الصديقات والاهــل ايضاً . اقترحتُ عليها ان اجعــلَ اسرة « بيارار » تدعوها الى زيارتها بعد ثلاثة ايام ، فقبلت . وقد قدمت لها هذا الاقتراح لأنعم بكتابة اسمها تمهيداً لتوجيه الدعوة اليها .

لماذا اروي لك هذه الحكايات ؟ لأن هذا الملاك لن يفلت من يدي. فقد اصبتها ، وما عليّ الا ان اتركها تتخاذل حتى تسقط . وهذه الحكاية هي ردي على هذيان اندريه التي تبحث عن ذرائعها في غيبيات لا يعرف الله نفسه كنهها ولا مكانها . ان حكاية اندريه تختصر في جملة واحدة تصلح عنواناً لتمثيلية هزلية خفيفة ، وهي : « كان يكفي ان تكون جميلة » .

كتبتُ : « ملاك » ، بصيغة المؤنث . وبما ان الملائكة ارواح مطهّرة من المادة ، فلا ادري لماذا يتخيل الناس فيهم معالم الذكورة . اما انا فلا اجد تفسيراً لهذا التخيل الا الرغبة في مسايرة اللواط الكامن في صدور ابناء البشر .

من

اندريه هاكبو
سان ليونار

الى

بيار كوستال
باريس

يوم الجمعة ٤ نوار

لي صديقة خبيرة في شؤون الفراسة ، تقرأ اخلاق الناس في اشكال خطوطهم . وقد أريتها يوماً احدى رسائلك بدون ان اذكر لها اسمك، فقالت لي : « احذري هذا الرجل ، فهو من نسل الافاعي » . اجل ، ذاك هو الواقع . انت الافعى الذكر بكل قبحها المريع .

ولي صديقة اخرى شربت يوماً من احد الينابيع ، فبلعت مع الماء بيضة حيّة . وفقست هذه البيضة في امعاء صديقتي ، فخرجت منها حيّة صغيرة واخذت تنمو وتكبر . ولم يُعرف ما بها الا بعد زمن طويل ، وبعد تصويرها بأشعة « اكس » . وانا ، مثل هذه الصديقة ، أدخلتُ حيّة الى جسدي ، ومثلها ادخلتك الى قلبي بكل براءة ، وكل اخلاص . وها انا ارى الآن الافعى الشريرة في داخلي .

قاتلٌ لئيم وعنيد انت !

اواه ! ليس لي ما اقول . فعملك طاهر ، شريف . لم تسفك دماً . لم تعمل ما يمس بسمعتك او يثير حولك الشبهات ، وفي وسعك ان تجد لتصرفك اكثر من مبرر ، اذ تتنصل قائلاً : « ماذا ؟ انا ؟ انا بذلت في

سبيلها الجهود ، انا ما ازال حتى الآن ابادلهـا عطفاً بعطف ، انا افهم عذابها فهماً كلياً ، واقدم لها التشجيع والتعزية ! »

ان تعزيتك هـذه تثيرني ، فاود لو اصفعك . ومـا احقر نصائحك الصادرة عن عواطفك الخيرة !... ما احقر تجردك المهين ، هـذا التجرد الذي لا يمكن ان ينجم الا عن العجز ، او عن « السّاديّة »[1]!

قلت : « ابداً ! » ولماذا ؟ لاني في الثلاثـين من العمر ، ولاني لست سلبية باردة ، الخ ... ان احقر فتاة مراهقة نعمت بمداعبتك ووصالك كما تنعمُ بوصال كل رجل يطيب له امتلاكهـا ؛ اما المرأة التي انت في حياتها كل شيء ، والتي تجد في وصالك منتهى سعادتها البشرية ، لا لانها تعطيك المتعة — فلا تحسب نفسك من الخوارق — ، فانك تقول لها : « لا ! ابداً ! »

البغي بنت الشارع ، او نزيلة احـد بيوت الخنى ، هذه البغي التي تحتقرها ، تنـال وصالك ، وانا التي احبك بقلبي ... واحب طيبتك ... اواه ! طيبتك ؟ دعنا منها الآن ! انهـا طيبة صديق يرى صديقته تغرق فلا يمد اليها يداً ! ولكن لا شأن للطيبة الآن ، فلنتحدث عن الانصاف . فالانصاف هو ان ترد على الحب المقدم لك بحب مماثل .

قلتَ في رسالتك الاخيرة : « لا استطيع ان احب إلا فتيـات لم يتجاوزن الثانية والعشرين من العمر » ، فدع هذا الدجل لسواي ، لانـه لا ينطلي علي . ففي كتـابك « الوهن » قـال بطلك موريس لكريستين :

---

١ ـ ضرب من الشذوذ الجنسي يبحث اصحـابه عن المتعة في الالم . وهـذه الكلمة مشتقة من اسم الكونت دوناسيان الملقب بالـ« مركيز دي ساد » ، وهو كاتب فرنسي توفي عام ١٨١٤ ، وضع روايات لا يجد ابطالهـا اللذة الا في الاوجاع . وكثيراً ما تستعمل هذه اللفظة مجازاً للدلالة على الضراوة والوحشية ومنتهى القسوة ، وخمود الشعور الانساني .

« لم تعد عيناك ، كما كانتا ، عيني فتـاة . انهما الآن عينـا امرأة تحتويان شيئاً جديداً في اعماقهما » (الصفحة ٢١١) . ان كلمة كهذه لا تكتب عفو الخـاطر ، ولا بد من ان يكون صاحبها قـد فكر بهـا ملياً واحسها . وقلتَ انك لا تستطيع ان تحب إلا النساء البـاردات ، وانك تريدهن « سلبيات ، نباتيات » ، او من خشب ، او من حجر ، او من حديد ، او من اسمنت مسلح ! ولكنك كاذب . فقد كتبت في حديثك عن البولونية الصغيرة : « احب مـا اعطيها من اللذة الجسدية . واذا لم انعم من وصالهـا إلا بهذه المتعة ، فانهـا لكافية (كتابك « ارجوان » الصفحة ١٦٢) . وقلتَ انك لا تحب إلا الفتيات الطويلات ، الرقيقات ، فمن اين جئت بهذه الحكاية ؟ أنسيت كيف وصفت هيلانة في « الوهن » وليديا في « ارجوان » ؟ [1]

. . . .

... وانك تتحدث عن « إلحاحي » ! أ أنا ألح عليك ؟ أ أنا اريـد اجتياح حياتك ؟ اني اصرف حياتي باحثة عن طريقة تحررني منك وتحررك مني ، واشتهي ان تهينني ، وان تمعن في اهانتي اكثر مما فعلت ، لتثور في نفسي الكرامة الجريح ، وتُخرس صياح الألم الذي اعانيه لاني خسرتك !

ولمـا اقترحتُ عليك استبدال صداقتنـا الدائمة بطريقة تخلصك مني نهائياً ، قلتَ لي : « ان العمل الذي تحلمين به لا يورثك إلا خيبة مرّة ! » ولماذا يورثني خيبة مرّة ؟ هذه من بنـات افكار الرجل . فالمرأة تحذق تعظيم الاشياء وتقديسها بخيالها وقلبها ، بينما الرجل يمسخ كل شيء ويحقّره بنزوعه الى الانتقاد وبسكنته الطبيعية . ان المرأة تمنح حبها الاعظم بعد

---

[1] ـ حُذفت هنا نبذات عديدة من مؤلفات كوستال لانها متشابهة المعنى ، وقد ارادت اندريه ان تفحم بها الكاتب وتدلّه على التناقض الصارخ بين حقيقة تفكيره وما جاء في رسالته اليها ، فملأت بها صفحتين كبيرتين . ـ المؤلف .

الوصال الاول ، وتخصُ بهذا الحب الرجل الذي درّجها ومزّق امامها حجب الاسرار . واعرف من احاديث صديقاتي الكثيرات ان عكس هذه الحال غير وارد اصلاً ... فلا خيبة بعد الوصال ولا من يحزنون ! وحتى اذا حدثت الخيبة ، أفليست افضل من هذا الكبت الذي يسمُ الحياة ولا يتيح اقل فرصة للتحرر من اصفاد الرجل المحبوب ؟ وحتى اذا نشأ القرف ، فانه افضل من الحرمان ، لانه يسكّن الاوجاع ، فاشعر بان كل شيء قد انتهى ! فلا كوستال هناك ، ولا سواه ! واذاً ، ففي الخيبة اريدك ! وفي القرف اريدك ! ولكن هذا الحل لا يرضيك ، طبعاً ، لانه يمس بكبريائك . انك تقبل بسرور كبير ان تراني ابتعد عنك ، ان اخرج من حياتك ، لانه لا يهمك مطلقاً ان تحتفظ بي ، ولكنك تريد ان يكون ذهابي محفوفاً بمظاهر المجاملة والاكرام ، لاعتقادك انه لا يجوز للمرأة ان تغيّر نظرتها اليك ، لتظل ترى فيك ذلك البطل المكتمل الصفات . انك تخشى تجريدك من هالتك الشعرية ، فيا لك من ملاك مسكين ! ولكني اقول لك ان البطل الحقيقي هو الذي يمنح السعادة . واذا قُدّر لي ان اقرف من شيء فلن يكون قرفي من « الوصال الجنسي » ، بل من جبنك في تهربك من هذا الوصال . ان اعترافك الحقير جعل اعجابي بك يتزعزع للمرة الاولى . ليس في نفسي سوى الشفقة على هذا المطف الذي هو عطفك واحتقاره . انه لأعجز من ان يعي رغبات الجسد ، فلا يخشى تخمّر هذه الرغبات ، ولا يدرك ما فيها من طاقة النمو . وهذا هو الرجل الذي كنتُ احسبه إلهاً مخصباً . يحسدك الناس ، لكن حياتك قبيحة . اجل ، ألا تعلم هذه الحقيقة ؟ آه ! تباً لهؤلاء الرجال « المتفوقين » ! لهؤلاء المعجزة ، الطفيليين ! انهم يستحقون ان يثور عليهم ابناء الشعب الاشراف ، اصحاب القلوب الطيبة والايدي الكائنة ، وان يقطعوا رؤوسهم — وشيئاً آخر غير رؤوسهم ، لانهم لا يحسنون استعماله لاسعاد النساء المحتاجات الى السعادة اكثر من حاجتهن الى

الحيــاة . اواه ! ليتك امتلكتني ، لا لشيء إلا لتذلني . كان بوسعك ان تشفيني من حب يقتلني ، ولكنــك لن تفعــل . يجب عليّ ان اتعــذب بشهامة ، ايه ؟ يجب ان اكون وقورة ، متشبثة بتلابيب الرصانة ! فحضرة السيد كوستال رجل باسل يقدم على التضحية – التضحية بالآخرين طبعاً !

وتقول لي في نهاية رسالتك : « ومهما يكن من الامر ، فاعتقد انــك ستحافظين على صداقتك لي » ، كأنك تقول : « استطيع ، ببادرة بسيطة لا اهمية لها بالنسبة اليّ ، ان اعطيك السعادة . ولكني لا اريد القيام بهذا العمل . مع اني اودّ ان تبقي في حياتي ، الى حدٍّ ما ، لترضيني بدون ان تزعجيني او ان تخلقي لي المشكــلات . لا احب وجهــك ، ولا جسدك ، ولا وجودك معي ... ففي وسعــك ان تمطي هذه الاشيــاء الغليظة من شخصيتك لمن تشائين من الرجال ، على اني ارجوك ان تحتفظي لي دائماً ، يا آنستي العزيزة ، بمــا فيك من فتنة الفكر وروعة الخيــال الاثيري ! ثم لا تنسي (اقول لك هذا على سبيل التذكير) حقي المطلق في تعذيبك » .

لا ، يا هذا ! فقد شبعت من البطولات ، لانك نفـّرتني منهــا مدى الحياة .

حلمت برجل يسيطر عليّ ، يحملني ويشق بي صدر العاصفة . اخترته غازياً ماهراً ، له من الرجولة عشرة اضعاف ما للرجال الآخرين ، متفوق الذكاء ، رابط الجأش ، عظيم الهيبة والصولة ، جاءه يوماً واعظ كاثوليكي يؤنبه على انغماسه بالملذات الجسدية ، فاجابه : « واي حرج علي ؟ اني املأ الخليقة متعة وسروراً » [١]. لهــذا الرجــل كنت اريد ان اقــدم عقلي ، وفكري ، وشبــابي ، وجسدي – وهو جسد عــذراء – وشفتيّ اللتين لا تعرفان القبلة . وكم كنت سعيدة بان يتسنى لي الخضوع له ، فلأجله كنت

---

١ ـ رويت هذه الكلمة عن كوستال نفسه .

مستعدة ان اضحي بكل شيء : بحياتي وحتى بشرفي . قدمت له كل هذا ، فرفضه ! وقد توقعت جميع الاحتمالات ورضيت بكل شيء : رضيت بخسارة راحتي النفسية في اثناء استيلائه عليّ ، ورضيت بآلام الانسلاخ ، وخيانة الحبيب ، ونسيانه ، ويأسي ، وفقدان سمعتي ، بعد تخليه عني ... أجل ، توقعت كل شيء الا ان تقابل تقدمتي بالرفض . حسبت حساباً لكل ما سيحل بي « بعد » الوصال ، ولم يخطر في بالي ان هذا الـ « بعد » لن يكون . كنت اتوق الى عناقك ، فما وجدت سوى ملاطفتك وشفقتك . فانت احد اثنين : كهل ابويّ العطف ، او ولد طائش يتسلى بتنكيد الناس . كانت نفسيتي نفسية السذج المتواضعين الذين يعتقدون بانه لا مناص من الشهوة الجنسية بين رجل وامرأة في زهو الشباب ، بين رجل وامرأة سليمي الجسد والروح ، تربطهما اواصر صداقة حبية ، فلم افكر بترف الـ « بورجوازية العليا » و « النخبة المفكرة » وبما في هذا الترف من الشذوذ والتأفف المقيت . أرأيت انك جعلتني شيوعية ؟

السبت

« ابداً » هذه الـ « ابداً » كلمتك انت لا اصدقها . واذا حاولت غرسها في رأسي كالمسمار ، فان رأسي يلتفض ويلفظها تحت ضرب المطرقة . ولو كنت اصدق هذه الـ « ابداً » ، لما بقي لي إلا ان استلقي واموت . فهناك اشياء تميت بالفعل بلا اقل جهد . يكفي ان يستسلم المرء إليها ليفارق الحياة . ولكني لا اصدق ذلك . لا ، لا استطيع ان اصدقه . ستتعذب يوماً ، وستكفّر تكفيراً قاسياً عن أنك لم تتنازل في حياتك كلها عن رغبة واحدة من رغباتك ، حتى ولو كانت صغيرة عابرة ، وانك أكرهت مخلوقة تعبدك على التنازل عن متعة هي ، بالنسبة اليها ، وحيدة ، حيوية لا بديل لها ولا عديل . وفي هذا اليوم ، يا كوستال ، ستزول « ابداً » من الوجود . اجل ؛ لا استطيع ان اصدق اني لو وصلت

يوماً الى الارتماء على قدميك متوسلةً اليك ان تعطيني اسبوعاً واحداً من الوهم ، لا شهرين ، لقابلت توسلي ايضاً بالرفض . اني اطلب الآن هذا الاسبوع ، اسبوعاً واحداً . وبعده ينتهي كل شيء الى الأبد ، اذا شئتَ . ولأجل هذا الاسبوع تراني مستعدة ان احرق حياتي كلها ، وان اموت ، كلوسيفوروس ، في اللهيب . لا ، لا ، لا ، لا استطيع ان اصدق انك سترفضني الى الابد ، ولا بأس اذا اخذتني بلا اقل حب ، بلا اقل رغبة ، كما تأخذ بغياً تلتقيها صدفةً على رصيف الشارع ...

الاحد

اليوم هو يوم المناولة الاولى للاولاد . الشمس متألقة البهاء . انه يوم من ايام نوار التي تحطم الاعصاب ... بكيت حين سمعت اصوات الفتيات الصغيرات ... انطرحت جاثية الى جانب سريري ، وقلت : « يا الهي ! اعطني القوة الكافية لاقناعه ! »

وبعد قليل ، سأحمل هذه الرسالة لاضعها في صندوق البريد ، سأحملها وكتاب القداس بيد واحدة . فالى هذا الحد قد أوصلْتَني ، يا كوستال ، لاني لو كنت لك لما اضطررت الى كتابة هذه الاشياء .

(بقيت هذه الرسالة بلا جواب)

من

بيار كوستال

باريس

الى

اندريه هاكبو

سان ليونار

٦ تموز ١٩٢٧

آنستي العزيزة !

كانت رسالتي الاخيرة من الطراز المتمادي في الصراحة ورفع الكلفة . ما كدت ابعث بها اليك حتى شعرت بتبكيت الضمير . فاغفري لي هذه الهفوة .

من الطبيعي ان تكون هـذه الرسالة جعلتك تظنين اني اهزأ بالحـالة التي وصلتِ اليها ، بينما الحقيقة هي اني لست بعيداً عن الهزء وحسب ، بل اني « احس » موقفك واحترمه . وعلى كل حـال يجب ان اقول لك لماذا احترمك ، وان تصدقي حرفياً ما سأقول ، لانك لا تستطيعين وحدك ان تدركي كيف وصل رجل مثلي الى حال شبيهة بحالك كل الشبه . لن اشرح لك جميع العوامل والملابسات ، لا لأنها وثيقة العلاقة بحياتي الخاصة ، الحميمة ، بل لاني لا استطيع شرحها لنفسي ، مما يدعوني الى الاعتقاد ان هذه التجربة تشبه التجارب القاسية التي يتعرض لها المتدرّجون للانضمام الى الجمعيات السرية المخيفة ، كالنزول الى جحيم الآلهة القدامى . وتتخلّل هذا النزول فترات من الاقامة على سطح الارض ، وفي الكهوف المقدسة .

منذ سنوات عديدة ، وخلال بضعة اشهر – لنقل ستة اشهر – كنت سجين شهوتي . كانت في نفسي كتلة كثيفة من الحنـان ، وكنت على اتم الاستعداد لاعطيها لكل امرأة التقيهـا اذا احسستُ بشيء من الشهوة ، لاني ما احببت في حياتي حباً حقيقياً عميقاً إلا اللواتي اشتهيهن جسدياً . ولكن اللقـاء المرتجى بالمرأة المنشودة كان صعباً فلم يتم . وكنت واثقـاً بان العالم مكتظ بفتيات عديدات يسعدهن التمتع بذلك الحنـان وتلك اللذة اللذين كنت انا ايضاً اجد سعادة كبرى في منحهما دون تحفظ . إلا ان اماني تلك الفتيات واماني كانت كلها عديمة الجدوى ، لان اللقاء لم يتم . أتدرين ، يا آنسة ، اني لجأت الى تلمس ايدي المـارة في الشوارع ، لشدة حاجتي الى الاحتكاك بالبشر ؟ ولكن يجب ان تذكري اني كنت اصغر سناً مني اليوم ، وكانت حريتي واسعة لا حدود لها ، وكنت املك من المـال مبالغ ضخمة لا ادري كيف اتصرف بهـا ، واحسن باني على اتم الاستعداد للبذل ، ولدفع ثمن السعادة التي اتوق اليهـا ، مهما يكن هذا الثمن باهظـاً . واعني بالسعـادة سعادتي انا ، وسعـادة المرأة التي تمنحني نفسها . ولكن اللقاء لم يتم . كانت الفتيات يخشين شهوتي ، ولا ادري لماذا . وكنت ارى اشخاصاً يجتنبونني ويبتعدون من طريقي ، مع اني لم اكن اريد لهم إلا الخير ، ولا اطلب اليهم ، في مقابل ذلك ، إلا ما يريـدون هم انفسهم بطيبة خاطر . وكان يبدو لي ان شهوتي مرئية ، ظاهرة على وجهي كالعرق ، كالبخـار الذي يتصاعد ويحجب جانبـاً من الملامح ... ولكن لا بد من الاعتقاد ان العين المجردة لا ترى هذه الاشياء . وبقدر ما كنتُ اقترب من الناس كان النـاس يفرون من طريقي فرار الخراف الى جانبي الطريق عندما تقبل سيارة مسرعة . كانت الخليقة تنساب من بين اصابعي . لا استطيع ان انسى ذلك الخوف الذي كنت اقرأه في عيون اودّ لو اغمرها بقبلات حنونة ، تكاد تكون ابوية ... فالفتيات ، اللواتي كنت مستعداً لمعاملتهن كأنهن خطيبات محبوبات ، كنّ يهربن من

طريقي مرتعدات الفرائص ... قد اكون ارتكبت مخالفة للقوانين فطبعت صورة مخالفتي على وجهي ، او اني كنت ضحية سوء تفاهم ، او نميمة ، كأن يكون احد مراسلي جريدة الـ « فيغـارو » ، مثلاً ، قد كتب عني اني افترس الفتيات على طريقة « المينوتور »[١]. فكنت ارى الجميع حولي يلتقون اثنين اثنين ، ويمضون في سبيلهم ، في سبيل الحب ، بينما انا اتقلّى في انفرادي ، لأن اللقاء المرتجى لم يتم .

كان ذلك في فصل الربيع ، ثم جاء الصيف . ان هذه الامور تحدث دائماً في الصيف . وما شد وطأة شهر آب على العطاش الذين لا يجدون ما يروي غليلهم . ويعلم الله اني عشت خلال هذه الفترة « اياماً لا اجمل ولا ابهى » ، وكنت اشعر ان كل شيء في الطبيعة ينعم بالسعادة إلا انا . وقد استولى عليّ وسواس طاغٍ ، مستبد ، فغدوت عـاجزاً عن العمل للتخلص من كابوسه . وراحت الايام تتوالى خاليـة من الحب . هوذا يوم يمر ويتلاشى ، فيليه يوم آخر ويقهرني بفراغه من الحب . ولكنه يمر ، وإن يكن فارغـاً ، فيدنيني خطوة صوب الموت ، مع انه لا يجوز إلا لأيام السعادة وحدها ان تتمتع بهذا الحق . اني احفظ عن هذه الفترة ذكريات مرعبة ، واستمد منها رغبة كبيرة في مساعدة الذين يموتون توقاً الى العطاء ، ولا يجدون احداً يعطونه . وهذه الحال مأساة رهيبة ، خصوصاً بالنسبة الى النساء ، لاسباب عديدة ومعروفة ، اهمهـا الشعور باضمحلال شبـابهم سراعاً ، وكونهن تابعات غير مستقلات ، واهتمامهن بآراء النـاس المتربصين

---

١ ـ مسخ اسطوري من مبتكرات الخيـال اليوناني ، له رأس ثور وجسم انسان . نشأ من غرام « باسيفايه » زوجـة مينوس وثور ارسله اليهـا « بوصيدون » . سجنـه مينوس في تيه من السراديب بناه المهندس « ديدال » لهذه الغاية ، وكان الآثينيون يقدمون له سنوياً سبع فتيات وسبعة فتيان لتلافي غضبه . ويقال ان تيزيه ، البطـل نصف الاسطوري ، دخل التيه وقتـل المينوتور بمساعـدة آريان ، فانقـذ الآثينيين من شره .

ين ، الخ ... واكاد ألومك على انك لا تتحدثين عن مأساتك بقوة كافية ، كأن جانباً منها ما يزال غائباً عن ذهنك .

كيف خرجتِ من ذلك المأزق ؟

لست ادري ! فقد تحسنت الامور .

وكيف كان ذلك ؟ كان هكذا .

قد تقولين ان جوابي هذا على جانب كبير من الغرابة ، بالنسبة الى رجل مثلي يريد ان يرى الاشياء بوضوح . ولكني اصارحك بأني لا استطيع ان اعطيك جواباً آخر . فكل ما في الامر ان الطبيعة عاكستني بعض الوقت ، ثم انقلبت وراحت تساعدني ، فكانت كالهواء في الملاعب الرياضية ، تارة يهب ضد هذا الفريق وطوراً ينقلب معه . ومنذ ذلك الحين ، بدأت ثقتي بالطبيعة تكبر وتتسع .

وختاماً لهذه الرسالة ، اعطيك مثلاً شبيهاً بما ورد في رسالتي الاخيرة . وهو مثل عصفور دخل سهواً الى احدى الغرف ، وراح يتخبط في كل جانب ، باحثاً عن مخرج . ولكنه لم يجد مخرجاً . فالمخارج موجودة ، إلا انه لا يراها ، لان العصفور المسكين لا يرى كل شيء . وبغتة رأى خيطاً من النور منبعثاً من باب مشقوق ، فانطرح عليه ، واذا هو في غرفة ضيقة للاثاث المهمل القديم ، في سقفها ضوء ضئيل شاحب . ولكنه في هذه الغرفة لم يجد مخرجاً ، فراح يرتطم بالجدران . هذا العصفور هو انتِ ، والغرفة الضيقة الشاحبة الضوء هي انا . انك تلمسين في هذا المثل تواضعي المعروف .

لم يتغير شيء في علاقتنا . انا « آخذك » ؟ — على حد تعبيرك البليغ !

— لا ، ابداً !

واخيراً ، مرةً في العمر ، كتبت اليك رسالة طويلة . ثقي بصدق عاطفتي .

ك

ملاحظة . — نسيت ان اخبرك باني ، خلال تلك الفترة التي تعذر عليّ فيها « اعتلاق » النساء ، كنت اقتني خليلات ليليـات ، كل منهن اشد لطفاً واكثر كرماً من الاخرى . وكنت احبهن جميعاً حباً جماً . ولم اكن حبيس شهوتي إلا في تصورات وهمية حاكها خيالي على سبيل التسلية .



مفكرة كوستال

كنت في بيت « بيارار » . ما اروع فتنتها ! اود لو ارفعها بين يدي كأنها ربة بحرية في صدفتها . انهـا في مثل طولي تماماً . لو كانت اقصر لطفحتُ فائضاً عنهـا ؛ ولو كانت اطول لتعاظم حجم مـادتها اكثر من اللزوم . انها تحرز في المجتمع فوزاً كبيراً يدغدغ كبريائي كأني ابوهـا . راقصتها ، فاذا هي ترقص كالفتاة الصغيرة الجمة التهذيب ، حتى اني اسائل نفسي هل كانت تتعمد هذا السلوك لتغريني وتثير حميتي ؟

جاءت مع اسرة « سولنياه » . إذاً ، فهي لا أب لها ، ولا أم . ما اقدس هذا الغيـاب ! ليته يدوم الى الابـد ! وليت الفتيات يدركن كم يكون غنمهن كبيراً لو كن لقيطات !

ليس في جسدها شيء من مظـاهر الشهوة ، ولا من تلك الاعـاصير العاصفة التي يجف فيهـا الفم فجأة ، وتتخاذل الساقان ، الخ ... احس بحـاجتي الى ان اقول لها كلمـات حلوة ، ناعمة ، مداعبة ؛ وقد وُلدت هذه الحاجة منها ، ولكني كنت استطيع توجيه كلمـاتي الى سواها ... يا لها من هرّة ، خصوصاً لما وقفت تنظر اليّ بانتباه ، وانا اكتب عبـارة التقدمة على كتاب من مؤلفاتي حملته اليها . وكانت عيناها تلمعان كأنها تتوقع ان يخرج من كلماتي عصفور صغير . وكنت ، في البيت ، قد قبّلت بكل احترام جلدَ هذا الكتاب الذي قررت تقديمه لها . انها هرة حقاً . تجلس على مكتبك ، وتنظر اليك حين تكتب . وكانت هرة ايضاً منذ

ايام ، اذ جلسنا جنباً الى جنب ، واحسست بجسدها متكئاً عليّ ، بلطف ، اتكاء الجدول على ضفتيه .

اما انا فالقيت يدي على ساعد مقعدها بحركة دعابة لا تخلو من معنى الامتلاك . وقد وضعتْ ، مرة واحدة ، وبخفة وسرعة ، يدها على ساعدي . ولكنها ظلت شديدة التحفظ . لا ريب في انها كانت مسرورة بانها اعجبتني ، ولكن سرورها ظل مطبوعاً ببساطة طبيعية تخلب الالباب . لم يكن في تصرفها ظل غنج او دلال ، على الرغم من حسنها الفتّان . وكانت بسيطة الهندام ، تكاد تبدو مهملة . أتراها تتعمد الظهور بهذا المظهر ؟ زعمت انها لا تحب الاختلاط بالناس ، ولا تحب البذخ والترف ، الخ ... ولا شك في ان هذا الزعم لا يخلو من الحقيقة ، حتى لو حسبنا حساب ما فيه من التصنّع ، لانها لو كانت تحب الاختلاط بالناس لشوهدت في جميع الحفلات والاستقبالات المرموقة ، بالنظر الى مرتبتها الاجتماعية الرفيعة .

واذا استثنينا ما تقول في التحدث عن طباعها — لأنها ، كأكثر الفتيات ، تفيض كالينبوع عندما تتكلم على نفسها — فلا شيء في آرائها يسترعي الانتباه ويستحق الحفظ . فثقافتها الفكرية معدومة ، وهذا من حسن الحظ . فلنترك الثقافة للاغبياء . ان الفتاة التي تحصل على احدى الشهادات العلمية تحتفظ بتلك الرائحة الكريهة التي تنبعث من المعرفة الناقصة كالوعاء الجميل الذي يحتوي سائلاً قذراً . وتظل هذه الرائحة عالقة بصاحبة الشهادة حتى ولو نسيت كل ما تعلمت .

يبدو ان عمرها احدى وعشرون سنة . ولنقل انها بلغت الثانية والعشرين . على ان من يراها لا يصدق انها في هذه السن ، لان كل ما فيها يدل على انها في ميعة الفتوة . تحدثت عن ابيها ، فقالت : « اهتم ابي ، في ما مضى ، اهتماماً كبيراً بالتربية الرياضية . فهو مقتنع بجدوى هذه التربية » .

وسألتها يوماً : « هل يزاول ابوك عملاً ما ؟ »

فأجابت : « لا ، انه لا يعمل شيئاً ... »

قالت هذا وقد بدا عليها الارتباك . فهي تخجل من ان يكون ابوها عائشاً على دخله من املاكه ! ولما لفظت كلمة « مقتنع » لتقول لي ان اباها يحب الرياضة ، ارتعش جسمي كأني لامست افعى .

وتحدثتْ مرة عن احد ابناء عمها . ومجرد وجود ابن عم لها بدا لي عجيباً ، مهيناً ، واكاد اقول متحدياً . ما أسعد اللقطاء فلا اهل لهم ، ولا اقرباء !

اما انا فغدوت قليل التهذيب ، على عادتي في مثل هذه الحال ، فرحت اقبض باصابعي على المكان السمين من ذراعها ، واقودها الى المقصف في الحفلات ، وألف خصرها بساعدي ، محاولاً التظاهر امام الناس بانها لي ، ومظهراً بذلك صفاقتي ، وسخافتي ، وسذاجتي لارضي غروري ، كأني ضابط صف في الخيالة .

نلاحظ احياناً رجلاً كان وجهه وسيماً ، جذّاباً ، ينضح بالذكاء والنباهة ، فاذا به ينقلب بغتة ويصبح كالأبله ، وعلى وجهه بسمة حمقاء فيها جميع معاني الغطرسة والادعاء . وتتغير حركاته فيغدو مرتبكاً ومتصنعاً . فماذا دهاه ؟ كل ما في الامر انه التقى امرأة تعجبه . ولا ريب في ان نفسيته وحياته الداخلية قد تبدلتا كمظاهره الخارجية ، لأن ظهور امرأة تعجبه تخفض فوراً قيمته الانسانية ، كما يخفض الجليد حرارة الماء الذي يُلقى فيه . لذلك نرى ان من يحبّ الانسانية لا يستطيع ان يحب النساء .

كنت اودّ ان ادعوها الى السينما . ولكن لماذا ؟ ألترى شباناً طائشين ونصف عراة ؟ اوه ! شكراً . هذه المشاهد لا تليق بفتاة نشأت على تربية عام ١٨٩٠ . واذاً ، فالاوبرا الهزلية تفرض نفسها . قلت لها اني استأجرت مقصورة خاصة ليوم الثلاثاء ، فأجابت : « سأخبر اهلي ثم اتصل بك تلفونياً » .

ان المقصورة واسعة ، فلا بد من استئجار جميع مقاعدها . ولكن

لسوء الحظ لا بد ان نحسب حساب الموسيقيين الاوغاد الذين يحدثون ضجة لا تسمح لنا بتجاذب اطراف الحديث . لا بأس فما دام الكلام محظوراً ، فسنحاول التعبير عن افكارنا بالاشارات والملامسات . وعلى كل حال فاني اخشى ان ترفض مغازلتي ، لانها اقل مني نشاطاً وحيوية .

في صباح اليوم التالي

في الساعة الواحدة من صباح الليل الماضي كان قلبي يخفق بالقوة نفسها التي خفق بها عندما تركتها في الساعة الثامنة مساءً . وفضلاً عن ذلك فقد ارسلت اليّ الطبيعة حلماً رأيت فيه هذه الطفلة تخونني ، فكأنها شاءت ان اعلم انها اصبحت قادرة على تعذيبي . اوه ! لم اتعذب بالمعنى الصحيح ، ولكني تضايقت .

جلست انتظر مكالمتها التلفونية ، فامضيت الصباح كله في قلق ، ورحت افكر بان سوء حظي سيجعل التلفون يتعطل حين تأخذ السماعة لتخاطبني ، واذا بي انتفض مرتعشاً كلما سمعت جرس درّاجة هوائية في الشارع .

واخيراً تلفنت ، وقالت انها ستأتي . عندما اسمع صوتها في التلفون ، اصبح في غنى عن علوم الله الحدائق والرياض[1] . وحين اراقصها استطيع ان اهتف كما هتف النبي : « يا صور ! سيبحثون عنك ولا يجدونك ابداً »[2].

اني افكر منذ الآن بوقت اذا سمعت فيه هذا الصوت تشنجت اعصابي غيظاً ، وعزمت على مغادرة فرنسا كي لا اسمعه من جديد .

---

١ ـ يعني ان صوتها يغنيه عن تغريد الطيور في الحدائق والرياض .

٢ ـ ان النبي ، المعني هنا ، هو حزقيال ، ولم يرد في نبوءاته هذا القول بحرفيته ، انما ورد ما هو قريب منه حيث قال النبي : « التجار بين الشعوب صفروا عليك وقد صرتِ الى العدم فلا تكونين الى الابد . » (الاصحاح ٢٧ ، الآية ٣٦) .

أيكون اهلها بلا تهذيب ليسمحوا لهـا بالخروج مع بيار كوستال ؟ عادات جميلة ! وبعد هذا ، اذا حدث حادث فمن يكون المخطىء ؟ من المؤلم ان يرى المرء جميع المبادىء تنهار وتتفتت في فرنسا عام ١٩٢٧ .

الأربعاء . — الاوبرا الهزلية . مدام بوترفلاي .
بعد « مدام بوترفلاي » [١]،
آتي !

كنت امس ضابط صف ، وها انا اليوم تلميذ مدرسة .

لم تُبدِ الفتاة اقل حركة ، او بالحري بلى ، تحرّكت . ففي الفصل الثاني ابعدت مقعدها عن مقعدي . أتكون متحصنة ؟ بعثتْ هذه الفكرة في جسدي قشعريرة من البرد ، فأسدلتُ ذراعيّ خائر العزيمة ، وقلت في نفسي : « يجب ان أبدأ المحاولة من جديد !... »

احسست اني مشلول بتحفظها ، وبذلك الموقف السخيف المضحك الذي غدا فيه الكاتب الشهير يقبل فتاة يافعة في مقصورة بالاوبرا الهزلية . اردت ان اتصرف على طريقة عام ١٨٩٠ ، فذهبت بعيداً على هذه الطريق . فقد ذكرتْ المستخدمة التي قادتنا الى مقصورة الاوبرا الهزلية اني استأجرت جميع مقاعدها ، فهل يجوز ألّا تكون الفتاة قد ادركت غايتي من هذا البذل ؟

يالسخافة هذه السهرة التي بالغتُ في الاستعداد لها !

كل شعوري بتفوقي على الفتاة ، في اكثر من ناحية ، لم يكفِ لاخراجي

---

١ ـ يعني ان رفيقته سولانج شبيهة ببطلة الرواية « مدام بوترفلاي » التي تمثل الانوثة الساذجة حتى الغباء .

من هــذا الخندق الذي حفرته لنفسي بيدي . فقد اصبح هــذا الشعور غائماً ، فلم اعد ارى فيه الا دونيّتي بالنسبة الى الفتاة : فهي في العشرين وبارعة الجمـال ، وانا من رجـال الفكر ، وعـاء للتفكير ، في الرابعة والثلاثين .

اما احاديثنا ، في تلك السهرة ، فكانت مستنقعاً من التفاهة والابتذال . ورحت انظر الى يديها بقلق ، معللاً الامل بان اراها تعصرهما بحركة عصبية بانتظار اعترافي بما في نفسي من الهيام . ولما قلت لها : « هــذه التمثيلية مضجرة الى اقصى حــد » ، اجـابت : « نعم » . فثقبتْ هذه الـ « النعم » قلبي ، لاني كنت انتظر منها ان ترتمي بين ذراعي هامسة : « لا شيء يستطيع ان يكون مضجراً الى جـانبك ، يا معبودي ! » ولم تعد الحال تطاق ، فاقترحت عليها ان نخرج قبل نهاية التمثيلية ، فاجابت من جديد : « نعم » ، بلا اقل تصنع ، فثقبت قلبي مرة ثانية . فكم هي طفلة حقاً في « نعماتها » البريئـة ! لكأن صوتهـا صوت دمية تتكلم حين يُضغط على بطنها . وخرجنا امام المستخدمات اللواتي كانت وجوههن تعبر ابلغ تعبير عن الفكرة التالية : « هذان الاثنان قد امعنا في الغزل ، حتى فرغ صبرهما ، فاتفقا على الذهاب فوراً الى الفندق ... »

والخلاصة ، كانت سهرتنا ، بالنسبة اليّ ، حمـاماً بارداً . ولكن هذه السهرة اوضحت حقيقتين ، همـا : انهـا ليست مغرمة بي ، واني لست مغرماً بها .

وقد يكون ذلك ناتجاً عن ان كلاً منا لم يشأ الانطلاق قبل الآخر ، كما يفعل المتسابقون على الدرّاجات الهوائية . وربما تعمدت هــذا التصرف لتزيدني رغبة فيها وشوقاً اليها . واذا كان هذا قصدها فقــد اخطأت في الحساب ، ولا ادري ما الذي يمنعني من تركها عند هذا الحد ، والانصراف عنهـا نهائياً . لست من الذين يلحون اذا شاءت المرأة ان تقـاوم . فاذا خسرتُ واحدة فانني واجد مائة عوضاً عنهـا ، وجميع النساء قابلات

التبديل . اود لو اشعر باني لا احبها الآن اكثر مما كنت احبهـا امس ، لأبقى حراً طليقاً ، فآخذ من هذه التسلية ما يطيب لي .

اذا لم يكن هـذا الاخفاق كارثة يتعذر النهوض من تحت اعبائهـا ، فهو قاع يستطيع المرء ان ينطلق منه لبلوغ قمة اعلى من التي كان عليها . ويا لها من قفزة ، بعد هذا التراجع ، تحفزاً للوثوب ! ومهما يكن من الامر فساكتب اليها . وهكذا لا نخرج عن اسلوب طلاّب المدارس . وبهذه الرسالة ساقلب الموقف ، فأتخلى لها عن المبادرة واجعلها بين امرين : إما ان تأتي اليّ بغير تحفظ ، او تمضي في سبيلها . لعبت انا ورقتي وانتهيت . فعليهـا ان تلعب هي ورقتها الآن .

ان القواعد الخلقية المتعلقة بالشرف ، او – على الاقل – قواعد اللياقة المتواضَع عليها ، ما كانت إلا واجهة مناقضة كليـاً للقواعد الطبيعية ، وهي تسمح لنا ان نكسب كيفما تصرفنا ، لاننا نستطيع العمل ، حسب الاحوال والملابسات ، تارة على اساس هذه القواعد ، وطوراً على اساس تلك .

اذا كانت روزين فتاة قبيحة وشنّت علينـا هجوماً عنيفـاً فدوننـا القواعد الطبيعية ، فهي درعنا الفضلى في هذا المجـال ، اذ يتسنى لنا ان نقول للمرأة التي لا نريدها : « اما انا فلن اكون وغداً لهذا الحد ! لن افجع اباك الجليل بهذه الوصمة ؛ لن اخون زوجك وهو لي خير صديق ! » اما اذا كانت روزين حسناء مغرمة ، فنقول لها : « لا ، لن اكون غبياً ، فابقى الى جانبك خامد الاحساس ؛ لن اوجه اليك هذه الاهانة ... اهانة اللامبالاة بفاتنك الساحرة ! »

اننا نجد هاتين اللوحتين في جميع احوال الحياة . فاذا تطاول احدهم علينا وشتمنا ، نقول : « ماذا ؟ أأقتل لأجل هذه الحماقة ؟ أهذا ما تطلبه الاخـلاق ؟ » ام نقول ، اذا كنـا على اللوحـة الاخرى : « قتلت لأني أهِنت ، فشرفي ... » ، الخ ...

من

بيار كوستال
باريس

الى

الى الآنسة سولانج دانديو
شارع فيلباه
باريس

١٦ نوار ١٩٢٧

اعترفي ، يا آنسة ، بان حالنا مساء امس لم تكن على ما يرام ، وبان مشهدنا كان مؤسفاً للغاية . جعلتني شديد الخجل والارتباك ، وبارداً حتى الصقيع . هل تعمّدتِ هذا التصرف ، ام كنتُ انا جحشاً ؟

اعتقد اني لست في حاجة الى مصارحتك بان لك في نفسي عاطفة تكاد تكون خاصة . فاذا كانت هذه العاطفة تزعجك ، فلنقف عند هذا الحد . سأكون شديد الاسف ، وقد اعاني بعض الألم ، اذا كان لا بد من القطيعة بيننا ، ولكنني افضل هذا الحل على ان اكون فضولياً غير مرغوب فيه . فالعالم وسيع ، والعرض اكثر بكثير من الطلب ، ولاسيما من جانب الفتيات . اما اذا كنتِ فتاة ذكية ، وتريدين ان نجرّب حظنا مرة اخرى ، فما عليك إلا ان تعلميني بما تريدين . وفي هذه الحال يجب ان تصارحيني بانك تسمحين لي بانتهاج شيء من الالفة معك ، وبالعمل المعقول ، لا بالنسبة الى ما تتطلبه الطبيعة وحسب ، بل بالنسبة الى ما كان المجتمع ينتظره منا امس . فقد كان موقفنا مذهلاً اغاظ

شخصيات كبيرة ومرموقة ، ومن واجبنا ان نعمل الآن لنزيل هذا الغيظ . ومن الضروري ان تطلعيني بصراحة على نياتك ومقاصدك ، لاني غير مستعد ان اقدم لك صداقة تبقى على صعيد الملائكة الاطهار ، ولا ان أعرض نفسي للازدراء من قبل امرأة ، اياً كانت ، وهذا ما لم يحدث في حياتي قط[1] .

اكتبي اليّ ، او خاطبيني تلفونياً . على اني افضل رسالة واضحة بليغة ، فهي امتن من الكلام . لا سبيل الآن الى سرد حسنات الكتابة ، وتوضيح افضليتها على المخاطبة ، ولكني اود ان تعلمي اني افهم نفسي ، اذا كنتِ لا تفهميني .

ومرة اخرى اقول لك – اذا ابيتِ ان تكتبي اليّ ، وان تخاطبيني تلفونياً ، لتطلعيني على رأيك في تصرفي امس فاعلم هل كان هذا التصرف لائقاً في نظرك ، او خالياً من الظرف والذوق – اننا لن نلتقي بعد اليوم ابداً . فالامر منوط بك وحدك .

الى اللقاء ، يا آنستي الصغيرة ، او الوداع . قد اكون مستعداً للشعور بعاطفة على شيء زهيد من العمق بالنسبة الى ما بيننا ، ولكني لست واثقاً كل الثقة من هذا الاستعداد . فهناك احتمال من المؤسف ان نتركه يضيع . انظري الى هذا الاحتمال بالنسبة اليك وحدك لتعلمي أيعجبك او لا يعجبك ، ولا تهتمي إلا بتمتعك ولذتك انت من غير ان تفكري بتمتعي ، ثم اخبريني بما تريدين بمثل الصراحة والثقة اللتين اظهرتهما لك في هذه الرسالة .

كوستال

---

[1] – انه يكذب . -- المؤلف .

مكتوب بقلم كوستال في مفكرته

وجهتُ اليهـا رسالة قليلة القيمة . أليس من العجب ان يقع المرء في الانشاء المتصنع ، المرتبك ، عندما يكتب الى امرأة مجهولة تعجبه ، وان لا يستطيع التخلص من ارتباكه إلا بالهيام المحتدم او بالوقاحة الخـالعة العذار ؟ وبما ان لغة الهيام المحتدم غير واردة الآن ، فقد جعلت رسالتي حداً وسطاً بين التفاهة والجرأة الوقحة . وستحب فتاتي التفاهة من غير ان تشعر بالجرأة الوقحة ... وستدعوني اليها قبل انقضاء اربع وعشرين ساعة .

ولكني ، بالحقيقة ، لا ادري شيئاً . ولا استطيـع ان اعرف مسبقـاً ردة الفعل التي ستبدر منها في حال معينة . عندما اتعامل معها ، يخامرني شعـور باني الـ « كي دورسي »[1] اقـوم بجميع اعمـالي متلمساً طريقي في الظلام ، وعلى بركة الله .

يخامرني شعور عميق وحاد كلما فكرت بالسعادة التي كنت استطيـع منحها للنساء اخريات بمثل هذه الرسالة ، ولكني احجمت عن العطـاء . وهذا الشعور لا يخلو من المتعة .

ان ما اجده فيها من الفتنة يجعلني أميل الى الاعتقاد اني بقرة . فهل انا بقرة ؟ ولكن الـ « اسمر » ، مثلاً ، يكيل لي الاطراء دون حساب ،

---

١ ـ مقر وزارة الخارجية الفرنسية .

وكثيراً ما قال لي : « ألا تظن انه من حسن الحظ ومن دواعي الابتهاج ان يكون لي أب مثلك ؟ » وهو يتعجب احياناً ، فيقول : « لماذا انت لطيف بهذا المقدار ؟ »

ان مردّ ذلك الى ان هناك اشخاصاً احبهم ، وآخرين لا احبهم . فالمسألة في غاية البساطة . وهي مفتاح كل شيء .

لا ، لم يعلق القلب ، ولا الجسد . إلا ان هناك شيئاً آخر قد علق . ما هذه الرغبة الصماء العنيفة التي تشتد رويداً رويداً في اعماقي ، وتجعلني اتوق الى ان اعجبها ؟ ليتني اسمع في صوتها ارتعاشة ذات مغزى !

لم تبعث الآنسة « دنديو » برسالة « متينة » كما كان يود كوستال ، بل تلفنت . وكانت خلاصة حديثها قولها : « اعترف باني لم افهم رسالتك جيداً ، ولكن لك في نفسي مودة كبيرة . لماذا لا نلتقي من جديد ؟ » واتفقنا على الذهاب معاً الى حفلة موسيقية ، فاختار كوستال اغلى حفلة في باريس ، لان المرأة لا تهتم بما هو حسن بقدر اهتمامها بما هو غالي الثمن .

ولما بدأت عازفات الكورس يصعدن الى المسرح ، تذكر كوستال خروج المعتقلات من سجن « سان لازار » ، فاذا هن هرمات ، متهدمات ، دميات ، كلهن شؤم وقبح ، ناهيك بهندامهن الخالي من الاناقة والذوق . اما العازفون فكانوا زعانف قصار السيقان ، علقوا محارمهم باعناقهم كأنهم جالسون الى مائدة طعام . وما اسخف الجهود التي بذلوها ليكون لهم مظهر « اهل الفن » : فهذا ارخى غرّة على جبهته ، وذاك ارسل شعره الطويل الى نقرته ورقبته ، الخ ... انها لجهود تدعو الى الرثاء وذرف الدموع . وكان الجمهور خليطاً عجيباً يجلس على مقاعد حديدية من النوع الذي يوضع في الحدائق العامة ، في نطاق من الزينة السمجة ، قوامها اوراق شجر اصطناعية قذرة ، وستائر ممزقة ، تبدو من بعيد رائعة الجمال في نظر بعض السخفاء الذين راحوا ينظرون اليها بالمناظير[1] .

---

١ ـ لا حاجة الى القول ان هذا الفصل كتب على سبيل المزاح . وقد اراد كاتبه ان يداعب افراد الكورس . فاذا غضبوا كان غضبهم دليلاً على عجزهم عن تذوق الفكاهة . ففي وسع الكاتب ان يرسم صورة كاريكاتورية لمن يحب ولما يحب ، فيكون انتقاده لاذعاً بقدر ما تكون محبته كبيرة . وكم كتبت ، او بالحري كم =

قال كوستال : اذا كانت الموسيقى تصقل الطباع وتلينها ، فانها لا تلقي على الوجوه شيئاً من سمات النبل ، ولا يمكن ان نطالب كلاً من هؤلاء الموسيقيين بان يحمل نبوغه مطبوعاً على اسارير وجهه . ولكن لماذا لا يضعون على وجوههم اقنعة كالممثلين المسرحيين في العصور القديمة ، او يخصصون لكورسهم جورة فلا تقع عليهم العيون كما هي الحال في بيروت ؟ [1]

كان كوستال على جانب كبير من المغالاة في ملاحظاته ، ولكن سولانج وافقت على اقواله دون تحفظ ، فادرك انها مستعدة للموافقة على كل ما يقول . واجال نظره في الحاضرين ، في قبح اولئك الرجال والنساء البالغ حده الاقصى ، وفي تلك الزينة البالية ، المضحكة ، الوسخة ، فما استطاع إلا ان يحوّل عينيه عنها باشمئزاز ، كأنه ينشد الفرار . فرفع نظره الى السقف لعله يعثر فيه على صور وجوه تمثل انسانية نبيلة ، فما رأى غير الجص المذهب المتعرّج الخطوط تعريجاً سقيماً ، المكسو بطبقة سحماء من الوسخ كدخان المصانع . فلا ريب في ان اجيالاً عديدة من الناس قد تنفست في هذه القاعة . ولو لم يكن كوستال بصحبة سولانج لغادر المكان فوراً ، لأن قرفه بلغ حداً يفوق قدرته على الاحتمال .

وبعد قليل أضيئت المصابيح فتدفقت الانوار على المسرح والردهة ،

= انا مستعد ان اكتب ، مزاحاً في بلاد احبها كالجزائر واسبانيا . ان اعجابي بهواة الموسيقى وتقديري للموسيقيين يقومان على اساس متين . ولا بأس اذا سمحت لنفسي بالقفز واللعب على هذا الصعيد ، من حين الى آخر . واتذكر اني تحدثت في احد مؤلفاتي عن الموسيقى : موسيقى الكنيسة ، الموسيقى الروسية ، الاسبانية ، العربية ، الخ ... فكان حديثي على جانب كبير من الرصانة والتأثر . ومن كان هذا شأنه يستحق الصفح اذا تجرأ على كتابة هذا الفصل بدون نيّة سيئة . — المؤلف .

١ ـ مدينة المانية ، لا عاصمة لبنان ، ويُكتب اسمها هكذا : « BAYREUTH » .

وكانت هـذه الفكرة وحشية فظيعة ، لان الظلام الدامس كان اوفـق للكورس وللنظارة على السواء .

ولما تأخر البدء بالعزف ، اعرب النظـارة عن فراغ صبرهم ، وشرع بعضهـم يضربون الارض بارجلهم ، ثم لم يلبث الهـدوء حتى ساد ، ثم نشبت ازمة تذمر جديدة ، فكانت زهيدة وقصيرة الامد . كانت هبّات من الاستياء تنطلق من ذلك الجمهور العجيب ، فكانت عجيبة بقصرهـا وسرعة تلاشيهـا ، فلو كانت هبّـات من الحماسة الوطنيـة لدامت بضع ثوانٍ اكثر .

واخيراً ، حرّك رئيس الاوركسترا عصاه ، وشرع جميـع الذين على المسرح يضجون ...

جعل الموسيقيون يحركون قسي كمنجـاتهم بحرارة ، كـأنهم يحيكون نسيجاً ، فخيل الى كوستال انه يشم رائحة العرق من اباط العازفات وكان تأثره بهذا التخيل عميقاً ، حتى انه اعتبره افضل ما في تلك الحفلة .

وكانت سولانج جالسة جانبياً ، فدنت من كوستال ، فراح يداعب عنقها الأملس السويّ . ولاحظ انها ادنت وجهها من وجهه ، كأنها تريد ادخاله في جوّها . وكانت تبدو من خلال قميصها جُزيرات من البشرة ، كأنها كثبان من الرمال على شاطىء ضحلٍ بيّضته الاملاح . اما ملامح وجهها التي لم تكن تعجبه ، فقد بدت له في تلك اللحظة كأنهـا ابواب النجاة في ردهة عامّة يستطيع ان يفر منها اذا دعت الحاجة ، او كأنها بنود مبهمـة في عقد يمكن تأويلها بمـا يلائم جميع الاحوال . وابرز ما استرعى انتبـاهه أذنا الفتـاة الكبيرتان ، وذقنهـا الغليظة ، ففكـّر بأن هذين السببين كافيان للانفصال عنها بسرور عندما تأزف ساعة القطيعة .

قبّلها في عنقهـا من وراء ، فما ابدت اقل حركة . وشمّ في شعرها رائحة الفتاة الصغيرة . ثم اخذ الدم يغلي في عروقه ، عندما راحت يده تتلمس من فوق الثوب رباط الجوربين ، والفخذين الطويلتين . وقد ادهشه

ان ترضى فتاة رصينة مهذبة بان يداعب رجلٌ فخذيها في مكان عام، ولم يدرك انها اصبحت تريد كل ما يريد.

وقطعت الصمت قائلة:

– ارى القسم الاول من هذه السمفونية مزعجاً، يضيق به الصدر ... وانت ؟

وكانت بالفعل ضيّقة الصدر، ولكن لسبب آخر غير الموسيقى، فاجاب كوستال:

– اما انا فلا اجد في هذه الموسيقى شيئاً.

وبعد قليل سألها بصوت تنم نبراته عن الشك:

– اصدقيني الخبر بصراحة، أتحبين الموسيقى ؟

فرفعت حاجبيها كأنها تقول: «نوعاً ما»، ثم قالت:

– ان الموسيقى التي لا احبّها هي موسيقى الكنيسة.

فجعل كوستال يقول في نفسه:

«كم هي بعيدة عن التصنّع! يبهجني فيها انها لا تهتم بشيء، فلا تحاول ان تبهرني بما تعرفه معرفة واسعة. ثم انها عديمة الرأي، وهذه افضل طريقة لصيانة المرأة من الضلال وراء الآراء الخاطئة».

ولفّها بذراعه وهي ما تزال جالسة جانبياً، وقد التصق جسمها بجسمه. ثم تظاهر بانه يلمّ شيئاً عن الارض، فانحنى ولثم جسدها متنشقاً، من خلال التنّورة، رائحة زنّار من المطاط. وفي بعض الاحيان كان يلقي وجهه على عنقها، كأنه يريد ان يعبّ، على مهل، كل ما فيها، وهو يقول في نفسه بحماسة: «لا، لم يتصرف احد قط مع امرأة، وفي مكان عام، اسوأ من هذا التصرف!» وشعر بموجة من السرور عندما فكر بأنه، لو رأى رجلاً وامرأة في مثل وضعه مع الفتاة، لصاح بهما: «رويدكما! ففي المدينة فنادق عديدة ...» فقد كان يحب دائماً ان يلقي

نظرة نيرة على اعماله ليامس بارتياح مدى تهتكه وفسقه .

وانحنى قليلاً الى الوراء ، فرأى من خلف سولانج المرأة الجالسة الى جانبها ، وهي مسترخية في مقعدها ، تستمع الى الموسيقى وقد فغرت فاها ، واغمضت عينيها . لم تكن حسناء ، ولكن كوستال اشتهاها لاسباب عديدة ، اهمها :

١ً – انه عندما يكون منهمكاً بمداعبة امرأة شابة حظي بها للمرة الاولى ، يرى من الموافق ان يشتهي امرأة اخرى .

٢ً – ان المرأة الاخرى كانت تتظاهر بالنوم ، مما يدعو الى الظن ان وراء هذا التظاهر ما وراءه من الملابسات التي تدعو الى التأمل .

٣ً – انها لا تستطيع ان تنتشي مثل هذه النشوة الكاملة بشيء تافه ، كتلك الموسيقى السقيمة ، إلا اذا كانت مختلة العقل .

وبما انه لا يحب عادةً سوى الفتيات البسيطات الممتلآت عافيةً كسولانج ، فقد طاب له ، في تلك اللحظة ، ان يشتهي امرأة مختلّة ، على سبيل الشذوذ .

وفجأة ، القت المرأة رأسها الى وراء بحركة جنونية ، كعصفور فرغ من التغريد ، وارتسمت على وجهها كل معاني الشهوة الجنسية . وكان من الواضح ان نبرة من الالحان الموسيقية انغرزت في مكان ما من جسمها مرهف الاحساس .

ومدّ كوستال ذراعه من وراء سولانج ، واضعاً يده على مسند المقعد الآخر ، لكي تلقي المرأة كتفها عليها . ولكن ضغط اصابعه على الكتف لم يحدث اقل ردة فعل عند المرأة الغارقة في غيبوبة المتعة الكاملة . فتخلّى عن هذا المشروع ، لأن ذراعه تعبت بما فرضه عليها من الاجهاد ، ولأن جارة سولانج لم تكن جديرة بالاهتمام .

واذا افترضنا ان احدهم بلغ من السخف حدّ الاعتراض على هذا التصرف متهماً كوستال بالتطفّل ، والخبث الصفيق ، والنفاق الشائن ،

واللؤم المخجل ، فيمكن افحامه وإلقامه حجراً بان كوستال كان جاداً في بدء مغامرة حقيقية مع المرأة المجهولة ، وبان بدء هذه المغامرة من وراء ظهر سولانج رياضة فذة ، وعملية بهلوانية بارعة لا شأن فيها للخبث والنفاق ... انما هي من مكرمات الملائكة القادرين على كل شيء .

وخفت الضجيج على المسرح ، فانطلقت عاصفة من التصفيق . إلّا ان بعض الوجوه تجهمت معبرة عن نقمتها الشديدة على المصفقين .

وبعد لحظات ، استؤنف العزف ، فاتضح ان القطعة الجديدة من النوع الكلاسيكي ، وتوجه كوستال الى سولانج قائلاً :

– وهذه ، أتحبينها ؟

– انها لا تضايقني .

– لا تضايقك ؟ هذا منتهى الغرابة !

فاجابت بامتعاض ، كأنه جرح كبرياءها :

– لم تفهم قصدي : القطعة الاولى حطمت اعصابي ، بينا هذه لا تضايقني .

– ارى انك لا تأبهين مطلقاً للحفلة برمتها . وهذه بادرة ممتازة ، فانت ابنة طيبة .

فقالت سولانج بتلك النزعة النسائية الرامية الى التقليل من اهمية نفسها ، على سبيل التواضع :

– لا ، اني لا استهتر بهذه الموسيقى !

فاجاب كوستال بلهجته المسايرة المطرية : بلى ، بلى ، انك لا تأبهين .

وارتفعت همسات الاحتجاج من الذين ضايقهم هذا الحديث وقطع عليهم سبيل الاستماع الى الموسيقى ...

وفجأة ارتفعت على المسرح صيحة مريعة ، كأنها صيحة امرأة دهمها المخاض ، وعلمت في اللحظة نفسها انها خسرت ثروتها ، وان عشيقها هجرها ... وتحت وطأة هذا النباح المخيف انقبض وجه كوستال ،

وتوترت اعصابه ، ورفع يديه الى رأسه بحركة عفوية ليسدّ اذنيه ، بينما انطلقت من افواه الحاضرين عبارات الثناء والاطراء للتعبير عن اعجابهم ... لا ريب في ان هذا التفاوت في الشعور والذوق كان اكبر دليل على ان كوستال لا يستطيع ان يجد مكاناً له في هذا المجتمع . فتذكر ، وهو في ذلك المأزق ، صفحات « هيلوئيز الجديدة » الخالدة التي عالج فيها « روسّو » مفهومات الفرنسيين المختلفة في ما يختص بالموسيقى ، فقال : « انهم لا يتأثرون الا بالصياح ! » وفكر كوستال بان « روسو » لو بقي حياً وحضر تلك الحفلة لقال : « ... ولا يقيمون وزناً الا لمن يسجل رقماً قياسياً في الصياح ! »

وقالت سولانج : ارى ان النساء لم يخلقن للغناء !

فخاطب كوستال نفسه قائلاً : « أيكون هذا الرأي عميقاً ! ولكن ما هو العمق ؟ ان المبولة ايضاً عميقة ! »

وارتفعت اصوات بعض الشبان المبحوحة تصيح : « معاد ! معاد ! » وظل التصفيق مستمراً ، ولكن متقطعاً . فمظاهر الاعجاب في اوروبا لا تختلف عنها لدى القبائل المتوحشة في جزر اوقيانيا . وعاد المغنون اربع مرات الى المسرح ليحيّوا المعجبين بهم ، وكان كوستال يقول في نفسه : « يا لهم من مساكين ! » اما رئيس الاوركسترا الذي كان دجالاً من الطراز الاول (ولهذا السبب كان ينعم باعجاب النساء) فقد خرج من المسرح وعاد اليه مرات عديدة لينال اوفر قسط من التصفيق . وكانت تلك الحركات المسرحية ، ولا ريب ، ضرباً من التهريج البهلواني ، الا ان القاعة بمن فيها كانت تعوم على امواج من الروعة والجلال .

وبعد هذه الحملة الشعواء ، ارادت عبقرية الفن في اولئك العازفين الكادحين ان تشفي طبلات الآذان مما حلّ بها ، فبدأ العزف خافتاً حالماً كأنه من الحان المآتم ، وفي بعض الاحيان كان يخمد كل صوت فتسود فترة صمت تام ... وهذه كانت اروع فترات الحفلة .

وكان كوستال ينظر الى الحاضرين ، فرأى ان ثلثهم من الذين يتنعمون عفوياً بما يطرق اسماعهم من الضجيج ، وثلثهم لا يتنعم إلا بعد عملية فكرية تذكّره بكل ما قرأ وسمع عن المعزوفة ، اما الثلث الاخير فمن الذين لا يشعرون بشيء ، وهم لا شيء بكل معنى الكلمة ، إلا انهم كانوا يتخذون في مقاعدهم اوضاعاً متصنعة للتظاهر بالاهتمام . وكانت هناك فئة من الخنازير ، على عيونهم نظارات ، يتضايقون من اقل همسة ، كأنها تفسد عليهم نشوتهم الكبرى ؛ والى جانب هذه الفئة ، فئة اخرى من اصحاب النظارات ايضاً ، يميل احد افرادها من حين الى آخر صوب خنزيرته الصغيرة الجالسة الى جانبه لينبهها الى مقطع موسيقي من قدس اقداس الفن والعبقرية ، لتتعلم انه يجب عليها لدى سماعه ان تتأثر ، لتغنم منه متعة روحية . وكانت هذه الامثولات في تفهّم روعة الموسيقى تلقى على اولاد في حوالى السادسة من العمر ، جيء بهم عقاباً لهم على خطيئة بالغة الخطورة . وكثيرات من النساء كن يعتقدن ، كجارة سولانج ، انه لا بد لهن من اغماض عيونهن لاستيعاب ما يسمعن من سحر الالحان ، عملاً باصول اللياقة واحترام الفن . وقد حملت « السعدنة » جميع المستمعين على ان يقتدي بعضهم بالبعض الآخر في اتخاذ مظاهر التأمل العميق ، والاستمتاع المسكر ، بينما كان يتدفق عليهم من المسرح مخاطُ انغام لا ينضب له معين .

قال كوستال لسولانج ، وهو يجيل في الحاضرين نظرة حانقة مفعمة بالاستنكار :

ـ هؤلاء الناس جماعة من الارذال ، ناهيك بالاغبياء والبلهاء المندسين بينهم . فالحمير ايضاً ترضى بهذا النوع من النخالة[1] . ومهما يكن من

---

١ ـ كلمة « SON » بالفرنسية معناها « صوت » او « نغم » وهي تعني ايضاً : « نخالة » ، فضلاً عن كونها ضمير نسبة وامتلاك للمذكر المفرد ، وقد استعملها المؤلف هنا على سبيل التلاعب بالمعنى المزدوج بين النغم والنخالة .

الامر فاني اعتبر هـذا المكان فاسد المنـاخ ، ولا احب ان اتحمل تبعة بقائك فيه تحت اشرافي . فهل تريدين ان ننصرف ؟

– نعم .

ان « نعمها » هذه لا تتغـيّر . فهي تقولها في نبرتين : قصيرة فطويلة ، على سبيل الموافقة الكليّة . فلو قال لهـا « لنبقَ هنا » ، او « تعالي الى بيتي » ، او « فلنسافر الى القطب الشمالي » ، لـكان من المرجّح ان تجيبه بهذه « النعم » بالذات . وعندما كان يردّد لنفسه هذه « النعم » بنبرتيها ، كان يحس ان شيئاً يتحرك في قلبه كالعصفور في العش .

وخرجا من ذلك الهيكل المكرّس للايحاء الذاتي الجمـاعي . وتذكر كوستال انه عندما كان في الثانية عشرة من العمر ، اخذتـه جدته الى هيكل آخر من هذا النوع ، كانت تُمثّل فيه رواية « المريض بالوهم »[١] ، فلما وصل الممثلون الى المشهـد الذي يركض فيـه بعضهم في اثر البعض الآخر ليضربه ، نهضت العجوز باستياء ظاهر ، وكانت منذ بداية التمثيل متضايقة مما ترى وتسمع ، فقالت لحفيدها :

– هيا بنا ، فهذه حماقة لا تُحتمل !

وقد احدثت هذه الملاحظة اثراً عميقاً في نفس الولد الذي كان ميالاً الى تقدير مـا يرى تقديراً شخصياً مستقلاً . ولا غرابة في هذا الأمر ، لان كوستال ينتمي الى اسرة تحرر افرادهـا من الآراء الموروثة ، لتكون لهم آراؤهم الخاصة .

كان في وسعه ان يستأجر سيارة تكسي ، ولكنه فضل ان يمشي مع سولانج حتى يوصلها الى منزلها ، فقد كانـ كلٌ منهما بحاجة الى الحركة ليستعيد نشاطه وهدوء اعصابه بعد ما حلّ بهما في تلك الحفلة . وكانت ثقته تامّة بالحصول على ما يريد من الفتاة ، حتى انه فضّل ارجاء طلبـه

---

١ ـ تمثيلية هزلية للروائي الفرنسي « موليار » ترجمها الى العربية الياس ابو شبكة .

الى اللقاء المقبل ليعيش فترة جديدة على عذوبة الأمل . فماذا يبقى منها بعد ان يأخذها ؟ وفضلاً عن هذا الاعتبار الوجيه ، كان كوستال يعمل بمبدإ خاص يقول بان على كل رجل ، يتمتع مثله ببعض المواهب ، ان يترك بعض الفرص تفوته ، لأنه ألف النجاح في كل ما يريد فاصبح يتعمد التعرّض لسؤ الحظ ، ويفسح في المجال للاخفاق ، لعله يزيد رغبته احتداماً .

وعلى مقربة من بيت سولانج وقف مع الفتاة تحت احد مصابيح الشارع ، وامسك بذراعيها . فادركت انه يريد تقبيلها ، فتراجعت مدفوعة بالخوف والحياء لتقف في مكان مظلم . فشدها اليه ، وهي مذعنة ، مرسلة الذراعين ، إلّا انها لم تقدم له شفتيها . ولما انحنى عليها ليقبل فمها ، خفضت رأسها فجأة ، فاصابت شفتاه أعلى جبينها ، في جوار منبت الشعر . فرفع رأسها دافعاً ذقنها بسبابته ، ولثم جبينها دون ان تبدي حركة . الا انه احس بخيبة لا تخلو من المرارة ، فاستأنف سيره صوب منزل الفتاة ، فلحقت به . واضطر الى بذل بعض الجهد ليبدو لطيفاً عندما سألها :

– أتريدين ان نذهب الى الغابة [1] ، يوم الجمعة ، بعد العشاء ؟

فحرّكت رأسها ايجاباً ، وعلى وجهها كل معاني الترحيب والارتياح . فقال لها :

– ان انفك يلمع قليلاً ، فبودريه .

---

١ ـ غابة بولونيا ، من اشهر متنزهات باريس .

لما ودّع كوستال الآنسة « دانديو » وادار لها ظهره ، لم ترافقه بعينيها حتى يتوارى عن الانظار حسب التقاليد المألوفة في مثل هذه الحال ، بل ضغطت فوراً على زر الباب الخارجي ، وراحت تتسلق السلم ، لأن المصعد كان معطلاً . وخامرها حدس مزعج بأنها لن تصل الى الطابق الرابع ، حيث تقيم ، من غير ان يقع لهـا حـادث مؤسف لم تدرك ماهيتـه . واستمرت في الصعود ممسكة باحدى يديها درابزون الدرج ، متلمسة باليد الاخرى الجدار ، تاركةً حقيبتها تنزلق عليه حتى اصابها مسمار وجلفها .

وبلغت باب منزلهـا كالسابح المتعب حين يصل الى خشبة النجـاة ، ففتحت الباب ، وسارت الى غرفتها ، وجلست على السرير . ثم بدا على وجهها انها مضطربة ومتضايقة ، فقالت : « ما الذي حـلّ بي ؟ » ومرّ قطار نصف الليل الكهربائي مسرعاً ، وهو الاخير ، فأحدث ضجة منكرة ، فتوترت اعصاب وجهها ، وقالت بصوت مرتفع : «اوه ! تباً لهذا القطار !» وتقلص وجهها من جديد عندما سمعت زمّارة سيارة ، ثم تبادر الى ذهنها انها تركت الكهرباء مضاءة خارج غرفتها ، فخرجت واطفأتها ، وكان جسمهـا في هذه الاثنـاء يرتعش ارتعاشاً شبيهاً باهتزاز الباخرة عندمـا يغوص مقدمها في البحر ويرتفع مؤخرها ، فتدور مروحتهـا في الهواء . استلقت على السرير ويداهـا ممسكتان بطرفي الفراش كأنهما متشنجتان ، وانقلبت الى اليمين ، ثم الى اليسار ، كجيفة كلب تجيء مع الموجة الى الشاطىء ثم ترتد معها . ونهضت فخلعت ثوبها بنزق ، ودون ان تفك زره الاعلى ، فعلق فيه رأسها . ثم اخـذت مجلة عن الطاولة ومزقتهـا

قطعتين ، وهي متوترة الاعصاب ، متجهمة الوجه ، ثم جعلت تمزّق اوراق المجلة وهي تقول : « مـاذا دهاني ؟ هل بدأت تنتابني نوبـة عصبية ؟ » واحست فجأة بان قلبها يهوي من صدرهـا ، وبان وجههـا يمتقع لونـه ويصفر ، فذهبت الى المرآة وهي تودّ في سرهـا لو تخيف نفسهـا ، ثم انتفضت وركضت الى المغسل فتقيأت واحدى يديها تمسك بالمغسل ويدها الاخرى على جبينها .

ولما ارتاحت ، لبست قميص النوم واستلقت على السرير دون ان تخلع حذاءها ، فاختلط في نفسهـا حب كوستال بالراحة التي وجدتهـا عندما تقيأت . وانطبعت في ذهنها عبارةٌ عجيبة وضرورية كالعبارات المكتوبة على الوثائق المقدسة ، وهي : « تركني في راحـة عميقـة ! » وبدت لهـا حياتها كلهـا ، حتى الايام الاخيرة ، كمساحـة مترامية الاطراف ، سويّة وسعيدة . وفجأة سقطت فيها قنبلة ، فتغيرت معالم الارض ، وظهرت فيها حفر واخاديد ، ولكن المكان لم يفقد شيئاً مما كان فيه من الهدوء والنور .

وانقلبت في فراشهـا ، ثم تمددت على بطنهـا في وضع طفـلة ، وهو الوضع الذي كانت تألفه ، ثم مدت ذراعيها الى تحت المخدة باحثـة عن البرودة ، كما يغرس المسافر يديه في رمال الصحراء ، فيحظى بمقدار اكبر من البرودة كلما نزلت يداه الى مسافة اعمق في الرمال . وخاطبت نفسها قائلة من جديد : « تركني في راحـة عميقة ! » وخلعت حذاءهـا بحك رجليها على طرف السرير ، ثم اخذت عن احد الرفوف الرواية التي قدمها لها كوستـال ، وانطرحت تقرأ . وبعد قليـل اطفـأت النور ، محتفظة بالكتاب تحت غطائها ، وواضعة احدى اصابعها بين صفحاته .

من

تيريز بانتفان
لي وادي موريان

الى

بيار كوستال
باريس

١٥ نوار ١٩٢٧

بنعمة سيدنا يسوع المسيح

يا حبيبي !

اني اتألم ، وتتتابني تجارب . أجل ، اني اتألم . وامس ، في القدّاس ، بينما كان الكاهن يتلو طلبة العذراء القديسة ، رحت اخلط بها طلبتك انت ، فاقول : « ايها القلب الذائب رقّةً ، ايها القلب المتوحش ، ايها القلب الجدير بالاعجاب ، ايها القلب الخالي من الدنس » ، وقلت لنفسي انه يجب عليّ ان اضيف : « ارحمني ! »

فارحمني ، يا سيدي . انا ابنة شقية . والرحمة هي المعجزة الحقيقية ، لا السير على الماء كما فعل سيدنا يسوع المسيح . الرحمة تكفي ، وتكتفي بذاتها . واعتقد انها تستطيع حتى الاستغناء عن شيء تتوجه اليه .

خذني على ركبتيك كي لا اموت .

ماري

اكتب اليّ لتقول لي انك ترحمني .

من

اندريه هاكبو
سان ليونار

الى

بيار كوستال
باريس

الثلاثاء ، ١٩ نوار ١٩٢٧

التقت رسالتك الاخيرة رسالتي على الطريق ، فلاشت حقدي دون ان تنعش حميّتي في حبك . ان لك طريقة خاصّة في إثارة القروح التي تزعم انك تريد شفاءها . وانك لحاذق في تقطير السُّلاف المحيي ، والحامض القتّال معاً ، وفي اللحس والعض دفعةً واحدة كالضياغم . أفيكون لبابُ طبيعتك صالحاً ، ولكن يفسده ذكاء خبيث ، ام تراه شريراً وانت تحتفظ بما يكفي من الاستقامة والشرف لتحس بتبكيت الضمير ؟ أتراك تتسلى بان تكون شريراً ، ام انك تتسلى وحسب ؟ قد تكون شريعة رهيبة للغاية تلك التي جعلت الرجل المتفوق يعير شيئاً ، او يعير نفسه ولا يعطي هذه النفس ابداً . ولقد عبرتَ عن هذا الواقع حيث كتبت : « ان الخلّاق هو الذي يترك ذاته تتنازل عن مرتبتها » . ولكنك تبالغ حتى الإسراف في التأنق باسترداد ذاتك . وكل ما يولد منك مختلط ، وله وجهان . واغرب ما فيك من المزايا المشوشة ، المثيرة ، انك توهم الذين يتعرفون اليك ، للوهلة الاولى ، انك مثال البساطة والاستقامة . فانت تسكب على التوالي ، واحياناً في وقت واحد ، السم والدواء ،

ولكن بطريقة فذّة بارعة كي لا يقتل السم، ولا يشفي الدواء شفاءً تاماً. فيبقى الذين تعالجهم في حالٍ مبهمة هي، في حد ذاتها، مبعث للعذاب، مع ان عوامل التعذيب ليست متوافرة فيها. قبل رسالتك الاخيرة كنتُ مستقوية بنفوري منك ونقمتي عليك، لان رسالتك السابقة كانت مثالاً في الشر والرداءة السافرين، العاريين من كل تمويه. ان رداءة الرجل الذي جعلته في اعتباري فوق جميع الرجال قد اصبحت من مبتذلات حياتي. وكم اضعنا من العمر في صراع يحفّز احدنا ضد الآخر، بينما كنا قادرين على ان نصارع، جنباً الى جنب، كل ما يعترض سبيلنا في هذه الدنيا.

وكانت نقمتي عليك صريحة، مستقرة، كأن فيها شيئاً جامداً، صامداً، اجد فيه ما يشبه الراحة. ولكن رسالتك الاخيرة – باستثناء حاشيتها التي اعتبرها ضرباً من المزاح – كشفت لي عما فيك من التفهّم ورقة الشعور، وجعلتني حائرة في امري... فاحسست بدافع عفوي يجذبني اليك على الرغم من ارادتي، كدافع الاخت الصغيرة اللائذة باخيها الكبير، وهو دافع طالما ألفته في ما مضى وارتحت اليه. تطعنني، فتراودني نفسي باللجوء اليك. وبعد هذا كله، اقول في نفسي: «اذا كان يدرك الحقائق مثل هذا الادراك التام، ولا يريد ان يعمل شيئاً لانقاذي، فما هو الا اشدّ نكاية واجراماً». فتزداد نقمتي عليك احتداماً. ومع ذلك لا استطيع ان امنع نفسي من ان اثق بك ثقة خاطئة وبعيدة عن المنطق والصواب. لا استطيع ان ابغضك كلياً، ولا ان احبك كلياً... اني اودك في ضباب من اللوم والاستياء والغضب، واكرهك دون ان اكون واثقة بان كرهي ليس نوعاً من الحب.

هل هذا ما اردته انت، انت العاشق المزيّف، انت المسيطر برباطة جأشك سيطرة تامة على جميع اعمالك؟ أتكون كيميائياً ساحراً شيطانياً تركّب الاحاسيس التي تريدها لك في قلوب الآخرين، بالبرودة نفسها

التي تركتَ بها احاسيسك للآخرين ، ام ان هذا التصرف ينطلق منك عفوياً ، طبيعياً ، ساذجاً ، لا قصد فيـه ولا تفكير ؟ على كل حال ، اني أجهل من انت بالنسبة الى الذين لا يحبونك ، ولكني اعلم من انت بالنسبة الى الذين يحبونك : انك داهية دهياء للذين محضوك غرامهم ونذروا لك الحياة .

اما انا فاذا كنتَ حقاً تلعب معي هذه اللعبـة البغيض ، اذا كنتَ تلعبها عمداً وبذهن نـيّر ، فاقول لك بكل بساطة اني ضعيفة ، لا املك القوة الكافية لمقاومتك . لذلك اتوقف طالبة الامتناع عن اللعب . ولكي اكون اكثر وضوحاً ، اقول لك ان هذا الظن قد تبادر الى ذهني في هذه اللحظة ، وانا اكتب هذه الأسطر . اما في الاحيـان الاخرى فاقول في نفسي انك ولد ملتصق برجل رصين انضجته التأملات الجدية والتجارب القاسية ، اي انك مزيج من « فاوست » و « إلياسين » [1]، اعني ، بصريح العبارة ، انك مسخ رهيب . ولكن اذا كنت حقـاً هذا المسخ ، فلستَ انت المسؤول عن مصيرك ، ولهذا السبب تستحق المغفرة . ومهما يكن من الامر فاني الآن خارج هذه اللعبة . كنتَ لي ، في ما مضى ، عنصر خصب

---

١ ـ « إليـاسين » هو الاسم المستعـار الذي أطلق على يُوآشَ بنْ أَحَزْيا لمـا خبأه يوياداع من وجه عَتَلْيا التي حاولت اهلاك النسل الملكي في اورشليم لتستقـل بالسلطـان (راجع التوراة ، سفر الملوك الرابع ، الفصل الحادي عشر) . وقـد اتخذ الشاعر الفرنسي « راسين » من هذا الحادث موضوعاً لتمثيليته الخالدة « أتالي » او « عَتَلْيا » ، وجعل « إلياسين » مثال الطفولة البريئة ، وعظمة النفس العفوية ، ونقاء الروح والجسد ، لانه الانسان الذي سيولد من نسله المخلص .
اما « فاوست » فرجل باع نفسه من الشيطان لينعم بالشباب وملذات الدنيا . يقال انه ساحر الماني قديم جعلته الحكايات الشعبية اسطورياً . وقد اتخذ منه « مارلو » بطلاً لاحدى تمثيلياته سنة ١٥٩٩ ، ثم كتب فيه « غوته » اهم مؤلفاته .
الجمع بين إلياسين وفاوست كالجمع بين النقيضين : الخير والشر ، الطهارة والفسوق ، العز والعار ، الخ ...

داخلي ، وعامل حيوية وألم ايجابي منتج . اما الآن فلم يبق فيّ شيء . فقد جفّفتَ كل ما في نفسي كالهواء . حنّطتَ ما كنت احفظ لك من الحنان النديّ ، العميق ، المطلق ، فجعلته مومياء . كنتَ صقيعاً جلّد الندى ، فاجهض شعوراً لو تسنى له النمو والينياع لأعطى اشهى الثار وأطيبها .

انك نزعت مني الخوف من الشيخوخة ، وكآبة الشعور بانصرام عهد الشباب . وهكذا شفيتني من شيء لا احبه . كنت اودّ لو ابقى في ربيع الشباب ما دمتُ احب واري نفسي محبوبة ، لاني اعتقد ان امرأة اربعينية لا تصلح لسرير الغرام ... اما الآن فما قيمة الشباب في حياتي ؟ يبدو لي احياناً اني لم ابقَ قادرة على اعطائك شيئاً البتة . وفي هذه الاحيان ابحث عما كان مزدهراً لك في حياتي ، فارى انك اقتلعت كل شيء من الجذور ، وانه من المحتمل ان تمرض ، او تموت ، دون ان اشعر بأقل تأثر . اصارحك باني ، في باريس ، لم أتألم كثيراً عندما ابتعدتُ عنك . وعدتُ الى بلدتي وانا نشوى بنوع من الشعور بالخلاص . وكنتُ شبه سعيدة طوال ثمانية ايام ... واقول « سعيدة » بالنسبة الى الشقاء الاسود الذي كنت اعانيه في باريس . وما كدت اصل الى بيتي حتى انتزعت صورتك المعلقة على جدار غرفتي ، على سبيل القيام بالواجب . وبعد حين اعدتها الى مكانها . ولمَ لا اعيدها ؟ لم تعد تسبب لي خيراً ولا شراً . واتذكر كيف صممت على ان اكتب اليك رسالة وداع احتفالي ، وعلى ان لا اطلب اليك حين امر بباريس سوى قبلة اخوية ، لتكون لي على الاقل هذه القبلة منك . وهذا هو الشيء الوحيد الذي كان يمكن ان التمسه منك . ولا يغربنّ عن ذهنك لحظة واحدة اني لم استجدِك قط للحصول على وجودك بجانبي ، او على صداقتك ، او على علاقة حميمة بك ، او على حبك . قدّمت لك نفسي فاحتقرتها ، والفرق كبير بين التقدمة والاستجداء . ان كبريائي تسمح لي بان اقدم ، الا انها تأبى عليّ ان استجدي .

قلتُ لك اني ، الآن ، بالنسبة اليك : ذهول وجفاف . وهذا ما اردته انت . ومع ذلك فان هذا الجفاف نوع من الشعور في نفسي ، وهو زائدة في حياتي يجب التخلص منها . وما دمتُ لم اقطع جميع الأواصر التي تربطني بك ، فلن اكون متفرغة لرجل آخر ، وصالحة له . لن استطيع التفريق بين جسدي وقلبي ، فأجعل هذا لك ، وذاك لسواك . واذا اعطاني رجل آخر الحب ، او سمح لي بان احب ، او بان يكون لي ما يشبه الحب ، فلن احتفظ بصداقتي لك . ولتكن القضية خسارة بخسارة ، لاني اذا كنت لا احصل من الرجل الذي احبه الا على ما حصلت عليه منك ، فهذا يعني اني خسرت من احب : لا شيء في الحاضر ، ولا شيء في الذكريات ، ولا شيء في المستقبل ... ثم ان المرأة لا تعطي صداقتها للرجل الذي رفض حبها . انت الصديق الوحيد الذي لا استطيع الاحتفاظ به في حياة طبيعية سليمة . أيجوز ان يكون كوستال صديق عائلتي « والعم » العزيز لابنائي ؟ لا ، ابداً ! ان الوجه الآخر لعاطفتي هو العدم ، كما ان وجه انغماسك في اللذات هو « الجانسينية » [1]. ستكون بالنسبة اليّ الحب الذي اضاعته الصداقة . ولن تستطيع ان تجعل من السيل الجحاف قناة ري ، ولا من الحصان الوحشي حصان فلاحة . اني بحاجة الى الحياة الطبيعية السليمة التي لا تستطيع انت الاستقرار فيها ... واني احتاج اليها خصوصاً في هذه الفترة من حياتي ... احتاج حاجةً حيوية الى ان اعانق ، اخيراً ، حقيقةً لا

---

١ - مذهب « جانسينيوس » القائل بان حرية الانسان محدودة لان الله يسبغ نعمته على بعض الناس مع الولادة فيلتهج سبيل الفضيلة ، ويحجبها عن البعض الآخر فيتردّى في الخطيئة بدون ان يكون لحريته او ارادته اقل شأن . وتستعمل هذه الصفة مجازاً للدلالة على التزمّت والزهد والمبالغة في الورع والتقوى .

احلاماً ، الى ان اضم بين ذراعي رجلاً او ولداً يكون لي . وستكون نفسي مفعمة بمعرفة الجميل للشاب الطيب المقبول الذي يسمح لي بان احبه . وسأكون له كلياً ، بارادتي على الاقل . واكثر من ذلك ، فقد غدوتُ ، لشدة يأسي ، اود لو يكون لي ولد مع اني لا احب الاولاد ، لا زوج لان الرجل لا يريد ان يكون محبوباً . واذا لم يكن محبوباً فهو لا يطاق . فلا يبقى ، والحالة هذه ، إلا الولد يساعد المرأة على دفق ما فيها من الحب والحنان . وهكذا لن اكون بحاجة اليك ، على كل حال . اجل ، اني افضل الف مرة ان يكون الرجل بين ذراعي حتى ولو كان لا يحبني مطلقاً ، على ان يكنّ لي اصدق العواطف واصفى الوداد ، ويبقى بعيداً عني .

الجمعة

ضقت ذرعاً بنفسي ، ثم ضقت ذرعاً بنفسي . لم اعد قادرة على الاحتمال . فللمخلوق البشري مقدار محدود من الطاقة في احتمال العذاب . وعندما يتجاوز عذابه هذا المقدار فلا بد له من الموت او من التخلص بطريقة ما . فالعذاب لا يجوز ان يبقى الى الأبد عذاباً ، بل يجب ان ينقلب شيئاً آخر . وها انت تدعني اعيش في بيت مشتعل منذ اربعة اشهر – منذ مغادرتي باريس ، وكان يجب ان اموت مختنقة ، او ان اقفز من النافذة واتحطم . وهذا ما فعلت.

لا أتضرع اليك ، ولن اتضرّع ابداً لألتمس منك شيئاً ، مهما يكن هذا الشيء . ولكني اردد ما قلته لك سابقاً ، واردده جدياً وبعزم لا يتراجع ، وهو : اذا كان لا بد لي من التخلي عن الأمل بان اكون لك يوماً ما ، فلا معنى للحياة في نظري . ومهما يكن من الامر ، يا كوستال ، فيجب ان اعيش ! أليس في مئات الرسائل التي وجهتها اليك جملة واحدة تستطيع ان تفتح لي قلبك ؟ اود المثابرة على تعليل املي ،

وعلى اقناع نفسي بانك لم تتخذ مني هذا الموقف الا لاسباب وجدانيـة . وعندما تدرك ، بعد ستة اشهر ، بعد سنـة ، انك تحطم حياتي ، فقـد تلين ، وقد تحبني ... وربما لا تعود تعتقد بعد هذه المدة اني « شخصية مرموقة » لا يجوز « اغواؤها » خوفاً من الاساءة اليها ... وربما ساورك الفضول لمعرفة جسدي الفتيّ ، وما بوسعه ان يقدم لك من المسرات ... ولو انـك التقيتني في حـافلة قطار سكـة الحديد لكان من المحتمل ان تشتهيني حبـاً بالمغـامرة ... ولو لم احبـك ، واجرحـك ، وأغضبك ، لكان من المحتمل ان تغتصبني اغتصاباً لتتمتع بهزيمتي والسيطرة عليّ ... ولكني لو لم احبك لما كنت اشتهي ان اكون لك .

اني قادرة على الانتظار سنة او سنتين ... فشبابي لم يلتهِ بعد ، ولا يدل مظهري على اني في الثلاثين . هذا ما اكدّه لي كثيرون في مناسبات عديدة . ولو لم ابح لك بالحقيقة لحسبتني اصغر سنـاً . انك لا ترى فيّ سوى فتاة ريفية ترتدي الثياب السود ، ومفكـّرة رصينة تحب الاتزان . ولو كنت سعيدة قليلاً ، ولو بالوهم ، لرأيت فيّ مرحـاً متدفقـاً وينبوعـاً يبعث البهجة .

لأجلك انت استطيع الكثير ، ولا اقوى على القليل . قلتُ لك من قبل اني لا اشعر لك بشيء في نفسي ، اعني بشيء حيّ ، بشيء يتحرك . ولكن اذا تحرّكت انت ، فان هـذا الشيء يتحرك ، لان الطـاقة الراقدة في اعماقي ليست صداقـة ، بل حباً . وفي وسع هذا الحب ان ينفجر كما تندلع النار من كتلة كان يحسبها الناس خشباً باليـاً ورماداً . هذا الحب الراقد استطيع ، في الحاجة القصوى ، ان اقتله ، ان اخنقـه على الاقل ، ان امنعه من الظهور ، ولكني لا استطيع ان احلـّي مرارته . ولكي يبقى فيّ شيء لك يجب ان اكون واثقة بانك ستصبح يوماً ما ، بالنسبة اليّ ، اكثر من صديق . قلنا ، انت وانا ، ذات مساء ، جمـلاً حلوة في الصداقة بين الرجل والمرأة ؛ واجدت انت اكثر مني في هذا الميدان ...

ان صداقة الرجل والمرأة هي ، بالنسبة اليها ، الموسيقى بالنسبة الى الآلة التي تعزفها . فصداقة المرأة والرجل موسيقى سماوية لا مادية ، مختلفة كل الاختلاف عن الشهوة الجنسية ، ولكنها لا توجد إلا بذاتها . اما الصداقة بيننا فلم تعد ممكنة إلا اذا كانت اتفاقاً ووعداً صادقاً بانها ستصبح شيئاً آخر يوماً ما . يوماً ما ؟ متى ؟ عندما تريد انت . بعد ستة اشهر ، بعد سنة ، اذا كانت هذه مشيئتك المتقلبة . ولكني احتاج الى وعدك الجازم ، وعدك المعزز بالقسم بكل ما في الدنيا من مقدسات . وعندئذٍ استطيع الانتظار . وإلا ، فقد ضقت ذرعاً بنفسي . أجل ، لم أبقَ قادرة على الصبر . اذا لم اجعل من هذا الحاضر ، الحائر ، المعذب بين اليأس والامل ، ماضياً لا سبيل الى تغييره ، او مستقبلاً فيه بصيص من الرجاء ... واذا لم انتزع هذا الخنجر من قلبي ، فسافقد صوابي واصبح مجنونة .

(بقيت هذه الرسالة بلا جواب)

جرت وقائع المشهد التالي في احد مطاعم غابة بولونيا . وكلٌ من مطاعم هذه الغابة يبعث في ذهن كوستال ذكريات ساعات من النشوة الى جانب امرأة لم يمتلكها بعد ، فضلاً عن ذكريات سأم قاتل مع امرأة نال منها ما اراد ، فاصبح يستثقل ظلها ويود الخلاص منها .

كان الجو دافئاً كأن فيه حرارة فتاة مراهقة في الرابعة عشرة تماماً . وكانت تُسمع حركات العصافير بين الاغصان ، وتُرى ظلالها على الجذوع عندما تنتقل من شجرة الى اخرى . كانت تطير فوق عالم خالٍ من الشرائع لتقتل الوقت .

قال كوستال لسولانج :

– لستُ مغرماً بك ، ولستِ مغرمة بي ، وحالنا هكذا على ما يرام . فلنبقَ كما نحن ، اكراماً لله ! ولكن اصدقيني الخبر ، ألم تحبي رجلاً في حياتك ؟

– مطلقاً .

– ألم يقبلك احد ؟

– بلى ، بعض الاحيان ، خلسةً ، فكنت أفرُّ هاربة حالاً . لم يقبلني احدٌ مرتين . ليتك رأيتني كيف كنت اضع المتطاولين على حدودهم !

– مع ان هناك شباناً لا يفوتهم شيء من الجمال ، فلماذا لا تودين ان يحبوك ؟

– اعترف بان لهم وجوهاً جميلة . ولكن ما هي اهمية هذا الجمال بالنسبة اليَّ ؟ وما هي العلاقة بين مودّتي ووجه جميل ؟

– وانا ، ألم احبك لسبب واحد هو انك جميلة الوجه ؟

– انت ، انت رجل !

– ألم تعاني آلاماً نفسية ؟

– لا .

– ألم تبكي مرة في حياتك ؟

– لا ادري ما هو البكاء .

وراح كوستال يقول في نفسه : « هذه هي المعشوقة المثالية التي ابحث عنها ! » ولكنه عجب كيف سمحت له بمداعبة شعرها وساقيها ، ثم بتقبيلها امام الناس ، فخاطب نفسه قائلاً : « لا اجد في تصرفها شيئاً من الانسجام . ولكن اين نجد التجانس والانسجام في غير اشخاص الروايات والتمثيليات ؟ »

وبينما كانا يهمان بالجلوس الى احدى موائد المطعم ، مرّ بالقرب منهما ولد يصحب بعض الآتين لتناول العشاء ، فما ان رأى سولانج حتى وقف مأخوذاً بجمال وجهها . فقالت : « لا ادري لماذا يحبني الاولاد دائماً ... » أما كوستال فما كاد يرى نظرة الولد حتى ادرك ان جمال سولانج بهره ، فعاد بالذكرى الى ايام الفتوة التي كان للجمال فيها تأثير وقدرة .

ولما جاء الخادم يقول لسولانج : « اذا شاءت « سيدتي » ... » قطّب كوستال حاجبيه ، لان كلمة « سيدة » جعلته يرى امامه تنين الزواج[1] ، فجعل يقول في نفسه : « ما هي الفكرة التي تراود سولانج الآن ؟ وما هي فكرة اهلها ؟ أتراها تطمح الى ان تكون خليلتي ام زوجتي ؟ ما لنا ولهذا الآن . اذا رفع التنين القناع ونزل الى الميدان ، فسأعرف كيف

---

١ – شبّه بطلُ هذه القصة الزواج بتنين اسطوري نصفه حصان ، ونصفه الآخر حيوان له هيكل اسد ، وجناحا عقاب ، وزعانف سمكة ... واعتبر نفسه مدعواً الى مقاتلة هذا التنين حباً بالحرية .

اقاتله لانه خصمي القديم » . ولم يكن كوستال يستغرب نزعة اكثر الفتيات الى البحث عن الزواج في كل مكان ، وتوسّمه في كل عمل او محاولة ، ولا رغبتهن الشرعية في ان يتزوجهن الرجال ، بل كان يستغرب عنادهن في الاعتقاد ان من يسايرهن لغاية في نفسه يريد ان يقترن بهن ، حتى ولو كان هذا الاعتقاد بعيداً عن كل ما هو ممكن ومحتمل ، وفيه من السذاجة ما يثير السخرية والضحك . وكان يُخيل اليه ان الى جانب كل فتاة تنين وَهْم [1] له براثن ، وان جميع الفتيات يركبن هذا التنّين كلما خطر في بالهن ركوبه سواء أكانت هناك مناسبة مؤاتية او لم تكن ، ويقمن بجولات واسعة في اجواء يجدن فيها الطمأنينة والراحة والثقة بالنفس ، وهي اجواء الاوهام البعيدة عن الحقيقة والواقع . وقد اطلق كوستال على هذا التنين اسم « هيبوغريف » فغدت هذه الكلمة من الكلمات المألوفة لديه ، يرددها في مختلف المناسبات ، ويطبقها على الفتيات اللواتي يشرّفنه بالطموح الى الاقتران به ... وبقدر ما كانت فكرة الزواج المحتمل تتجسّم في اذهانهن او تتضاءل ، كان كوستال يقول ان الـ « هيبوغريف » متعافٍ او هزيل . وهذا ، طبعاً ، بالنسبة الى الفتيات فقط ، لان رغبة كوستال في الزواج كانت دائمة الاستقرار في نقطة الصفر . إلا انه كان في بعض الاحيان يغذي هذا التنين ليقوّيه ، ثم يراه في احيان اخرى هائجاً ضارياً يحتاج الى تهدئة وكبح جماح . وقد ألفت الفتيات هذه الطريقة في التعبير عن احوالهن النفسية والجسدية حتى ان المتحفظات منهنّ اطلقن على بعض الاجزاء الحساسة من اجسادهن — وهي الاجزاء التي تسبب لهن الاضطراب

---

١ ـ استعمل المؤلف هنا كلمة « CHIMÈRE » . وهي تعني « الوهم » اذا بُدئت بحرف عادي . اما اذا كان حرفها الاول كبيراً فانها تعتبر علماً وتعني حيواناً اسطورياً نصفه اسد ونصفه الآخر تيس . وقد استعملها المؤلف بصيغة الاسم العلم ، فكان موفقاً في التلاعب بالمعنيين : الوهم والحيوان الرهيب . الاول بالنسبة الى الفتيات الطامعات بالزواج ، والثاني بالنسبة اليه وهو الكافر بالحياة الزوجية .

والوسواس — اسم «الاماكن الهيبوغريفية» . وكان كوستال يمضي الشطر الاكبر من اوقاته في مصارعة «الهيبوغريف» لدى صديقاته ، وفي بذل اقصى الجهود لقتله ، اي لاقناعهن بانه لن يقترن بهن ولو ملّكنه العالم . ولكن الهيبوغريف حيوان اسطوري ، لا يكاد يُقتل ويلفظ انفاسه الاخيرة ، حتى يُبعث حياً ويهبّ قوياً ، جباراً ، مخيفاً . ليس هناك ما هو اصعب من اقناع الفتاة بان الرجل الذي يشتهيها لا يرغب بتاتاً في تكريس حياته لها .

وبعد العشاء خرج كوستال وسولانج للقيام بنزهة ليلية في شارع الأكاسيا . ولم يكن هناك بنك إلا وعليه شاب وفتاة متلاصقان دون ان يفكر احد بان يدلق عليهما دلو ماء كما تعالج الكلاب عندما تكون في مثل هذه الحال ... وكان كوستال يسائل نفسه : «أتراهم يعلمونني اساليب جديدة ؟» ولكن لا ، كانت حركاتهم تضحكه ، وكلما رأى واحدة منها قال للقائم بها : «إيه ! هذه اعرفها ، يا ابله !» ما أضيق مجال المداعبة الغرامية ، وما اقل اساليبها !... ان مقرها يثير الحزن العميق لانها تدور في حلقة من الابتذال . وتضايق كوستال من استعراض تلك «الازواج» المتشابهة بكل شيء : بالتعبير عن احاسيسها ، باوضاعها ، بنشواها التقليدية البائخة ، ببلاهتها الفائقة كل حد ، باقتناع كل منها انه وحده في العالم ، بابتساماتها التي تدعوك الى الاعجاب بسعادتها ... مع العلم ان كل هذا سينتهي يوماً بالاجرام ، برشق الوجوه بالحوامض المحرقة ، المشوّهة ، او بالامراض الزهرية والابر المؤلمة في الشرايين . حقاً ان عبئاً ثقيلاً من السخافة ، في الادب ، والسينما ، والصحف ، والاناشيد ، يرهق هذا «الزوج» الشقي الذي قوامه الرجل والمرأة . ومن المؤسف المرير ان يكون الانسان عاجزاً عن الخروج من هذا التيه . ولما مرّ كوستال بالزوج العاشر من العشاق المتلاصقين أحس كأنه اصيب بالشلل ، فقال : «بعد عشر دقائق اصبح انا ايضاً واحداً من هؤلاء المهرّجين . هيا بنا ،

لا بد من الفرار . فـاذا رايت ، بعد ، اربعة او خمسة ازواج من ... الغـارقين في النشوة فسافقد شجـاعتي واسقط في التجربة » .

واشار الى طريق منحرفة ، بعـد ان القى عليهـا نظرة ، وايقن انها ليست من التي تبعث فيه ذكريات ، لانه يخشى تراكم الانطباعات في نفسه ، وهو الذي يعاني ميلاً نظرياً الى الخلط بين مختلف شؤون الحيـاة . قـال لسولانج :

– نذهب قليلاً الى هناك ؟

فاجابت :

– اذا شئت .

وسارا على طريق تظللها الاشجار ، حتى وصلا الى فسحـة جرداء في الغابة ، يقوم فيها مقعدان من الحديد متجاوران وفارغان ، كأن الربة « بريما » قد اعدتهما خصيصاً لهما .

وحـالاً أحس بسولانج على كتفـه ، وقد قلبت رأسهـا الى وراء ، واغمضت عينيها ، وقدمت فمها مشقوقاً ... لم تردّ القبل التي انهالت عليها ، ولكنها تركت كوستال يفترس داخل فمها وشفتيها دون ان تفتح عينيها ، ودون ان تفوه بكلمة .

وساءل كوستال نفسه : كيف تصبح هذه الفتاة الرقيقة ، النحيفة ، الطرية العود ، في مثل ذلك الثقل المتعب بين ذراعيه ؟

كانت كلها ملفوفة بالمطـّاط ، ومدرّعة كأنها « مينيلاس » [1] في ميدان القتـال . وفي بعض الاحيـان كانت تهمهم وتئن كأنها على شفير البكاء . وادرك كوستال من توتر شفتيها على شفتيه انها ستجد يوماً ما سهولة في العض . واحس باظافرها تخدّش سترته كأنهـا هرة بين يديه ، يحسبهـا

---

١ ـ احد ملوك اسبرطة ، خطف باريس زوجته الحسناء هيلانة ، فكان هذا الحادث سبباً لحرب طروادة التي نظم هوميروس وقائعها شعراً في إلياذته الشهيرة .

سعيدة هانئة ، بينما هي ، في الحقيقة ، فارغة الصبر ، وقد تنتفض بين ألفينة الفينة لتخدشه وتهرب .

قبضت على معصمه ، وراحت تضغط عليه بكل قواها ، محاولة منعه من الامعان في احدى مداعباته ، لكنها لم تمنعه من الاستمرار في ما أراد ، ثم اخذت ترتعش ...

وكان فردوس وجهها معروضاً ، مباحاً ، بلا حراك ، وفم كوستال يرعى فيه ، ويتذوق منه كل ثمرة .

لم تعانقه ، ولم تضمه الى صدرها ، ولم تبدِ اقل حركة في هذا السبيل ، ولم تحرك شفتيها ، ولم تبادله قبلة واحدة من قبلاته . ولما جثا امامها ، خفضت رأسها ، وسترت وجهها بيديها . ولا ريب في انها كانت قد نضجت ، واصبحت على اتم الاستعداد للاستسلام لكل شيء ... ولكنه كان يحب التدرج ، ناهيك بان العاطفة في نفسه كانت في تلك اللحظة اقوى من الشهوة . وقد كان خلال هذه المداعبات يسمع بسرور تنفس الفتاة المتسارع كأنها تلتهب .

وكان من حين الى آخر يرفع رأسه قليلاً ليتنفس ، فيخيل اليها ان سكوتاً ابوياً يحتضن عناقها . ورأى كوستال ، الى اليسار ، شبه ساقية لم يكن قد رآها من قبل ، كأن الماء قد دنا منهما على مهل وبلا ضجة كي لا يفاجئهما ، وكان يلمع جامداً في مكانه تحت الاشجار الشروب . وعلى مسافة حوالى ستين متراً منهما وقفت سيارة مضاءة المصابيح ، فيها اناس تدل مظاهرهم على انهم تعشّوا في الغابة ، وحولهم اولاد يلعبون .

ولن ينسى كوستال ابداً كيف كان وجه سولانج عندما فتحت عينيها ، واستقامت في جلستها . كانت عيناها تبدوان مغمضتين ، فاصبحتا واسعتين ، تحدقان الى كوستال من غير ان يطرف لهما جفن .

نظر اليها فما عرفها ... كان وجهها جديداً ، متألقاً . ونظرت اليه ، فخيّل اليها انها تراه للمرة الاولى . فقد اكتشف كلٌّ منهما الآخر . قال

لها كأنها قد تغيرت حقاً ولم تعد تُعرف : « أأنت من ارى ؟ » فاجابت : « نعم » ، بصوت خافت يكاد لا يُسمع .

والقى نظرة على ساعته ، فاذا هي الثانية عشرة والنصف ، فقال : « يجب ان نذهب » . فنهضت دون ان تفوه بكلمة . وكان شعرها قد تشعث فبدت كأنها طفلة تلعب ، فمدت يديها اليه ورتبته في سكوت تام . وكان كوستال يساعدها على ترتيبه فيناولها الدبابيس برؤوس اصابعه . ولما فرغت من عملها ، وقفت امامه مسبلة الذراعين ، كما فعلت منذ ايام على مقربة من منزلها ، فاذا هي اقصر منه قليلاً ، وقد خفضت رأسها حياءً ، إلا ان عينيها كانتا تنظران اليه بامعان دون ان يطرف لهما جفن كأنهما مغروستان في عينيه .

كانت نظرتها تنطبع في الذهن الى الابد لما فيها من الصدق والاستقامة ، وتكاد تنتزع من الرجل الذي تقع عليه صيحة الاعجاب . وكيف ينسى كوستال ذلك التناقض ، او بالحري ، ذلك الانسجام بين رأسها المنخفض كأنه يهنأ بالخضوع ، وبين نظرتها الصريحة ، شبه المتحدية ، لما فيها من الانفة والعنفوان ؟ ولم تكن نظرتها تبحث عن شيء اعلى من الوجه الماثل امامها ، فقد كانت في هذا الوجه حدود حياتها وعالمها .

وعانقها واقفاً هذه المرة . فألقت رأسها على كتفه ، وراح يمتص شفتيها ولسانها بحرارة ونشوة حتى انه لم يعد يعرف من هي إلا من رائحة فمها . ونقلها من كتفه اليسرى الى كتفه اليمنى ، فكانت حركته هذه شبيهة كل الشبه بحركة مصارع الثيران الذي ينقل الثور من جهة الى اخرى في فترة حرجة من الصراع ؛ وكان وضعه ايضاً كوضع المصارع تماماً ، اذ وقف بقوة وساقاه منفرجتان قليلاً ، ورأسه منحنٍ ، واتخذ وجهه كل ما يتخذه وجه المصارع من امارات الرصانة والجد ، وهو مستوثق برباطة جأشه ، وبسيطرته المطلقة على نفسه وعلى الفتاة . لقد اختلطت فيه رباطة الجأش والنشوة اختلاط الدلغان والماء بالتراب . وكان يعلم ان

هيمنته على سولانج مطلقة . فلو قال لها : « لنبقَ هنا الليل كله » ، لبقيت معه . ولو قال لها : « اخلعي ثيابك » ، لخلعتها ووقفت عارية كما خلقها الله . فقد كانت خاضعة ، صاغرة ، كأنها تحت وطأة سحر . ولم يكن فيه ما يضاهي شعوره بالسيطرة التامة عليها إلا رغبته في ان لا يتمادى ، وفي ان لا يؤلمها بعصرها بين ذراعيه ، لانه احس بأعصابه تنشط للعمل ، واستيقظت فيه قوته التي قد تبقى حية فيه سنوات عديدة حتى ولو اصبح مجرداً من الذكاء ، والمواهب ، والمال . وبهذه القوة قرر ان يجعل سولانج سعيدة في اليوم التالي . واقتصر شعوره في تلك اللحظة على الاحساس باسنان سولانج الصلبة وباظافرها تخدش سترته برفق ، وبحركة شبيهة بارتعاش من يحتضر .

ومشيا بخطى مترددة ، متعبة ، وهو يمسك بمعصمها . وكانت الاضواء الكهربائية قد أطفئت في الغابة ، فاضطرا الى العودة صوب « باب مايتو » للبحث عن سيارة . وكانت يده قابضة بشيء من القوة على نهد سولانج الايسر ، فاحس بهذا النهد يخفق ، وخيّل اليه ان قلب الخليقة كلها ينبض في قبضة يده . وابدى ملاحظات عديدة على المواقب التي يتعرضان لها إن لم يجدا سيارة ، فلزمت الصمت ولم تجب عن ملاحظاته . لم تخرج من بين شفتيها كلمة واحدة ، فاحس كوستال انها ذاهلة كأنها تسير خاضعة لقوة سحرية .

واقلقه صمتها ، فطبع قبلة على عنقها ، كأنه اراد اقناعها بانه ما يزال يحبها . وفي هذه اللحظة مرت سيارة فيها شاب فصاح بهما : « ليس هكذا ! بل على الفم ! » وظلت سولانج غارقة في وجومها ، فلم تضحك . واحس كوستال بالقلق يزداد في نفسه ، فقال « بمَ تفكرين ? » فاجابت : « بما جرى في هذا الليل ... » يا لها من طفلة !

واخيراً مرت سيارة تاكسي فاوقفاها .

ومن شارع الأكاسيا الى شارع فيلياه ، خيّل الى كوستال انه يرافق

جثة هامدة . وما كادت سولانج تصعد الى السيارة حتى ألقت رأسها الى وراء ، ولم تقل كلمة واحدة خلال ربع الساعة ، وكانت عيناها مغمضتين ، وفمها ملتصق بفم كوستال كأنها تستمد منه النَفَس ، ولو انفصلت عنه لفاضت روحها . ولما خفضت السيارة سرعتها ، وكادت تقف في مفترق تتألق فيه الانوار الملوّنة ، شوهد وجه ينظر اليها من زجاج السيارة الخلفي . فانفصل كوستال عنها ، ثم اخذ يدها النديّة ، وجعل يلثم اظافرها ورؤوس اصابعها . فرفعت وجهها قليلاً عساه يعود الى تقبيل شفتيها . وكانت تلك الحركة الخفيفة هي الدليل الوحيد على انها لم تكن غائبة عن الوعي .

ولما وصلا الى شارع فيلياه ايقظها ، وقال لها : « الى اللقاء » ، ثم اضاف : « سأتلفن لك بعد غدٍ صباحاً » . فنزلت من السيارة دون ان تفوه بكلمة ، كأنها مروبصة ، او كأنها روح بلا جسد .

وانطلقت السيارة بكوستال وحده . ولما وصلت الى اول مقهى مفتوح ، قال كوستال للسائق : « أتحب ان تشرب شيئاً معي ؟ » وفي المقهى شرب كأسين من النبيذ الابيض . ثم عاد الى السيارة . وبعد قليل اوقفها قبل ان تصل الى بيته ، ليسير قليلاً في الهواء الطلق ، وقد خيّل اليه ان الكرة الارضية تدور على نفسها تحته ، وانه يمشي في الجو ، ناقلاً قدميه من غيمة الى غيمة .

من

بيار كوستال

باريس

الى

الآنسة راحيل فيفي

باريس

٢٣ نوار ١٩٢٧

والآن ، ايتها العزيزة غيفيت ، قضي الامر ! انّنا نتخلّى عنك . فبين ايدينا ملاك من السماء ، وقد قررنا حصر قوانا فيه ، لاننا بلغنا سناً لا تسمح لنا بالتوزيع لاعطاء كل واحدة حصتها . وسنكون كلياً لواحدة وعلى التوالي . لو اشركنا في الحب لوصلنا اليك منشغلين بسواك ، ولكانت المتعة اقلّ لذة ، ونحن لا نريدها الا في ذروة عظمتها ومجدها . كنا نتوقع ليلاً طويلاً حالك السواد يبزغ في نهايته فجر الرضى والقبول ، ولكن قدم الملاك انزلقت في الجلسة الاولى . ما كدنا نشتهيه حتى القى سلاحه . انه حب جدّي كالذهب الصافي النقي من كل زيف ، وفيه عمق وعاطفة . واذا كنا نمزح في حديثنا عنه ، فلأن المزاح طابع عبقريتنا . واخيراً ، ايتها العزيزة ، اننا في غمرة السموّ ، وبما ان السموّ ليس من الاماكن التي توافق مزاجك ، فاننا نضعك على الرف ، من بعد اذنك ، حتى يأزف اليوم الذي لن يكون بعيداً ، والذي يضطر فيه ملاكنا الى اخلاء الساح . فالسموُّ ، وأأسفاه ! لا يدوم الى الابد . وعلى هذا نقبلك ونرسل اليك نقوداً لتكون لديك مؤونة .

ملاحظة : نقول لك « نحن » ونخاطبك بصيغة الجمع ، لان الناس يتهموننا بالعجرفة حين نقول : « أنا » . والحقيقة ان « نحن » طبيعية اكثر من « انا » ، وقد كان يكفي ان نفكر بهذه الحقيقة لنجدها .

مذكرات الآنسة جومين ريفال ، باريس

(مقتطفات)

. . . .

الثلاثاء . — هذا يومي الاخير هنا . لن اتنشق بعد اليوم غبار السلع ، وراء هذه النوافذ المسدودة ، ولن اكون اسيرة الضجيج والفوضى الناجمة عن فتح صناديق البضائع . وهذا السلّم الخشبي الضيق ، النحاسي الدرابزون ، سأنزل عليه مرة واحدة بعد ، ثم لن اتسلقه ابداً . انه شبيه بسلالم السفن ، فكلما تسلقته يخيّل اليّ ان هذا المحل التجاري سيتحرك ليبتعد عن الشاطىء .

ولم يكن هناك بدّ من الوصول الى هذه النتيجة ، فعندما شغلتُ هذه الوظيفة لم يوجّه اليّ كوستال اقل توبيخ ، على الرغم من انّ عملي هنا لم يعجبه . انه يود لو اكون دائماً تحت تصرفه حتى حين يكون منصرفاً عني . كان من المحتمل ان يصبح عملي الجديد سبباً لمضايقته ، وهو لا يطيق ظل المضايقة ، لأنه يعتبر هذا الظل عبئاً مرهقاً . قال لي يومذاك دون تمهيد : « لن تبقي هنا شهراً واحداً ، لانك غريبة عن هذا المحيط ، ومعتادة الجو المدرسي . وسيجدون اكثر من ذريعة ليصرفوك من العمل » .

كان كوستال يضرب على وتر الكبرياء في نفسي . وبعد ثلاثة ايام اصبح اكثر مراوغةً فقال لي : « قد آخذك معي الى ايطاليا عندما يصرفونك من العمل » .

قلت : « أوعدٌ هذا ؟ »

فاجاب : « وعد ! ... أيعد من كان مثلي ؟ »

لم يكن صادقاً . فهو يعد دائماً ، ولكن « من كان مثلـه » لا يفي بوعوده إلا نادراً ، دون ان يعتذر ، فيقول : « مـا حيلتي ؟ لقد غيَّرت فكري ، ويجب ان تقبلي بي كما انا . ثم ان في الحيـاة حقوقـاً تسقط بمرور الزمن » .

ومن غير ان يعد غرس في ذهني فكرة ايطـاليا . ولعل هذا كل ما كان يريد . وكلمـا كنا نلتقي ، كان يعود الى الحـديث نفسـه ، فيقول مثلاً : « اذا صُرفتِ من عملك ، واذا ذهبنا الى ايطـاليا ، وهذا ما لا اعدك به وعداً جازماً ... » وبسبب هذه الـ « اذا » تذرعت باول سبب تافه لاضرب عن العمل مع الموظفين الآخرين . كنت استطيع الحصول على الصرف لسبب آخر كـ « عدم الكفاءة » مثلاً ، وعدم الكفاءة هنا يعني التخريب ، ولكن نفسي تأبى عليّ اللجوء الى هذه الطريقة . فانا ايضاً يجب ان يرضى بي الناس كما انا ... كان مبدأ الاضراب والتظاهر ركيكاً وقابلاً للمناقشة . فقد حاولنا ان نجعل من طرد ل ... إبعاداً سياسياً ، مع ان الحكم الذي صدر بحقه كان من الاحكام التي تصدر على المجرمين العاديين ، ناهيك بان ل ... لم يكن يعجبني . وها انا مضطرة الى اكراه الناس على اعتباري « حمراء » [1] . وقد بكت امي عندما علمت بما جرى ، وقالت لي : « انت يا من تلقت افضل التربية عند الراهبات ، الخ ... »

لم يكن المدير هو الذي يمثل دور الله في هذا المتجر ، بل امين الصندوق في قفصه الحديدي ، فهو أصمّ ، أبكم ، أعمى ... انه الله بالتمام والكمال .

وهـا هي امرأة اخرى تجلس على احد البنوك في غرفـة الانتظـار باحثة عن عمل ، لكنها لا تجد شيئاً . اما الفتاة الصغيرة « رنو » فقد وصلت

---

١ ـ شيوعية .

بكتفيها الضيقتين ، ووجهها الصغير ، الاصفر ، كأنها مصابة ببرص .

ان العمل صعب في بدايته على فتـاة في السادسة عشرة من العمر ، وغير معتادة ... فهي لا تنقطع عن التأسف على بيتها ، لانها كانت فيه ، على الرغم من الفقر والحرمـان ، بعيدة عن الاصفاد التي تكبلهـا ، وفي نجوة من غلاظة بعض الناس وسماجتهم .

وهذه ، هنـاك ، تعطلت آلتها الكاتبـة ، فجعلت تنظر اليّ بيأس لأمد لهـا يد المعونة ، ثم قالت : « يا حضرة الآنسة ، لا ادري ما حلّ بهذه الآلة » .

قلت : « انزلق الشريط ، وسأعيده الى مكانه » .

وبعد ، فهذه لوسيان التي تردد : « اني اكره الله كرهـاً شديداً » . ولكن هذا الكره لن يدوم . قالت لي : « يا حضرة الآنسة ، اني مصابة بصداع » ، فاجبتهـا : « اذهبي الى الساحـة الخـارجية وتنشقي الهـواء الطلق ، ثم عودي بعد خمس دقـائق » . قالت : « واذا رآني المدير ؟ » اجبت : « قولي له اني سمحت لك بالخروج » . ولما خرجت ، قالت لي فتاة اخرى : « يا حضرة الآنسة ، ان لوسيـان لن تعود » . حتى الهراوات يتبادلن الدس والنكايات في ما بينهن . اجبت : « هذا ما ادركته فوراً عندما قالت انها مصابة بصداع » . لا استطيع المثـابرة على تمثيل دور فتاة حمراء . ولكي اقنعهن باني معهن يجب ان اتخلى عن سلطتي ، وهذا ما لا استطيعه حتى ولو اردت .

اجل ، يا اندريه باربو ، في وسعك ان تنظريّ اليّ ، يا ابنتي ، فلن اخفض عينيّ . قد تنتزعين مني ابتسامة عصبية ، لا اكثر . أترين ؟ ها انت تخفضين عينيك الآن ... تباً لك من حيوان قذر !

بعد خمس دقائق عادت لوسيان . اعلم حق العلم انهن يخشينني . وانا ايضاً اخشى نفسي عندما ارى اني غدوت امقت هذه الشقيات التعسات . ولكن يبدو ان هذا المقت ضروري ! فقاعدة العمـل تأمرني قائلة :

« اعتبريهن عدوّات ، وكوني قاسية عليهن » . سيتحدثن طوال سنوات عن « رئيسة العمل الشريرة » . ولكن لا بأس . فانا شقية تعسة مثلهن . وربما كنت اشد منهن تعاسة وشقاء . بل اني اشقى منهن بكل تأكيد . ولكنهن لا يثرن ، بل يخمدن بعد كل حادثة اصطدام . وفي الانتخاب يكتبن : « لا » على الورق ، ولا يكتبن : « نعم » الا نادراً . واحياناً يوقعن بدون « لا » او « نعم » . وابرز في ما القسم الاكبر منهن هو فقدان الشجاعة . فكيف يستطعن الثورة ؟ لا يتحملن الاستبداد والجور دون ان يُجرح شعورهن وحسب ، بل يحببن الجور والاستبداد ، ويحببن السيطرة المطلقة عليهن ، ويكرهن الطيبة ، فاذا بهن يحتقرن من لا يكون شريراً ويعاملهن بقساوة .

تضم هذه الدائرة التي اشرف عليها اربعة رجال وست عشرة امرأة . واذا بحثتُ عن الذين استطيع ان اقول لهم : « الى اللقاء » ، اذا غادرت هذا المكان ، فلا أجد سوى رجلين وثلاث نساء . هذه هي النسبة . قد تكون هناك كلمة سحرية لا اعرفها ، وفي وسعها ان تكسبني رضى الجميع ... فكيف امضي دون ان اجدها ، ودون ان أتلقّى مساعدة من احد ؟ لما فاتحت كوستال بهذا الامر انتفض صائحاً : « أتطلبين اليّ ، انا ، اسراراً تساعدك على فرض ارادتك ؟ » لا ريب في انه لا يريد إلا شيئاً واحداً هو : التخلص مني .

في اليوم التالي . — كان ما جرى انحس من كل ما تصوّرت .

قال لي :

— اعلمي اننا سنفترق بعض الوقت .

كان يستطيع التذرع باعذار عديدة ، فيقول لي ، مثلاً ، انه مريض . ولكن لا ، فهو يفضل ان يقول الحقيقة دائماً . لذلك قال :

— وجدت فتاة مدهشة . انها ماء نقي ! لا يجوز ان ابذّر قواي هنا وهناك . اذا وصلت اليها متعباً تخف متعتي بها ، ولكن عندما ينتهي

عملي معها ، نستأنف عملنا معاً . قد يستغرق غيابي حوالى ستة اسابيع .

اراد ان يعطيني الف فرنك ، فرفضت . ما احقر نقوده !

قال : أترفضين كالافريقيين ؟

قلت : لماذا كالافريقيين ؟

قال : لان الافريقي ، اذا رأى ان المبلغ الذي يقدم له غير كاف ، طرحه على الارض ، وامتنع عن أخذه . اما انت فستأخذين هذا المبلغ ، لانك فرنسية ، ولانك امرأة ، ثم لاني لا اجد ما يبرر رفضك . اني اعمل عملاً يزعجك . ولاعوّض عليك اعمل عملاً آخر يعجبك . هذه سنّة الانصاف ، فاي شيء اقرب منها الى العقل والمنطق ؟

لو كان يكذب لوجدت القوة الكافية لمعاندته . ولكني لا استطيع الاعتراض على الطريقة التي يعرض بها الوقائع الملموسة . وهكذا لم اجد سبيلاً حتى الى التحدث عن رحلتنا الى ايطاليا .

وفي النهاية قبلت بكل ما اراد . وقلت في نفسي : سأشتري بالمبلغ الذي قدمه لي جهاز راديو ، واخبر امي باني ربحته باليانصيب . ان ثمن هذا الجهاز ١٤٥٠ فرنكاً ، ولكني استطيع الحصول عليه بألف فرنك بمساعدة صديق صديقي بياريت . وقد طلبتُ الى كوستال ان يرسل اليّ اسطوانات لانه أخبر مني في الموسيقى الرائجة اليوم . . . .

. . . .

ما كاد كوستال وسولانج يجلسان الى طاولتهما في حديقة الفندق الريفي الفخم الذي ذهبا اليه ، على مقربة من غابة « مونمورنسي » ، حتى بدأ كوستال يعاني آلاماً نفسية مبرحة . فقد كان يكره حتى الموت اولئك الذين كانوا حوله في الفندق ، وهم رجال متأنقون ، متصنعون ، غارقون في السخف والغرور ... ولم يستطع ان يكبح جماح ثورته حين سمع احدهم يقول لجارته : « يا صديقتي العزيزة ، ألا تذكرك هذه السماء بلوحة لـ « كناليتو » [١] رأيناها في متحف فيرون ؟ » وكان صوته مليئاً بالتبجح والاعتزاز الأرعن . اما النساء ، فكان يكيّف ملامح وجوههن مزيج من الضجر المصطنع ، والادعاء الابله ، والعجرفة الشريرة ، فتنبعث من الجميع نتانة التفاهة والسماجة على الرغم منهم ، وتشتد رائحة هذه النتانة كلما حاولوا التلطف لتخفيف ما فيهم من الرعونة والغباء . وكانوا جميعاً متحصنين بطريقتهم الخاصة في التحدث بالغمز ، والاشارة ، والتعابير المبهمة ، ويطبقون طقوساً تقليدية خاصة بهم ، لا يفهمها سواهم ، في كل عمل يعملونه ، او كلمة يقولونها ، لاعتقادهم انهم من طينة استثنائية غير طينة عامة البشر ... انهم جميعاً منفيون عن الظرف ، وعن كل ما هو طبيعي وانساني ، نفياً نهائياً لا رجوع بعده ، حتى انهم يثيرون الشفقة في بعض الاحيان ، كأنهم رازحون تحت وطأة اللعنة .

---

١ ـ رسام وحفار ايطالي توفي سنة ١٧٦٨ . اسمه الحقيقي جيوفاني كنالي ، وقد دُعي كناليتو على سبيل التحبب . اشتهر باللوحات التي اقتبسها عن مناظر البندقية .

كان عددهم حوالى مائة وخمسين في حديقة ذلك الفندق ، فلم يظهر بينهم ظل كرامة إلا على وجوه رؤساء الخدم ، ولم يَبْدُ شيء من الصفاء إلا على وجه كلب سلوقي ابيض ، إلا انه كان صفاءً بالغاً ذروة السمو .

لم يثيروا قرف كوستال لانهم اثرياء ، بل لانهم غير جديرين بثروة لا يختلف وجودها معهم عن وجود اللآلىء في حوزة الخنازير . ولم يكن يحسدهم على شيء لانه يملك مثل ما يملكون ، او يكفيه ان يريد ليكون له مثل ما لهم واكثر . ولكن المؤسف ان الكاتب المرموق في فرنسا لا يستطيع الحصول على ما يطمح اليه من مظاهر الجاه ، والاعمال المجدية ، والمكانة الرفيعة ، والمراتب العالية ، إلا اذا عاشر امثال هؤلاء الناس . وبما ان معاشرتهم مزعجة حتى القرف ، عمد كوستال الى اجتنابها قدر المستطاع حتى قيل انه متعجرف ، وحشي الطباع ، بعيد عن الحياة الاجتماعية . ولا ريب في ان هذا القول لم يكن يخلو من الصحة .

وفي بعض الاحيان يشتد القرف حتى يصبح مؤلماً كأنه أسنّة حادّة تغوص في الاعصاب ... وقد وقعت عين كوستال على امرأة تجسدت البلاهة العظمى في قسمات وجهها لانها كانت تريد افهام الجميع ، بنظراتها وحركاتها ، انها تحتقر زوجها ، وتقلّد الممثلة السينمائية « مارلين دياتريش » . ولم يستطع الكاتب صبراً حيال هذا المشهد الفظيع ، فدفع عنه صحفة الطعام ورفع رأسه ...

وسألته سولانج :

– ما بك ؟ أتحس بألم ما ؟

وكان وجهه قد اصفرّ وتجهّم حتى بدا الخوف في عيني الفتاة ، فاعتذر دون ان يشرح سبب الوعكة التي ألمّت به ، ثم انتقل من مكانه ، وجلس الى جانب آخر من الطاولة متوجهاً صوب الغابة ، كي لا يكون احد من نزلاء الفندق في حقل رؤيته .

ولم تكن تلك المرة الاولى التي احدث فيها القرف مثل هذه الثورة

في نفسه ، فقد حلت به يوماً وعكـة مماثلة في شارع « سان ميشال » عندما رأى جماعة من الطلاب ، على صدورهم جميعـاً ربطات عنق صفراء (أرمز هي ؟) كبيرة ، يلاعبها الهواء ، يسيرون متماسكين كتفاً الى كتف ، ويجعرون باغنية غير مفهومة وراء لافتة كتبوا عليها ، بخط كبير ، العدد « ٦٩ » [1] . وكان يواكبهم بعض رجال الشرطة ، فتبادل كوستال وأحد هؤلاء الرجـال ابتسامة أسف وشفقة ، وهو يخشى ان يفسر الشرطي بسمته بالميـل الى التساهل مع اولئك المتظـاهرين ، خصوصـاً لان ذلك الشرطي من ابناء الشعب ... [2] وعلى كلٍّ ، كيف استطاع الشرطي ان يبتسم ؟ احس كوستال انه لو كان ، في مثل حاله ، مضطراً بداعي الخدمة الى مواكبة اولئك الفتيان ، ابناء الاثرياء ، في مظاهرتهم القذرة ، الوقحة ، الدالة على بلادتهم وبلاهتهم ، لما تمالك نفسه من ضربهم بالعصا .

وكان كوستال يتعجب دائمـاً من رحـابة صدر اولئك الذين تسميهم اوساط العيـال الاصيلة : « الدونيين » ، على سبيل الاحسان ، وللدلالة على الرأفة بهم . وكان الكاتب يسائـل نفسه كيف لا يشتد الحقد في نفوس هؤلاء النـاس عندما يرون انهم في اوروبا وضعـاء ، وفي المستعمرات لا يختلفون حـالاً عن سكان البلاد الاصليين . وقد تأثر بهذا الواقع المؤسف

---

١ ـ يعتبر الفرنسيون هذا العدد رمزاً لعمل في منتهى الفسوق والقذارة الجنسية ، وقد يدل على معناه شكله كما يكتب بالرقم العربي : « 69 » .

٢ ـ من المسلم به ان الثورة الفرنسية قضت على الفوارق الاجتماعية على صعيد السياسة والحقوق والواجبات امام القانون ، ولكنها لم تقضِ على التبـاين في الاخـلاق والمشارب ، والتقـاليد ، والعـادات ، واساليب التصرف ، بين الطبقة التي كانت ارستقراطية وعامة الشعب . فقـد احتفظ الارستقراطيون حتى اليوم بكبريائهم ، وتأنقهم ، ومظاهر الترفع والسيادة ، فتجاوز بعضهم حدود الذوق واصبح مدعاة للهزء والسخر ، بينما بقي ابناء الشعب على سجيتهم وبساطتهم ، وهذا ما يوضحه المؤلف هنا بطريقته القصصية مظهراً الفوارق القائمة بين الجانبين .

تأثراً عميقاً دون ان يدرك اسبابه . وجرّه تفكيره الى الاعتقاد ان فترات السلام الاجتماعي ليست طبيعية ، ولا منطقية ، وإنْ تكن موافقة لبعض الناس ، وان الحيـاة لا تسير سيراً منسجماً مع حقيقتها الجوهرية إلا في ايام الفتن والثورات . ومهما تكن الثورات ظالمـة ومستبـدة في بعض تفاصيلهـا المؤسفة ، فهي الوضع السوي والطبيعي الذي يرتاح اليـه الفكر لانه يخرج فيه من نطاق المعجزة — معجزة استمرار الحياة الهادئة في خضم الفوارق الاجتماعية الصارخة .

لو كان كوستال وحده يومذاك في ذلك الفندق ، او لو كان مع بعض اصدقـائه ، او مع ابنه ، لابتعد عن النزلاء المنتمين الى « عليّـة القوم » وراح يتمشى مع سائقي السيارات . واذا كانت احاديث هؤلاء اقل تهذيباً ، فلهم عذرهم لانهم غير مثقفين ، ويفتقرون الى الكثير من العـلم واوقات الفراغ ليتمرنوا على الاحاديث الدارجـة في الطبقة المترفة ، بينما توافرت لهذه الطبقة جميـع اسباب الثراء الثقافي ، والفكري ، والروحي ، فظلت على هذا الصعيد فقيرة معدمة . ثم ان سائقي السيارات يتحدثون عن اشياء تخطر في بالهم ، ولا يتأنقون ليقولوا ما يحسبونه من النمط الرفيع .

وكان يلقي على سولانج ، من حين الى آخر ، نظرة مضطربة لا تخلو من اللوم . فلولاها لما كان في ذلك المكان المقيت . انه يدفع دائماً هذه الغرامة ثمناً لعلاقته بالنساء عندما لا يكنّ من بنات العامة ، اذ يضطر الى الالتقاء بهن ، او مرافقتهن ، في الاماكن الحقيرة : الصالونات ، والفنادق الفخمة ، والملاهي الليلية ، وقاعات التمثيل المسرحي ، والشواطىء التي يؤمها الاثرياء المترفون . وكانت خليلاته السابقات يعلمن جميعاً انه لا بد لهن من التظاهر بكره هذه الاماكن ، ومن ترديد ما يقوله هو في هذا الشأن ، مع زيادة شيء من عندهن امعاناً في الاستنكار .

ويا له من استياء رائع ! فان حقيقتهن تتغلب على كل ما يبدين من التصنع . ويكفي ان ينظر المرء اليهن ليراهن في مرابع اللهو والمرح

منتعشات، منتفخات عجباً، يسرن اختيالاً، وينظرن الى ما حولهن بنشوة المنتصر. ومهما بذلن من الجهود، فانه يستحيل عليهن اخفاء شعورهن بانهن يحببن هذا النوع من الحياة، ويجدن فيه المتعة والبهجة والهناء، حتى ولو كنّ من اشرف النساء، والطفهنّ، واشدهن ميلاً الى البساطة والهدوء. وليس في العالم قوة تستطيع تغيير المعادلة الحسابية التالية:

المرأة = حب الظهور.

وكان ماضي كوستال زاخراً بالعلاقات المثقلة، بل المسمومة، بالخجل الذي انتابه وارهقه، لانه كان يضطر في اغلب الاحيان الى مسايرة خليلاته بمعاكسة ميوله ونزعاته، فيرافقهن الى اماكن يكرهها، وينهج سبيلاً في الحياة يملأ نفسه اشمئزازاً. وكما يشعر الرجل بشيء من النقمة على ابويه، بعد مرور ثلاثين عاماً على سن المراهقة اذ يتذكر، مثلاً، انهما اجبراه على درس الحقوق سنة دون فائدة، او على ارتداء صدرة بيضاء في الصيف، وينسى، او يتناسى، كل ما بذلا في سبيله من المحبة والعطف والاخلاص، هكذا كان كوستال يتذكر المزعجات الزهيدة التي سببتها له المرأة ويتناسى كل ما منحته من متع ومسرات، وساعات مفعمة باللذة والنشوة، فيقول في نفسه: «كم من الايام ضيعت لاجلها، ما عدا المال...، في امور غير لائقة ومنافية للكرامة. مثلاً: امضيت ثمانية ايام في دوفيل بسببها، وما ازال حتى اليوم أحمرّ خجلاً من سخافة هذا التصرف».

ولم يكن ناقماً على سولانج، في ذلك الحين، لانه اعتبر نفسه مكرهاً على المجيء بها الى ذلك الفندق الحافل بمظاهر الادعاء والغرور، إلا انه جعل يكدّس بعناية جميع اسباب نقمته في احدى زوايا نفسه، ليعود اليها ويتذرع بها عندما تأزف ساعة الانفصال عن الفتاة والتخلص منها.

ومنذ قليل، بينما كانت السيارة منطلقة بهما في غابة «مونمورنسي»، كان يمر بهما شبانٌ على درّاجات نارية، فيرونهما متعانقين فماً الى فم،

ويرسلون ضحكات مفرقعة ، فيجيبهم كوستال بتلك الضحكة الفتيّة ، المرحة ، المعبرة عن شيء من التواطؤ ، وقد كان يحبها لانها عامية الطابع ، خالية من الادعاء .

ومنذ قليل ايضاً ، في الفندق ، قال كوستال لسولانج : « لو استأجرتُ غرفة هنا ، فهل توافقين على الصعود اليها للاقامة فيها بعض الوقت ؟ » فأجابت : « نعم » ... دائماً تلك الـ « نعم » ذاتها !

وبدأ العشاء في جو من الاستياء وتوتّر الاعصاب ، وانتهى في موجة سوداء من الكآبة الصامتة .

فقد وقعت لكوستال حوادث غرامية عديدة من هذا النوع ، فأخذ فتيات عذارى في عواصف هوجاء من الرغبة ، لم تترك بعدها اثراً غير عز الانتصار والخطف والاستيلاء . ولكنه في بعض الاحيان كان يشعر بالاضطراب والقلق اذ يفكر بانه مقدم على عمل حاسم ومصيري في حياة المرأة ، ودون اقل اهمية بالنسبة اليه . وهذا ما كان يشعر به الى جانب سولانج . وكان يفكر ايضاً قائلاً في نفسه : « وبعد ساعة ، سأعلم كيف تتصرف » . فيتوقف فضوله عن مساندة عاطفته ، ويسائل نفسه عن مصير هذه العاطفة اذا فقدت نهائياً مساندة الفضول .

وخاطب سولانج قائلاً :

-- هل طرحتْ امك عليك اسئلة غير لائقة بخصوص ما جرى بيننا في غابة بولونيا منذ ايام ؟

ـ لا ، من حسن الحظ .

ـ لو سألتك : « كيف تصرّف معك ؟ » فبمَ كنتِ تجيبين ؟

ولما لزمت الصمت ، استطرد قائلاً :

ـ استخلص من سكوتك انها لو سألتك لما ترددتِ في سرد كل ما حدث ، ولما نسيتِ ان تذكري التفاصيل .

ـ لم اخفِ شيئاً قط عن امي .

– جميل للغاية ! ... فقد تلقيتِ تربية طريفة !

– لم اخف شيئاً عن امي ، لانه لم يكن لديّ ما هو جدير بالاخفاء .

– وهذا يعني لو انك ... آه ! ارى انك غير خالية من الذكاء على الرغم من جميع المظاهر .

وفي هذه اللحظة ، وقعت حادثة مماثلة لما جرى منذ بضعة ايام ، اذ انفصلت عن جماعة نزلاء الفندق طفلة في حوالى الخامسة من العمر ، وجاءت تحدّق الى سولانج بامعان ، وفي نظراتها ما ينم عن البهجة والافتتان . ولما جاءت امها لتأخذها انفجرت باكية ، ثم عجزت الام عن حملها على تناول طعامها لان عينيها كانتا مستمرتين بسولانج لا ترتفعان عنها لحظة واحدة . فتذكر كوستال ما قالت له سولانج عن تأثيرها شبه السحري في الاولاد .

وبعد قليل صعدت الى الغرفة ببساطة تامّة دون ان يبدو عليها اقل ارتباك . فذُهل كوستال ، وساورته فكرة مشوّشة بلبلت عقله ، لانه خبر الحياة ، فقال في نفسه : « من يراها صاعدة الى الغرفة بمثل هذه السهولة يظن انها لم تقم الا بهذا العمل في ما مضى من حياتها ... »

وفي الغرفة ، بدأت العملية بسلسلة من العناقات الحارة ، الطويلة ، على الشرفة ، امام اوراق الاشجار المرفرفة في ضوء شعري ضئيل ، وعلى انغام الموسيقى الصاعدة من ردهة الفندق .

وامعن كوستال في الاجتهاد قائلاً في نفسه : « يجب ان اقوم بهذا العمل على الوجه الأكمل . ويجب ان اترك لها ذكرى جميلة في مستوى هذا القمر العتيق ، وهذه الموسيقى المسكرة ، فلنغرس في رأسنا ان كلمتي « خلود » و « عناق » شقيقتان ، إنْ لم يكن بالتركيب فبالحروف[1] ،

---

[1] – ان كلمتي « خلود » و « عناق » هما بالفرنسية « ÉTERNITÉ » و « ÉTREINTE » ، وتتألفان من الحروف نفسها مع اختلاف في التركيب مما سهّل للكاتب هذا التلاعب الطريف .

ولنعطِ هذه الفتاة نفحة من الخلود ».

واستلقت سولانج على السرير عارية من جميع ثيابها ، ما عدا حذاءها وجوربيها اللذين انحدرا عن ساقيها وتدليا فوق الحذائين . وكانت قد تعرّت تباعاً عملاً باوامر كوستال ، ودون اقل غنج او دلال ، او حياء كاذب ، بحركات طبيعية ، صريحة ، كما صعدت الى الغرفة تحت انظار نزلاء الفندق والخدم ، دون ان يطرف لها جفن . وكانت ساقاها مكسوّتين بالوبر . وكانت هذه ميزة فاتنة في فتاة مثلها ، شريطة ان لا تبالغ فيها .

عانقت كوستال عناقاً مرتبكاً ، أخرق ، خالياً من الحرارة والقوة . وكانت القبلات التي جادت بها عليه — وهي الأوّل التي اعطتها منذ بداية علاقتها — مجتزأة ، قصيرة ، كأنها ضرب من المجاملة . وكانت كلما اعطت قبلة ، بدا على وجهها تأثر سطحي كأنها تقول في نفسها : « يجب ان اقبله ، هذه هي الاصول المتبعة في هذا النوع من العمليات » . ولكن لما ألصق فمه بفمها ، وبدأ يلقنها الفن الأسمى في الغرام ؛ احس انها وجدت المداعبة التي تهفو اليها ، وتجد فيها ذروة متعتها ... فاصبح من الواضح ان يومها لم يذهب سدىً لانها بلغت هذا الهدف المرتجى . وخلال دقائق طويلة ، لم يكن الامتلاك الشكلي عن طريق الفم ليقلّ استسلاماً وعطاءً عن الامتلاك الرسمي الكامل . ولما سألها : « أتريدين ان اشعل المصباح ؟ » (لأن اول عمل قامت به عندما دخلت الغرفة كان انها اطفأت الكهرباء ، ولكن الغرفة كانت مضاءة بنور القمر) ، اجابت : « لا ، لا اريد » ، بصوت جديد ، غيّر نبرته التأثر العميق ، كأنه صوت طفلة ، مرتفع وخافت معاً ، وكأنه آتٍ من بعيد ، من حنجرة طفلة تدعى سولانج دنديّو ما تزال في نعومة اظفارها ، وكأن هذه الطفلة كانت لا تزال مستقرة في اعماق المرأة المنطرحة عارية على سرير الغرام . وقد اطلق كوستال ، في ما بعد ، على هذا الصوت اسم : « صوت سولانج الليلي » ، لانه لم يكن يصدر عنها إلا في اثناء الوصال .

عندما تقلع سفينة الغرام بالفتيات الصغيرات يجب ان تكون انوارها مطفأة .

ولم يبق في عيني كوستال شيء من جسم سولانج . لم يبق فيها منها سوى وجهها الحاط بشعرها المبعثر ، كأنه قلب زهرة تحيط به وريقات التويج . وخيّل اليه ان هذه المرأة انقلبت تويج زهرة . فهل رأيت امرأة زهرة ؟

واستسلمت له في البدء على ما يشتهي ، ولكنها في اللحظة الحاسمة اجهشت في البكاء قائلة : « لا ! لا ! » وظلت تبكي فترة طويلة ، وتذرف دموعاً سخية صادقة ، بينما كان هو يداعبها ، دون ان ينسحب منها ، ويقول في نفسه : « اننا نعرف هذه الألاعيب كلها ! » ولكنه لم ينفصل عنها ، لأن نفسه أبت عليه ان يجرح شعورها ، وخصوصاً لانه اراد ان يحتفظ بشيء من الرغبة للعمليات المقبلة ، فلم يتركها إلا بعد ان هدّأ روعها ، و أعدّها لمواجهة المستقبل اعداداً تاماً . ومن النادر جداً ان يجمع الرجل ، في مثل هذه الحال ، بين الشهوة والفضيلة كما فعل كوستال .

وظلت سولانج تبكي بعض الوقت ، بعد ان ابتعد عنها كوستال . ثم صمتت وجفت دموعها ، بينما كان شعوره هو بمتعة الوصال حياً نديّاً في لحمه واعصابه كأنه جرح جديد .

وظلّا فترة طويلة صامتين ، دون حراك ، وهما مستلقيان جنباً الى جنب ، وكوستال يسائل نفسه أتكون سولانج ناقمة عليه ؟ ...

أيكون تظاهرها بالحياء نفاقاً ؟

لم يستطع كوستال نفي هذا الظن من فكره . وتبادر الى ذهنه انها قد تكون مستاءة لانها لم ترتو بقدر ما كانت تودّ ... او ناقمة لانه جرّها الى هذه النهاية . ولكنها استدارت فجأة وطبعت على خده قبلة احدثت صوتاً شبيهاً بصوت قفزة الضفدعة في الماء .

وظل دقائق عديدة صامتاً الى جانبها ، وهو يحس انه يعلو ويتسامى .

ان ثمة ارتفاعاً روحياً دينياً او غير ديني يتم عن طريق الصوم . وقبالته ارتفاع آخر تحتّمه سنّة تشابه المتناقضات ، وهو الذي تحدثه عملية الهضم بعد وليمة رسمية ، فاذا بالمرء يسمو فيها الى عالم افضل .

اما كوستال فكان يرتفع ويتسامى بعد تنعمه بالوصال الجنسي ، ويعلو بقدر ما يكون قد أعطى من نفسه وقوته ، لأن الوصال يفرغه من شهوته الجسدية فلا يبقى فيه سوى تساميه الروحي ، او لأن اتصاله الجسدي بالمرأة ، كاتصال سلكين في دورة كهربائية ، يلقي على حياته الداخلية نوراً ساطعاً يكشف عن دقائق الانتقال من الشهوة الجسدية المطلقة الى العاطفة الروحية المطلقة . وهناك نفوس تسير عفوياً الى المطلق كما تجري المياه الى البحر . وكل ما في مؤلفات كوستال من قوة وابداع قد هبط عليه هبوط الوحي خلال تلك الفترات التي يكون فيها بعد الوصال . وهكذا ، بينما كان مستلقياً الى جانب سولانج ، راح يفكر بتيريز بانتفان ... فرأى نفسها المهددة – بالنسبة الى ايمانها الكاثوليكي – فلا تشعر هي بالخطر الرهيب المحدق بها . ولكنه فكّر ايضاً بانه اشفق عليها كفاية حتى اصبحت هذه الشفقة تتعبه .

توقفت الاوركسترا عن العزف في ردهة الفندق . وكانت نوافذ الغرفة مشرعة على ليل دافىء تبدو فيه اوراق الاشجار سوداء بعد انطفاء الانوار ، ويسمع لها حفيف شبيه بصوت هطول المطر . وتخيّل الى كوستال ان اندريه هاكبو واقفة الى جانب السرير بوجهها اليائس ، تقول له : « انا التي تحس ، وتعرف ، وتفهم ... انا التي توغّلت في انتاجك الادبي كأنها انت ، ولكن على اعمق وافضل ... تضنّ عليها بما تغدقه دون حساب على هذه الصغيرة التافهة ، لسبب واحد هو انها جميلة الوجه ! »

ان تصرفاته الاستبدادية الظالمة كانت تلهب نفسه حماسة في اغلب الاحيان ... وهذه هي المتعة الي ينعم بها الله عندما ينظر الى خليقته .

ولكن هذه المتعة بدت له ثقيلة في تلك اللحظة ، فراح يداعب سولانج ، لأنه احس بميله المغرض اليها ، ولم يجد اقل ذريعة للتريث في مداعبتها. إلا انه صمم على ان يكتب الى أندريه ، في اليوم التالي ، رسالة لطيفة ، ولكنه لم يفعل ، لانه كان منصرفاً الى افكار دينية اوحتها اليه رسالة من تيريز .

وفي السيارة ، بدت سولانج اقلّ ذهولاً منها في المرة السابقة ، فانفصلت مرات عديدة عن صدر كوستال لتنظر الى عينيه دون ان تفوه بكلمة ، كأنها تحتاج الى معرفة ذلك المخلوق الذي اخذها . اما هو ، فكان يقول في نفسه ، تحت وطأة هذه النظرة : « ان وجهي وجه رجل في الرابعة والثلاثين ، وجه رجل يفكـّر ، فيه قباحة الذين يفكرون ، او يتوهمون انهم يفكرون » . وظل تحت نظرة سولانج كجندي يتطاول ليظل رأسه فوق افريز السور . ما افظع وجه الرجل في عريه من البودرة والتبرّج ! وما اعظم بسالته في المثول الى جانب وجه المرأة المكتسي بمختلف انواع الزينة ! وظلت سولانج تحدق اليه فترة طويلة ، ثم القت رأسها على كتفه كأنها تريد ان تستسلم له من جديد .

وظنّ انه اصبح من حقه ان يخاطبها بصيغة المفرد على سبيل الالفة ورفع الكلفة ، ولكنها ظلت مصرة على مخاطبته بصيغة الجمع ، فابتسم لها ، فقالت :

– لا أحسن التكلم بصيغة المفرد .

فاحدث هذا الاعتراف في نفسه اثراً عميقاً ، لأنه اكتشف فيه مزيجاً من الحياء والانفة . انه اعتراف اميرة اسبانية طفلة[1] .

وبعد سكوت ، سألته فجأة ودون تمهيد :

– قل ، أحقاً تحبني ؟

---

١ ـ اشارة الى ان سولانج من اسرة عريقة الارومة في الارستقراطية .

فأجابها بخفة ، ودون تفكير ، لانه كان يظن دائماً أنه من المحتمل ان لا تكون مخلصة وصادقة في حبها :

– هذا سؤال يجب ان اطرحه انا عليك .

فانتفضت بعنف وغضب لم يكن يتوقع ظهورهما فيها ، وقالت :

– ليس لك أقل حق في التفوّه بهذا القول ! ألم اعطك البراهين الدامغة عن اني احبك ؟

وكانت قد اشرأبت كالافعى الصغيرة عندما قالت : « ليس لك اقل حق ! » ولم يكن كوستال ليصدق انها قادرة على التفوّه بمثل هذه الكلمة ... أتراها تستطيع الهيام حتى التدلّه ؟ وتبادر الى ذهنه سؤال من الاسئلة التي يحذق الرجال طرحها في مثل هذه الحال ، وهو : « ما هي هذه البراهين ؟ »

واستطردت سولانج قائلة :

– انا ، ساحبك الى الابد . اني اعلم ذلك . اما انت ، فالى متى ؟

– زمناً طويلاً .

ولما تجهمت لتعبر عن استيائها ، قال :

– لما كنتُ في السادسة عشرة من العمر – اسمعي ، اني اقول السادسة عشرة – ، تعرّفت الى فتاة في الرابعة عشرة . وكنت احبها كما يحب المرء للمرة الاولى ، أعني بحرارة وقوة لا وجود لها في المراحل التالية من الحياة . ومن البديهي انها طرحت عليّ يوماً هذا السؤال الذي طرحته انتِ الآن ، لأنه سؤال تقليدي . قالت : « انا احبك مدى الحياة ، وانت ؟ » فأجبتها : « انا ؟ الى ابعد مدى ممكن ! » كنت احبها حتى الجنون ، وكنت في السادسة عشرة من العمر ، إلا اني كنت بعيد النظر منذ تلك السن الباكرة . ولست بحاجة الى القول اننا افترقنا بعد ستة اشهر ، واصبح احدنا ينظر الى الآخر بعدم اكتراث كأنه لا يعرفه . اعلمي ، يا صديقتي ، اني احب الحقيقة . احب ان ارى ما هو كائن في

الواقع الملموس .

واصرّ بشدة على كلمة « واقع » كأنها من صميم ايمانه ، ثم قال :

– يقول الناس انهم اشقياء عندما يرون الواقع كما هو ، اما انا فارى الواقع كما هو ، واراني سعيداً في هذا الوضوح غاية السعادة . وبما اني اعرف الحقيقة ، اعلم انه لا يجوز رهن المستقبل او ربطه . كيف يكون شعورك بالنسبة اليّ بعد سنة ؟ بعد ستة اشهر ؟ بعد ثلاثة اشهر ؟ وكيف يكون شعوري انا ؟ ولهذا السبب لا اقول لك : « الى الابـد » ، مع اني اجد هذه العبارة طبيعية بين شفتي فتاة ، وأتأثر بها تأثراً عميقاً للغاية . اني اقول لك : « زمناً طويلاً » ، واقولها بوعي رجل يدرك معناهـا ، ويعلم انها تعني كثيراً . ومن حسنات الحيـاة ان يوقن المرء بانـه سيظل يحب زمناً طويلاً ، صدقيني .

ولكنها لم تجب .

وقبل ان يفترقا ، اراد ان يشجعها فقال لها وعلى شفتيه ابتسامة لطيفة :

– اعلمي اني لا اشعر باقل تعب منك .

إلا انه ما عتم ان ندم لانه شك بها ، خصوصاً لان شكه كان واهياً لا يستند الى اقل سبب . فقد كان هناك ادلّة عديدة على انها نقية القلب ، ثم تبين له عن كثب انها نقية الجسد ايضاً ، ولكنـه لم يستطع إلاّ ان يفكر بصيحتها : « لا ! لا ! » في اللحظة الحاسمة ، وببكائها ، وحتى بصوتها الليلي ونبرتها الشبيهة بنبرات تلميذات المدارس ، لان كثيرات من النساء يلجأن الى هـذه المظاهر ليخدعن السذج من الرجـال . وعلى الرغم من هذا التفكير اقتنع اقتناعاً كلياً بان سولانج كانت طبيعية ، صادقـة في جميع تصرفاتها ، ورأى انه من الدناءة ان يشك بها حتى ولو كان مكرهاً على الشك .

اما سبب شكه فيعود الى ماضيه الحافل بالمغامرات ، لأن ذكرياته كانت احياناً تسيطر على حاضره وتؤثر في نظرتـه الى سولانج على الرغم من

ارادته ومن اقتناعه . فقد كانت الحلقة الاخيرة في سلسلة غرامياته الطويلة ، بينما كان هو الاول في حبها وفي تفتحها على الحياة ، فلا غرابة اذا كان قد عرف نسخاً عديدة قبل وصوله الى الوثيقة الاصلية ، واذا كانت هذه الوثيقة الاصلية قد بدت شبيهة له بالنسخ من وجوه عديدة . وبينما كان موقفه من أندريه لا يسبب له اقل اضطراب ، كانت علاقته بسولانج تضايقه وتجعله يعتبر نفسه مذنباً ، مع ان ذنبه الوحيد انه تصرف معها بما هو مطبوع عليه .

وهناك شعور آخر كان يدفعه الى الشك بسولانج ، شعور منبثق من تعجبه ومن تساؤله : « كيف استطاعت ان تحبه ! »

ولم يكن كوستال مغروراً بانتاجه الادبي ، فكان ابرز ما اعجبه واستهواه في سولانج انها لم تحدثه عن مؤلفاته ، ولم تقل له كلمة واحدة عن اعجابها بنبوغه . اما غروره برجولته فكان كالقمر يظهر حيناً ويغيب حيناً آخر . وكان اعتقاده الاول أنْ ليس في العالم امرأة تصدّه اذا اشتهاها . ولكن عندما كانت احداهن تقع بين ذراعيه ، وتعطيه مع جسدها قليلاً من قلبها ، كانت تستولي عليه الدهشة ، فيردّد كلمة لويس الخامس عشر : « يصعب عليّ ان افهم لماذا يحبني الناس هذا الحب العظيم » . وفي هذا التحليل كان يتنعّم باعتقاده انه لا يُقهر ، بقدر ما يتنعم باكتشاف تواضعه وقلة اعتداده بنفسه ، وقد قال الحكيم : « لكل شيء وقته ! » وتبادر الى ذهنه انه يستحيل على سولانج ان تحبه حباً حقيقياً ، فجعل يقول في نفسه : « انها عاجزة عن تقدير ما فيّ من العظمة والتفوق ، لان دماغها دماغ برغوث بحري ، فيا لها من حبيبة مسكينة ! ما الذي تستطيع ان تحبه فيّ ؟ اي شيء في مظهري المادي جدير بأن يُحب ؟ من البديهي ان هذه المسألة ليست واضحة » . وقد فاته ان المرأة ، بخلاف الرجل ، تنتهي الى الشهوة عن طريق المودة العاطفية ، فاذا بشكه مركب من عنصرين : الاول نستطيع شجبه بالعبارة التالية : « هو

ملل من أمعن في الانغماس باللذات ، فاصبح يشوّه في تفكيره كل سذاجة حقيقية بريئة » ؛ والثاني يصعب علينا جداً ان لا نسميه تواضعاً طبيعياً وحقيقياً . كان شعوره ، اذاً ، صالحاً من جهة ، وطالحاً من جهة اخرى ، كثلاثة ارباع مشاعر جميع الناس . وهذا ما يرفض المجتمع الاعتراف به ، لانه يريد اشياء واضحة الحدود كي لا يقع في الارتباك والحيرة . ولكن هذا ما تريده الطبيعة التي لا تحب إلّا الفوضى .

وكان كوستالِ يخاطب نفسه قائـلاً : « لا شيء يمنعني من ان اكون نيّر البصيرة دائماً » ، فيتبادر الى ذهنه قوله : « زمناً طويلاً » ، ليقابل به هذه الـ « دائماً » . وكان يقول ايضاً : « ليس في الحياة ما يجعلني اودّ ان لا اكون نيّر البصيرة . فبعد نظري يخيف الناس ، لكنه لا يخيفني انا . انه يسلّيني ويرفّه عني ، فهو مسخ روّضتـه فألِفني وألفتـه . ولكن لماذا اقول انه مسخ ؟ فلنقل انه شيطاني الخاص ، شيطاني الواقي . وبفضل هذه البصيرة النيّرة أعيش عيشة منسجمـة وفي منتهى الذكاء ، فلا أعمل إلا ما اعلم اني قادر على عمله . واذا كنت احصر احيـاناً قوتي في نقطـة واحدة ، فـاني لا أفـرِط ولا أتورّط ، ولا اضيـع وقتي ، ولا يستطيع احد ان يخدعني ، ولا يضللني اعتدادي بنفسي ، ولا يزعجني مزعج لأني لا أتحملّ من لا اطيقـه حتى على سبيل المجـاملة . وبمـا اني اتمتع بكل قوى الخيال والشعر ، الى جانب هذه البصيرة النيّرة ، فاني اجـد عن طريق الشعر ربوع الاحلام العذبة ، واكتشف عن طريق الخيال مشاعر الناس القصيري النظر ، مما يسمح لي بالاستغناء احياناً عن نظري الثاقب ، اذا رأيت ذلك موافقاً ، فاكسب على الصعيدين .

« ليست حياتي متفوّقة . واذا كانت طاقتي الجنسية كاملة وسريعـة التلبية ، فان فكري ، وطبعي ، وقلبي ، لتفتقر الى اشياء كثيرة ، وفيها اكثر من ثلمة ، ولكنها ، على كل حال ، من العناصر الصالحة لبناء حياة متفوّقة .

« اما حبيبتي « دنديتو » التي ليست انا ، فكل ما اود الحصول عليه ، بالنسبة اليها ، هو ان لا تتعذب بسببي . وهذا ما سأحصل عليه تارة بالكذب ، وطوراً بقول الحقيقة ، غير معتمد في مناوراتي على المبادىء ، بل على الانتهاز ، واغتنام الفرص ، والحذق في تدارك الامور ، وجاعلاً من محبتي نبراساً لي ودليلا .

« من المحتمل ، في غير هذه الحال ، ان اعللها بالاوهام . ولكن لا بد لي من ان اضعها ، ولو مرة واحدة ، أمام الحقيقة السافرة ، على امل ان احاول ، في ما بعد ، ستر هذه الحقيقة التي لا يجوز بسطها باستمرار على انظار فتاة في العشرين من العمر . واعتقد ان هذه الصراحة ضرورية ، وإن تكن على جانب من الغلاظة وقلة الذوق » .

من

بيار كوستال

باريس

الى

تيريز بانتفان

في وادي موريان

٢٩ شباط ١٩٢٧

حضرة الآنسة !

اشفقتُ كثيراً عليكِ امام الله ، في هذه الايام ، تلبية لطلبك . واخيراً ، رأيتُ نفسك في الحلم ، منذ قليل لوجودي في احوال خاصة ، وعلمت ان هذه النفس مهددة بخطر رهيب . اني اشبّهك باولئك الذين يحسبون نفوسهم في امان ، وهم على ابواب ثورة ، لأنهم من دعاة التحرر . فكلٌ منهم يقول : « لماذا اخشى الثوريين ؟ فهم يعلمون اني معهم قلبياً . واذا ارادوا ان يحكموا عليّ فلا بد من الحكم على الجميع » . وبالفعل تنشب الثورة ، ولا يتعرض احد لهؤلاء المتحررين ، فيعتبرون نفوسهم منتصرين . ثم يُعتقَلون ويُعدَمون . انك تنامين قريرة العين حين ترين نفسك محاطة بجمهور كبير من الخطاة الصغار ، والابرياء المزيفين ، كأن الله مضطر الى انقاذك . ولكنك تتجاهلين ، مثل اليهود الذين هلكوا جميعاً في الصحراء ما عدا اثنين ، الامثلة الواردة في الكتاب المقدس لاثبات صحة المذهب القائل بصعوبة الخلاص . قال يسوع المسيح ان المختارين للسعادة الابدية سيكونون قلّة ، وابدى اعجابه بضيق طريق

الخلاص ووعورته ، وأكد ان الذين يهتدون اليه نادرون . والمسيحيون يقرأون هذه الاقوال ولا يبالون ، ويعتقدون انها من اساليب المسيح في الخطابة والبيان .

اننا نرى في الكنائس ، خلال قداس الساعة الحادية عشرة ، عدداً كبيراً من الهالكين يجثون بكل تقوى ، ويجودون بالكثير عندما تُدار عليهم الصينيّة . والاسباب المخففة الوحيدة لجرمهم تعود الى رئيس الكنيسة الذي تركهم في اوهامهم يعمهون ليظل عدد المؤمنين كبيراً في لوائحه . لا يجوز لكنيسة هذا العصر ان تدعي السير على نهج القديس اغسطينوس [1] وعلى مذهب القديس توما [2] إلا اذا جاز لحركة إحياء الآداب القديمة التي زيفتها جامعاتنا ان تدعي الانتماء الى اليونان وروما . فالعصور القديمة والقرون الوسطى كانت هيكل مذهب روحاني لم تستطع واحدة من الديانات والفلسفات التي جاءت في ما بعد ان تسير على صراطه او ان تحوّره .

---

١ ـ اسقف مدينة هيبّونا في الجزائر ، توفي عام ٤٣٠ . اهتدى الى الحياة الكهنوتية بعد تمرّغه في حياة حافلة بالمغامرات الدنيوية ، وانصرف الى التبشير فأصبح من اشهر آباء الكنيسة الكثوليكية واعلامها كعباً في الارشاد . ويذكر المؤرخون انه كان يستعين بتراجمة يترجمون مواعظه الى اللغة الفينيقية ليفهمها الافريقيون الشماليون ، مما يدل على ان افريقيا الشمالية كانت في ذلك الحين فينيقية الطابع واللغة والحضارة بفضل التراث الذي خلفته فيها قرطاجة والذي عجزت روما المنتصرة عن ابادته . وكتب القديس اغسطينوس سفرين نفيسين هما : « مدينة الله » و « الاعترافات » ، ووضع دراسة لاهوتية في « النعمة الالهية » محاولاً التوفيق بين الفلسفة الافلاطونية والديانة المسيحية ، وبين العقل والايمان . ويعتبر من اعظم الفلاسفة واللاهوتيين وعلماء الاخلاق في العالم .

٢ ـ القديس توما الملقب بالأكويني والشهير بأنه صاحب فلسفة « المُطلق » . لاهوتي عميق الغور ، قوي الحجة ، توفي عام ١٢٧٤ . وضع اللاهوت النظري الذي يعتبر اساساً للفلسفة اللاهوتية في الكنيسة الكثوليكية . فلسفته مستوحاة من ارسطو ، وقد أطلق عليها اسمه فعرفت بالـ « تومية » .

عاشت كنيسة المسيح الف سنة وبضع سنوات . واظن – وقد اكون مخطئاً – ان لا وجود لها الآن إلا في الاديار .

رأيتني في الحلم اطرحك في معقل كامل التحصين من الخارج ، وفي مكان تجري فيه شؤون الارض تحت قدميك ، كما تجري شؤون السماء فوق رأسك[1]. واذا كان صرح الكثلكة كله باطلاً ، تكونين قد اعطيتني عن نفسك فكرة كبيرة ، وليس هذا شيئاً زهيداً[2]. واذا كنتُ قد افقدتك ايمانك بهذه الصراحة ، فلا بأس ، فمن الافضل لكِ ان تخسري في البحث السامي الفريد من ان تخسري وانت في البؤرة الدنسة حيث تتخبّطين .

ولكني ارى انك لم تعملي بالنصيحة التي اسديتها اليك باللجوء الى كاهن يتعمق بدرس ما يعتلج في نفسك . لن أصرّ على دعوتك الى العمل بهذه النصيحة ، لأني لا استطيع الاهتمام بك الى الابد ، فالاحياء الذين يقتصر دورهم في الحياة على المرور بهذه الارض لا يسترعون اهتمامي إلا في اثناء مرورهم . واذا انحرفتِ من تلقاء نفسك عن الطريق الذي تسيرين عليه فذلك من حسن حظك ، لأن انحرافك يدل على ان الله لم يدعُكِ لهذا المصير . ومن المحتمل ان تحتوي نفس ميتة على حركات حياة مخطئة . بعضنا يعلم هذا عن كثب وعن طريق الاختبار . وقد اكون مخطئاً في آرائي المتعلقة بك .

تقولين لي انكِ تتألمين . ومن شأن هذا الألم ان يكون عظة لكِ ، اذا كنتِ لا تجدين عظات اخرى . فالألم عظة للذين لا يفكرون ولا يصلّون . لا ادري ما هي التجارب التي تعانيها ، ولكني اعتقد أن

---

١ ـ يعني انه وضعها في مكان ترى منه الحقيقة فلا تضللها الخرافات الدينية .

٢ ـ تشجيع لئيم على الكفر . وقد تعمد المؤلف تغليف قصده بالغموض امعاناً منه في التمويه ليتفاقم الشك في نفس الفتاة الساذجة ، وليزداد حبها قلقاً واضطراباً .

الدخول في التجارب هو نعمة كبرى من الله ، فلو لم يكن الله مهتماً بك لما جرّبك ، ولاهملك في حياة هادئة رتيبة . وقد يكون لهذه التجربة الفضل الاول في انقاذك من الخطر الشديد المحدق بك . واذا افترضنا ان التجربة ليست وجود الله ، بل غيابه ، فليس هناك قديس واحد لا يظهر الله في نفسه تارةً ، ويغيب تارةً اخرى في حركة سريعة يتوالى خلالها الظهور والغياب . فالنفس كالسماء المشرقة عليها الشمس ، إلا ان سحباً صغيرة تجري فيها وتحجب وجهها من حين الى آخر .

وانا ايضاً اعاني تجارب بسببك ، وأراني حائراً بينها . فحيناً تساورني رغبة في دفعك الى الله ، كما يُدفع الكلب الى الصيد ، ويُجرُّ من طوقه جراً ، فيقول له الصيّاد : « من هنا يا غبي ... ومن هنا تصل الى الطريدة » ، وحيناً آخر افكر بطرحك في عدمك . وستشعرين يوماً بهذا العدم حين اخرج منه لتظلي فيه وحدك .

وتقبلي ، ايتها الآنسة ، عواطفي المخلصة .

كوستال

اذكرك باني غير مؤمن . فاذا بحثتُ عن الله فلا اجد إلا نفسي .
نشرت رسالتي هذه بعد طيّها لأضيف اليها ما يلي : لا اخفي عنك اني في الليلة الاخيرة ، وانا اكتب اليك هذه الرسالة ، كنت عازماً عزماً اكيداً على هجرك ، لانكِ خيّبتِ املي فيكِ . ولكن يبقى لنا الاتجاه الآخر : فسأشفق عليك السبت ، في الساعة السادسة مساءً . واذا كنت اذكر لك هذا الوقت على وجه التدقيق ، فلأني سأكون فية مع شخص استمد منه القدرة على الشفقة . ولكن كوني على حذر ، فستكون شفقتي عليك بطريقة خاصة ، وفي اتجاه معيّن . انت لا تدركين خفايا الشفقة ؛ اما انا فاعرفها كلها .

من

اندريه هاكبو

سان ليونار

الى

بيار كوستال

باريس

١ حزيران ١٩٢٧

« وهذه رسالة اخرى لا تنتهي ! ان هذه الفتـاة مجنونـة ! يا الله ! ما اشد جنون هذه الفتاة ! وكم كان صادقاً سفر الجامعة (او سفر سليمان) حيث يتحدث عن شقاء الوقوع في احلام امرأة ملتهبة ! » أليس هذا ما تبادر الى ذهنك لدى وصول هذه الرسالة اليك ؟ ولكن لا تخف ، فمن الصدف النادرة اني ما جئت ازعجك هذا الصباح ، فقد تحسنت حالي .

لماذا تحسنت حالي ؟ يبدو لي اني هذيت كثيراً في رسائلي الأخيرة ، واني اليوم أرى الموقف بوضوح كما هو تماماً ، اولاً لاني ذهبت الى المزيّن منذ يومين ، اي ان شعري الآن مهندم جميل . وكلما نظرت الى وجهي في المرآة ، وفي ذهني فكرة راسخة بان الايام الاخيرة الفظيعة زادت في سني عشر سنوات ، رأيت ان ملامحي لم تتغير ، ولم تزل كما هي . وفضلاً عن ذلك ، فالجميع يقولون لي اني غدوت حسناء ، انيقة ، وأندى شباباً ، الخ ... بعد عودتي من باريس . ثم ان حالي تحسنت لان الطقس قد تغير ، وظهر بعض الغيوم في السماء ، فلم اعد اعاني نشوة الصيف التي

تزيد آلامي احتداماً . فالطقس اليوم خريف . اما الخريف المقبل ، فسيكون بالنسبة اليّ شيئاً آخر ... ستكون لي ثياب جديدة غير هذه التي تعذبت فيها ... هذا في اعتقادي وهمٌ يجعلني اظن ان الامل قد نشر اشرعته من جديد . فهل سمعت في حياتك ان طقساً غائماً كئيباً يستطيع ان ينقلب وعداً بالسعادة ؟

أمل ... وعد ... اني أعقد دائماً مع نفسي هذا الميثاق الزاخر بالرجاء فاذا بي انتظر ، وانتظر دون ملل . اني انتظر منك شيئاً منذ اربع سنوات . اعطيتك كل شيء ، ولم أنل منك شيئاً . لم تقبّلني مرة واحدة في اربع سنوات ! واذا متُّ ، فهل تمنحني اخيراً قبلة ؟

لماذا ، لماذا تصر على الرفض ما دام العطاء الذي انتظره منك لا يكلفك شيئاً ؟ لماذا لا تريد ان تترك لي ، على الاقل ، ذكرى اشتهيها ، اتوق اليها بكل قواي وكل حرارة حبي ، وانت تملك مئات من هذه الذكريات ، بينما انا لا املك واحدة في حياتي الجدبة القاسية ؟ لاجل قبلة واحدة ، عفوية ، منك ، ادفع عشر سنوات من سنيّ صداقتك دون اقل تردّد .

ان فيك شذوذاً عجيباً . فانت تحب ، ولا تعطي شيئاً . وعندما يحب المرء يعطي . هذه سنّة الطبيعة وحركة الحياة . اما انت فيبدو ان شعارك هو : « لا عطاء ! » وقد بلغ هذا الشذوذ فيك حداً جعلني أميل احياناً الى الاعتقاد انك لا تحبني . ولكن لا ريب في انك تحبني . يجب ان اكون عمياء كي لا ادرك هذه الحقيقة . فللنساء قدرة غريزية لا تخطىء في ادراك هذه الامور .

تقول لي انك لا تحبني . تحاول بشدة اقناع نفسك بانك لا تحبني . فلو كنت اعلم انك لا تحبني ، ولو كنت واثقة بانك تعتبر امتلاكي سخرة ثقيلة مزعجة ، لثارت فيّ انفتي وكرامتي ، ولانسحبت من الميدان تلقائياً ، لاني لن أتدنى الى استجداء الحب من احد . ولكني واثقة بما هو

نقيض هذا تماماً، واثقة بانك تحبني، وإن لم تكن تعاني في حبي هياماً ناريا ضارياً. هل كنتُ ألعوبة الوهم الطائش عندما قرأت محبتك وعطفك في عينيك؟ هل كنت حالمة عندما سمعتك تقول لي انك تحبني؟ أأكون واهمة اذا اعتقدتُ ان فكرة الزواج بي قد خامرتك عندما كنا نزور البيت المعروض للايجار في شارع «كنتان بوشار»؟ هل كنت متوهمة في ١٦ نوار من السنة الماضية عندما امسكتَ بيدي وابقيتها في قبضتك فترة طويلة؟ وعندما قبضتَ على ذراعي، وسرت الى جانبي ملتصقاً بي في «ساحة الولايات المتحدة»؟ وعندما شكوتَ لي حالك في ذلك اليوم، وأبديت اسفك المرير لانك لست ابا؟ أأكون قد حلمت وتوهمت عندما كنتَ تصل احياناً متأخراً الى موعدنا، فأسألك: «لماذا تأخرت»، فتجيب: «كان الاجدر بكِ ان تسأليني لماذا جئت؟»

أتدري ما الذي جعلني ادرك محبتك في ٢٦ نوار؟ لما كنا في السيارة التكسي، تلامستْ ساقانا، فانتفضتَ فوراً، وابتعدتَ عني. فادركت عندئذٍ انك تحبني بروحك. قال بودلير[1]: «المرأة التي لا يتنعم بها الرجل هي المرأة التي يحبها».

لو كنتُ على يقين من انك لا تحبني لكنتُ رضيت بان تقبلني دون اقل اكتراث كما تقبّل حجراً. وإلّا، فما معنى هذه المقاومة الشديدة التي القاها منك؟ لماذا لا تستقبلني في منزلك؟ لماذا لا تأخذني الى مكان نرقص فيه ونشرب شمبانيا؟ لو فعلت لتجلّت لنا الحقيقة سافرةً. من السخف حقاً امعانك في القول بانك لا تحبني ولا تشتهيني، حين اراك تبذل كل هذه الجهود في محاولة يائسة لخنق شهوتك.

---

١ ـ شاعر فرنسي توفي عام ١٨٦٧. اشهر مؤلفاته «ازهار الشر»، تعمق في الاحساس الشعري مع مراعاة طلاوة النظم وموسيقى الأداء. خلق اسلوباً جديداً ما يزال فاعلاً حتى اليوم.

منذ اربع سنوات ، وانا الى جانبك ، احس اني مخلفة بخجلك . تود ان تعمل شيئاً معي ، ولكنك لا تجرؤ . انك تجيد الجرأة مع النساء اللواتي لا تحبهن بروحك . اما معي فانك تفقد صوابك . ربما كنتُ في اعتقادك باردة ! وقد كان هذا الاعتقاد عذباً بالنسبة اليّ بعض الوقت ، اما الآن فقد طال امده اكثر من اللزوم . ليس من المعقول ان اخيفك الى هذا الحد .

اذا كان لا بد لي من ان اصدّق ما تقول ، واذا كنتَ حقاً لا تريد حبي – مهما يكن هذا الافتراض بعيداً عن الواقـع – فليس لديك سوى وسيلة واحدة لمقاطعتي ، وهي ان تقنعني بانك لا تحبني . هل رأيت الآن في اي غاب كثيف وعر المسالك ورّطت نفسك ؟ انه وعر المسالك ولا مخرج له بالنسبة اليك . ولكن ولداً في السنة الثانية من العمر يستطيع الخروج منه . انك لمضحك حقاً . ولستُ ادري كيف يمكن ان يصبح الرجل العبقري غبياً الى هذا الحد . لا شيء يعادل غرابة موقفك مني ، انك دائماً على اهبة المقاومة ... كأنك بطة طائرة تخشى ان تدهسها مركبة « التليفيريك » . مسكين ! يا لك من ولد مسكين !

هيا بنا ، يا صديقي ! اطلق لنفسك العنان . فانت تكبح جماحك ، فيؤلمك هذا الكبح ، فهل هذا من الحكمة ؟ أتدع النور الذي اضاءه فيك ينطفيء ؟ أتعود الى انفرادك ، الى عقمك ، الى حرمانك الحب ؟ عندما يكون خلاصك ها هنا ، على مقربة منك ، يبسط لك ذراعيه العاريتين ، ويقدم لك وجهـه الندي ، وكل ما فيـه من الكنوز الطاهرة ، النقية ، لماذا تشيح بوجهك عنه ؟

لن تجد ابداً امرأة مثلي . لن يمد الله اليك يداً كهذه اليد ابداً .

لك : اندريه

حاشية : غادرتني منذ لحظة صديقتي ريموند . وقد كنت اطلعها دائماً

على الخطوط الكبرى من علاقتنا . سألتني الى اين وصلنا . ولما بحت لها بالحقيقة ، صاحت بي : « ألم تدركي بعد انه يهزأ بك ولا يحسب لك اقل حساب ؟ » فشرحتُ لها كيف ان تحفظك هو الدليل الساطع على حبك . فضحكتْ ساخرةً . اني اخجل بكوني امرأة حين ارى النساء في مثل هذه الغلاظة . ولكني اود ان تسمح لي بان اكتب اليها – بعد فترة من الزمن – بانك جعلتني سعيدة اخيراً . وهكذا اكون قادرة على مخاطبتها بطريقة اخرى عندما تزورني من جديد .

اجل ، اسمح لي بان اقول لريموند ولاثنتين اخريين من صديقاتي « الحميات » : « ان كوستال عشيقي ! » فاذا سمحت لي بذلك تكون قد اعطيتني ظل السعادة التي اتوق اليها وترفض ان تسبغ عليّ حقيقتها . انك مدين لي بهذا السماح على الاقل .

(بقيت هذه الرسالة بلا جواب)

من

تيريز بانتفان
في وادي موريان

الى

بيار كوستال
باريس

الاحد

امس السبت ، بينا كنت تشفق عليّ ، الساعة السادسة مساءً ، انتابني خفقان قلب عنيف . ولما قُرع جرس صلاة التبشير ، ادركت بوحي منك ان الذين يقرعون الجرس من « الابرياء المزيفين » ، وانهم كفّار يتأهبون للتظاهر غداً بانهم يحتفلون بعيد الرب ، باقامة الزينات الكاذبة . وقد هالني صوت الجرس ، وكان وقعه في اذني فظيعاً للغاية .

انتابتني ايضاً اختلاجات وارتعاشات شديدة ، فكان جسدي يرتجف ككفل الحصان ، واحسست بحركة غير مألوفة في امعائي . فاطلقت صيحة الراعي المستغيث . وقد يكون صوتي سُمع في « نوازون » . ثم جعلت انتحب وارسل الزفرات ، وانطرحت على الارض ، ووجهي الى التراب ، ومددت ذراعي صليباً ، واحسست اني لا اجد الراحة إلا في هذا الوضع . وكنت احرك رأسي يميناً ويساراً كأني مصابة بدوار ... كأني نشوى بحالتي .

وما كدت انطرح على الارض حتى جعل الطفل « مارسيل » يبكي بكاءً شديداً ، وهو ابن اختي ، وفي السنة الثانية من العمر ، وقد عجز

الجميع عن اسكاته ، فجلست على الارض ، ولاعبته حتى سكت . ثم استلقيت على ظهري ، فعاد الطفل الى البكاء ، فاحتضنته ، فسكت من جديد . وفي هذه الاثناء كنت انتحب ، واشعر بحركة امعائي تشتد ، فقلت اشياء كثيرة عن روح بابل الملحدة ، وعنك ، وعن زواجنا . وكنت اضم الطفل « مارسيل » الى صدري بقوة ، واشده الى ثديي ، والى وجهي ، وبين ساقيّ ... واقبله قبلات ممتلئة ، حارة ، واحس انه في جسدي ، فهو ابلنا . وكنت سكرى بان يكون لي ولد .

سألتْ امي : هل ثمة ضرورة لدعوة الكاهن . فقال احدهم : « لا ! » فاخذت امي كتاب القداس وراحت تقرأ ما فيه من الصلوات . وبعد قليل انتزع مني « مارسيل » ، فرحت اضرب ثدييّ ضربات شديدة ومتواترة بقبضتيّ معاً ، فارتحت قليلاً . وكنت اتكلم دون انقطاع ، ولكني لا اتذكر ما قلت . اختبأت في احدى الزوايا ، وسرت فترة طويلة على ركبتي ، وصفقت ، ثم نهضت منحنية الظهر ، ويداي مشتبكتان ، ووقفت على رأسي بشكل نصف دائرة . قلت لاحدهم ان ينفخ فيّ ، ففعل . ثم فعلت امي مثله تلبية لطلبي . وفي هذه الاثناء ، ما توقفت عن العويل وارسال الزفرات قائلة : « اواه ! اني اموت ! » ولا ريب في اني كنت فظيعة جداً ... ليتك ترى كم انا دميمة !...

واخيراً ، بعد ان تألمت كثيراً ، طلبت الى احدهم ان يضربني بحطبة على ثدييّ ، ففعل ، وكان عنيفاً ، فنجوت .

فيا حبيبي ، لا اقول لك اكثر مما قلت . اخبرني متى تشاء ان ترحمني رحمة كبيرة مرة اخرى ... اواه ! اني اتوق الى رحمتك ، ولكن لتكن رحمتك بعد انقضاء بضعة ايام ، لئلا تحطمني تحطيماً .

ماري

تمّ كتاب « الصبايا » ، ويليه كتاب « رأفة بالنساء »

منشورات عويدات ٨٥٣ / ١٩٨٧

Montherlant

Les jeunes filles

Texte traduit en arabe
par
Georges MASROUA

MARIANNE / OUEIDAT

Henry de Montherlant
Les jeunes filles

